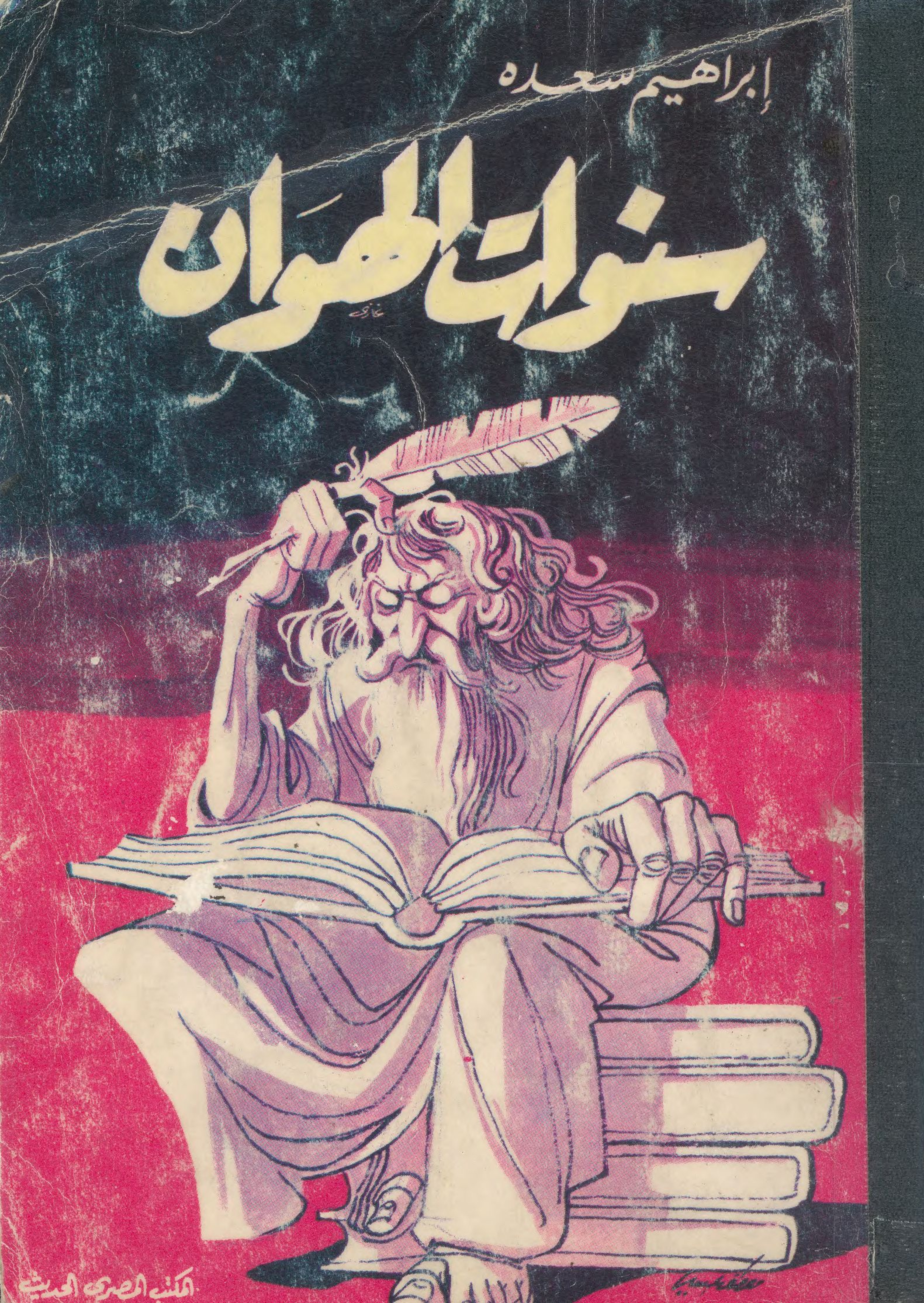


إبراهيم سعده
سنوات الهوان
المكتب المصري الحديث

الطبعة الاولى

مـــايو ١٩٧٥

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. محمـــد ديـــاب

جراح بالمستشفي الملكي المصري

الناشر : المكتب المصرى الحديث للطبــاعة والنشر
٧ شــارع نوبار ت ٢٦٦٠٢ الاسكندرية
٢ شـــارع شريف ت ٥٣١٢٧ القــاهرة

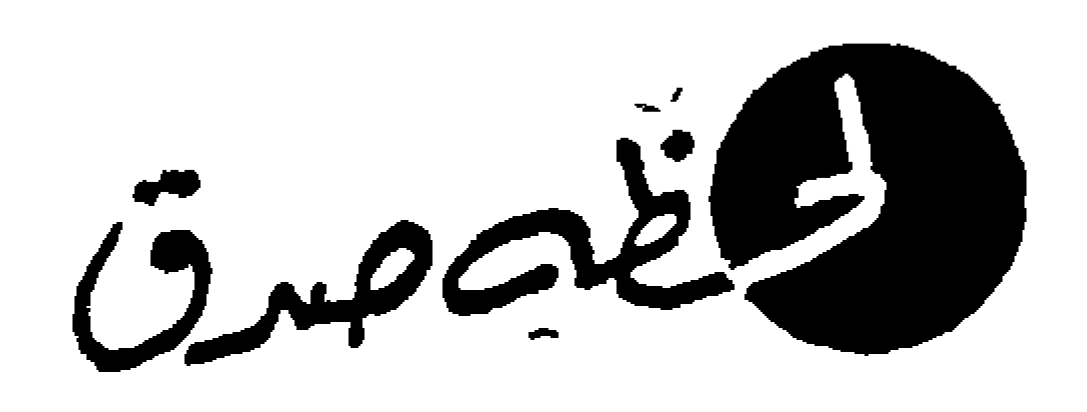
ابراهيم سعده

سنوات الهوان

المكتب المصري الحديث

الغـــلاف بريشـــــة الفنان مصطفى حسين

الاخـراج الفنى : الفنـان محمود القاضى



هـــذا الكتاب ليس هجـوما عـــلى عبد الناصر ، وانما هو محاولة لتصحيح الكثير من المفاهيم الخاطئة التى تسللت الى قلوبنا وعقولنا ، خلال فترة فقد فيها البعض .. حكمـــة التمييز ، ومتعـــة الاختيار .

إهداء ..

الى المسلم المؤمن الذى كفر بالله ، من هول التعذيب الذى تعرض له فى السجون والمعتقلات .

الى المسيحى المؤمن الذى اعترف بانضمامه الى الخلايا السرية لجماعة الاخوان المسلمين .

الى الشيوعي الذى تحمل الضرب بالسياط ، والنعال ، ولم يضعف ، ويتراجع ، ويتلون كما فعل المئات من المزيفين .

الى الوطني الذى اتهموه، في وطنيته ، وشوهوا اخلاصه ، ولطخوا شرفه ، وانتهكوا عرضه .

الى الفلاح البائس الذى لايزال يعيش نفس العيشة التى عانى منها جده القديم أيام الفراعنة .

الى المصرى الذى تحمل مالم يتحمله غيره ـ حتى الآن ـ فى مشارق الارض ومغاربها .

.. اليهم جميعا أهدى هذه السطور .

المؤلف

هذه الصفحات

في حياة أى نظام سياسى ، سنوات مضيئة وأخرى مظلمة . والاضاءة هنا يقصد بها ايجابيات المرحلة ، أما الظلام فيرمز به الى سلبياتها .

والفترة الطويلة الماضية ، التى عشناها فى مصر ، ازدحمت سنواتها بالايجابيات وبالسلبيات فى نفس الوقت .

ولم يكن هذا عيبا ، بالنسبة للمؤرخ الذى يعكف على تسجيل تاريخ الاشخاص ووقائع الاحداث . فاهتمامه بالبحث والتنقيب عن السلبيات ، لايقل عن اهتمامه بذكر الايجابيات .

فالتاريخ لاينافق . ولايكذب . ولا يزور .

كما أن التاريخ لا يحاكم المخطىء ، ولا يعتقل المهمل .

انه يسجل فقط !

حدث هذا بالنسبة لتاريخ الشعوب كلها . بما فيه من علامات مضيئة ، ونقاط مظلمة .

ولكن الامر اختلف كثيرا بالنسبة لتجربتنا السياسية التى عشناها خلال السنوات الماضية · فقد حاول أولو الامر فينا ـ وقتذاك ـ أن يفصلوا بين الايجابيات والسلبيات · بين النجاح والفشل · بين الارتفاعات والانخفاضات · بين الحق والباطل ! ·

أعطونا جانبا واحدا من الصورة · الجانب المضىء فقط ! ·

أما الجانب الآخر ، الجانب المظلم ، فقد أخفوه عن الانظار ! دفنوه تحت أطنان من التراب ! ومنعوا الاقتراب من مكانه ! ·

وكانت الفرص كلها متاحة أمامهم لتمجيد انتصاراتهم ، ولاخفاء انكساراتهم · فالاجهزة كلها ـ بما فيها جهاز الاعلام ـ تتحرك من خلال خيوط تتجمع فى قبضة رجال السلطة ·

الصحافة ، مقيدة ، مكممة ، ولا حرية لكتابها وأقلامها ! وأعطت مراكز القوى لنفسها الحق فى اختيار وتعيين وتشريد رؤساء التحرير والكتاب الكبار ، والصحفيين الصغار ! الذى يعجبها قلمه ، تبقى عليه وترفعه الى أعلى مناصب صاحبة الجلالة ·· حتى ولو لم يكن ينتسب للصحافة من قريب أو من بعيد ! والذى كان يختلف معها ، وتسىء الظن بقلمه ، تبعده عن الصحافة أو تجمد قلمه ·· حتى ولو فقدت الصحافة الكثير من الروح والكفاءة بغيابه !

كانت مراكز القوى تريدها صحافة كالببغاء · جهازا لاحس له ولا روح · عقلا صناعيا يزود بالمعلومات المضللة ، والاخبار الكاذبة ، والقضايا المفتعلة ، ليرددها بعد ذلك وبصفة دورية مستمرة ·

ونجحت الصناعة الصحفية فى تحقيق الكثير مما أعدت له وما طلب منها ··

هللت للطغيان !

وصفقت للجلادين !

وغنت للاستبداد !

وتغزلت فى كبت الحريات !

وانقطع الخيط الواهى الذى كان يصل الصحافة بالرأى العام فى مصـــــر ..

لم يعد الشعب يصدق ما ينشر فى الصحف . لم يعـد يثق فى عشرات الاقلام التى تكتب له كل يوم صفحات . ولم يكن لديها مانقوله سوى تبرير أخطاء الحاكم ، وتضخيم ايجابيات السلطة ، وتصغير سلبياتها الى درجة اللاوجود !

أقلام كثيرة ـ محترمة ـ عاشست فترة عصـبية وعصـيبة لا تحسد عليها أبدا . كانت غير راضية عما آلت اليه المهنـــة الوحيدة التى أحبوها ، وعشقوها ، وأعطوها أكثر بكثير مـمـا أخذوه منها . ووجد هؤلاء الشرفاء أنفسهم فى مفترق الطرق .

اما أن يختاروا الطريق الاول ، فيسيروا فيه ويتحولوا الى مكبرات لصوت السلطه ، ولســـانه عندما يشـــتم ، وعندما يمدح .. فيفقدوا بذلك احترامهم لانفسهم واحترام القارىء لاقلامهم .

واما ان يبتعدوا عن هذا الطريق المشبوه ، ويرفضوا القيام بدور مضحك الملك وشتام الحاكم ومسلى الســـلطة ، وبالتالى يتعرضـــــون للبطش بهم ، وتحطيم اقلامهم ، والتنكيل بهم نفسيا ، وجسمانيا ، داخل السجون والمعتقلات !

واما ان يختاروا الطريق الثالث والاخير ، فيحنوا الرءوس أمام العاصفة العاتية ، وفى نفس الوقت يتحايلون على الاحتفاظ بكرامة أقلامهم ، ومنع سقوطها فى هاوية النفاق ، والرياء ، وامتهان ذكاء القارىء ، والغاء فكره وعقله آ

ورفض الصحفيون الشرفاء اختيار الطريق الاول . واختار بعضـــهم الطريق الثانى ، واختـــار البعض الآخر الطـــريق الثالث .

وكانت النتيجة مؤسفة لهم ولنا جميعا ..

فالذين اختاروا طريق الرفض والاعتراض ، ابعدوا عـــن

الصحافة وصدر القرار بتوزيعهم على الجمعيات الاستهلاكية ، ومؤسسة الدواجن ، وشركات الاحذية ، وعلى غرف التعذيب والتهذيب فى السجون .

والذين اختاروا الطريق الثالث ـ والاسلم ـ تحايلوا على مراكز القوى وكتبوا لها كلاما لايغضبها ولايسعدها فى نفس الوقت . كلاما كالماء .. لاطعم له ! كتبوا سياسة بلا سياسة ! وكتبوا نقدا لايغضب !

ولم تهتم مراكز القوى بالصحفيين الشرفاء . فقد أبعدتهم وجمدت أقلامهم .

ولكنها اهتمت بغير الصحفيين الذين أصبحوا بقدرة قادر من أصحاب الآراء ، ومن حملة الاقلام الصاروخية .

وسيطر هؤلاء الدخلاء على صحافتنا سنوات وسنوات ..

ملأوا خلالها الدنيا ضجيجا ، وتهليلا ، وتصفيقا ، وهتافا ، لكل قرار صدر ، ولكل مشروع اقترح ، ولكل تغيير أتخذ ، ولكل تطرف أتبع !

الاخطاء حولوها الى نجاح . والهزائم الى انتصارات . والنكبات الى نكسات . والمصائب الى مناسبات لاختبار مدى ايمان القلوب وحماس النفوس .

والنتيجة .. ؟؟

عاش الشعب المصرى جانبا واحدا من الواقع . الجانب الايجابى المضىء وحده . أما الجانب السلبى المظلم ، فقد أخفته مراكز القوى ، وحاولت دفنه الى الابد تحت أطنان من الرمال والوحل والطين .

واستمرت سنوات الايجابيات تحجب خلفها سنوات السلبيات ، الى أن حدث الزلزال .

الزلزال الذى هز مراكز القوى ، واقتلع جذورها ، ودفنها تحت الانقاض ، منذ ١٥ مايو سنة ١٩٧١ .

الزلزال الذى هز الشعب ، فأيقظه بعـــد ســبات طويل وعميق .

فانهارت ـ بعده ـ حصون البطش ، والقمع ، والتنكيل .
وتساقطت قلاع الاستبداد ، والاستعباد ، والاستغلال .

وتفتحت شبابيك وأبواب الحرية .

وعاد للصحافة انطلاقها ، وللاقلام شجاعتها ، وللانســـان آدميته وكرامته .

وكان لابد أن تتاح الفرصة للشعب ليتعرف عـلى الجانب الآخر ، والخفى ، لماضيه القريب . الجانب المظلم الذى نجحت مراكز القوى ـ طوال عهدها الاسود ـ فى اخفائه .
وأصبح من حق الشعب أن يتلمس آثار سنوات السلبيات والهزائم ، بعد أن تشـــبع طويلا بما قالوه له عن ســـنوات الايجابيات والانتصارات .

وبدأت الصحافة الحرة ، والاقلام الشجاعة الوطنية ، ترفع الثوب الممزق عن الجسد العارى !

***

وبعـــــد ..

ان من واجبنا أن نحدث الشـــعب عن اخطاء وهزائم الذين حكموه بالحـديد والنار ، بعـد أن حــدثناه عن أمجـادهم ، وانتصـــاراتهم ، وبطـــولاتهم التى امتدت لمشـارق الارض ومغاربها !

وليس من العار أن ننتقـد ، ونحاسـب ، ونحـاكم المخطىء والمذنب والمجرم ، ولكن من العار أن نسكت على الظلم ، ونعفوا عن الاستبداد ، ونقيم التماثيل للاقزام ! .

علينا أن نمزق ثوب العار !

ابراهيم ســعده

مايو ١٩٧٥

أموالنا الهاربة

- قصة الارقام السرية
- انتهت لعبة الحساب السرى
- أعيدوا أموالنا
- الذين ضلوا الطريق
- لصوص القصور المصادرة ..

كتبت أكثر من مـرة عن أمـوالنا الموجـودة فى بعض بنوك أوروبا ·

وطالبت باعادتها الى خزانة الدولة ، فهى المالكة الحقيقيـــة لهـــا ·

وليس المهم أن تكتب الصحف · ولا أن يعلق الناس عـــلى ماتكتبه الصحف ·

وانما الاهم من هـذا وذاك ، أن تتحرك الاجهزة الحكومية ، وتحقق ، وتوضح وجهة نظرها لمـا تتناوله الاقلام ، ومايحرك مشاعر الجماهير ، ويثير سخطهم وغضبهم ·

وكم كنت أتمنى لو ان رئيس مجلس الشعب ، بادر وأعلن عن تشـكيل لجنة من أعضـاء المجلس ، لتقصى الحقائق حـول موضوع أموال الشعب الموجودة بأسماء بعض الافراد فى بنوك أوروبا ·

وكم كنت أتمنى أن يسارع رئيس الوزراء باجراء اتصالات مع حكومات تلك الدول ـ التى قيل ان أموال الشعب مهربة فى بعض بنوكها ـ فى محاولة جادة منه لاقناعها بملكية الدولة لهذه الملايين ، ومطالبا باعادتها ·

المعلومات التى عندى ، ان شيئا من هذا لم يتحقق ·

فلا مجلس الشعب اهتم ·

ولا مجلس الوزراء تحرك ·

ربما كانت معلوماتنا عن وجود هـــذه الاموال المهربة ، غير كاملة ، أو غير حقيقية · ولكن هذا لايبرر أبدا ترك الصحافة تكتب ، والناس تعلق ، ولا نضع حدا لهذا الكلام وتلك الاتهامات ، نعلن أن الحكومة قد تحركت ، وتحققت ، وثبت لها كذب هذه المعلومات ·

هذا الاعلان من جانب الحكومة ، سوف يضع الكثير من الراحة والاطمئنان فى قلوب الناس · أما تركهم هكذا ، يقرأون ويسمعون عن هذه الاموال الطائلة فى الخارج ، ليتمتع بها من نهبها وهربها لحسابه ، فان الغضب سيملأ قلوبهم ، وعقولهم ·

ولهذه الاموال حكاية طويلة ··

فكل دولة من دول العالم ، تحرص على وجود أموال لها فى بنوك أجنبية بعيدة عن حدودها ·

فمن هذه الاموال ، تتم صفقات سريعة ، وهامة ·

ومنها ما يصرف منه على عمليات تتطلب السرية الكاملة فى التنفيذ ·

ومنها ما يستخدم فى احباط المؤامرات التى قد تطيح بنظام الحكم فى البلاد ·

ومنها أخيرا ماتحتجزه الحكومات ، للصرف منه على مايسمى « بحكومة المنفى » · فى حالة انقلاب عسكرى يطيح بحكمها ، وينجح فى طردها من البلاد ·

وقد بالغت بعض الحكومات ، فى هذا الاحتياطى الخارجى ، المكدس فى بنوك أوروبا الغربية ، وبالذات فى سويسرا التى ابتدعت نظام الارقام السرية لحسابات العملاء · ونظام الرقم السرى ، ببساطة ، هو اتاحة الفرصة للعميل لايداع أمواله فى البنك ، بدون أن يتعرض لاحتمال الكشف عن شخصيته ، عند السحب وعند الايداع ·

والطريقة سهلة جدا ..

يكفى أن تصل الى سويسرا محملا بالحقائب التى ملأتها بمئات الآلاف من الدولارات أو الجنيهات أو الفرنكات أو الماركات .. أو أية عملة أخرى سهلة الصرف والتحويل .

ومكالمة تليفونية ، تجريها مع البنك السويسرى الذى وقع عليه اختيارك ، وتطلب من عاملة التليفون أن تصلك بقسم الحسابات السرية . ثم تقول للموظف الذى يرد عليك ، عن الاسم الذى انتحلته لنفسك ، وتطلب مقابلته لفتح الحساب السرى .

اذا كنت تحمل مبلغا هائلا من المال ، وتخشى عليه من اللصوص ، فان موظف البنك سيكون أول من ينصحك بالبقاء فى المطار ، الذى وصلت اليه لتوك ، لحين حضوره لمقابلتك ولنقل أموالك الطائلة فى سيارة البنك المصفحة .

أما اذا كان المبلغ مما يسهل حمله ، وان ثقلت قيمته ، ففى هذه الحالة سينصحك موظف البنك بركوب سيارة تاكسى من السيارات الواقفة أمام المطار فى انتظار من يطلبها ، وبعد دقائق ستقف بك السيارة التاكسى أمام البنك الذى اخترته .

لن تدخل من الباب الرئيسى الذى يدخل منه باقى العملاء . فهناك احتياطات أمن أعدت خصيصا لامنائك من أصحاب الحسابات السرية . والمدخل المخصص لهؤلاء يكون عادة تحت الارض . والسيارة تنزل بك اليه ، مارة بالجراج الخاص بسيارات البنك وعملائه .

وتقف السيارة أمام باب أسانسير .

ادخله . لن تجد صعوبة فى التعرف على الدور الذى تريد الوقوف عنده . فالاسانسير مخصص للصعود الى طابق الحسابات السرية فقط .

وبمجرد أن يغلق عليك باب الاسانسير ، تضاء على الفور اشارة ضوئية أمام الموظف المختص ، الذى يسارع بالاتجاه الى باب الاسانسير ، ليكون فى شرف انتظارك عند فتح الباب .

عبارات تحية ، سريعة ، يتقدمك بعـــدها الموظف الى غرفة صغيرة ، وأنيقة ، ومكيفة صيفا بالهواء البارد المنعش ، وشتاء بالتدفئة المحببة ٠

وأمام الموظف ، الذى سيبادر بتقديم بطاقة تحمل اسمه ، وأرقــام تليفوناته ، تبدأ فى املاء طلبك ، وهـــو يتلخص فى فتح حساب بالارقام السرية ٠

وعلى الفور سيقدم لك الموظف بطاقة صغيرة ، لتدون فيهـا اسمك الحقيقى ، أو اسمك المزور ، أو اسم أى شـــخص آخر تختاره ، واسماء من تريد أن تكون الاموال من حقهم فى حالة غيابك ، أو ــ لا قدر الله ــ انتقالك الى الحياة الاخرى ٠

ثم توقع بامضائك الحقيقى ، أو بالامضاء المســـتعار ، فهذا لايهم ٠ ولكن المهم ــ والذى سيلفت الموظف نظرك اليه ، هــو ان هذا التوقيع ــ الحقيقى أو المســـتعار ــ هــو وحــده الذى ستسحب بموجبه المبالغ المطلوبة ٠

وبعد ذلك يتم فتح الحساب ٠ ويذكر لك رقمه ، لتحفظه عن ظهر قلب ٠

ويتسلم منك المبالغ التى حملتها معك فى حقائبك ٠ ويعطيك ايصالا بها ٠

وينتهى عندئذ كل شىء ٠

وقبل أن يصـــحبك الى باب المصـــعد ، يحيطك علمـا ببعض المميزات والقواعد الخاصة بنظام الحساب السرى ٠ فأى شخص يتقدم الى البنك ومعــه رقم الحســـاب ، والتوقيع الســـليم ، سيصرف له المبلغ الذى يطلبه ، فورا ، وبدون أية تعقيدات أو توقيعات ٠

صاحب الحســاب السرى ، يمكنـــه أن يطلب من البنك أن يصرف من حسابه أى مبلغ يطلبه أحد ــ أو كل ــ أولاده ، أو زوجته ، أو أحد معارفه ، بشرط أن يكون لدى البنك توقيع هذا الشخص مقدما ٠

ولم يعد هنـــاك المزيد مما يقال ، فيقودك الموظف الى باب الاسانسير ، الذي يهبط بك الى تحت الارض ، لتجد ســـيارة تاكسى ، فى انتظارك لتقودك الى الطريق العام أو الى المطـــار اذا كنت فى عجلة من أمرك ٠

٠٠ كانت هذه قصة الحساب السرى ، ببساطة شديدة ٠

● انتهت لعبة الحساب السرى ●

سرق أموال الشعب ٠ نهب ثروة البلد ٠ هربها لحســـابه الخاص فى بنوك أوروبا ٠ وضعها فى خزائن حديدية ٠٠ تفتح بأرقام سرية لايعرفها سوى ٣ أشخاص : صاحب المال نفسه ٠ ومـــدير البنك ٠ والموظف الوحيد الذى تقابل وتعامل معـه المهرب الكبير ٠

منتهى الامان ٠ ومنتهى الضمان ٠

ولذلك فقد امتلأت بنوك سويسرا بالاموال التى هربهـــا لصوص الشعوب ، خلال سنوات حكمهم الطويلة ٠

ورغم السرية المطلقة التى تفرضها البنوك على الحســـابات السرية ، فكثيرا ماتتبدد هذه السرية ، ويتمكن البعض من معرفة شخصية أصحابها ، والرقم الحقيقى للارصدة المكدسة ٠

هناك غرامة ٢٠ ألف فرنك سويسرى ـ الفرنك قيمته ٢٢ قرشا ـ تفرضها السلطات على موظف البنك السويسرى الذى يخون الامانة ، ويكشف عن شخصية أحد اصحاب الارصـــدة السرية أو أن يحدد رقم رصيده لاية جهة من الجهات الرسميـــة أو غير الرسمية ٠

والغرامة بسيطة ٠ وتافهة ٠

فما أكثر الحكومات التى تريد معرفة أرصدة بعض مواطنيها التى هربوها الى بنوك سويسرا ، بدون وجه حق • وما أكثر ماتعرضه هذه الحكومات من أمـــوال لاى موظف ـ كبيرا أو صغيرا ـ يوافق على كشـــف أسرار الارصدة السرية فى البنك الذى يعمل فيه •

والنتيجة ؟

سقط عشرات من الموظفين فريسة للاغراء • تقاضى الموظف الواحد منهم عشرات الآلاف من الفرنكات مقابل افشاء أسماء وارقام أرصدة بعض الحكام الســـابقين فى الدول المختلفة ، وعدد من كبار المسئولين الحاليين •

وأسرعت البنوك الى وقف هـــؤلاء الموظفين عن العمــل • وأوقعت عليهم المحاكم عقوبات مالية لاتزيد عن العشرين ألف فرنك • وطردتهم من وظائفهم بسبب خيانة الامانة ، وفضـــح أسرار العملاء •

ولم يحدث أن حاول أحـــد الموظفين المطرودين الانتحار • فضميره لايعذبه • وجيبه لايفزعه • معظمهم تركوا وظائفهم فى البنوك وشغلوا وظائف ومهنا أخرى عديدة ، وساعدهم فى ذلك المـال الوفير الذى حصـــلوا عليـــه مقابل ماقدموه من أرقام ومعلومات • وبعضهم قال اثناء التحقيق معه انه ســـعيد كل السعادة بفضح أسرار حسابات لصوص الشعوب وتجـــار المخدرات والقتلة الذين كدسوا الثروات فى البنك الذى يعمل فيه • ولذلك فان ضميره لايعذبه • ولا يشعر بأنه ارتكب عملا شائنا ، خان به الامانة وشرف المهنة •

ويندر أن تمر مناسبة الا وأثيرت فيها قصص الحســـابات السرية فى بنوك سويسرا •

وكثـــيرا ما ارتفعت صيحات ـ فى العالم كله ـ تطـالب السلطات السويسرية بضرورة اعادة النظر فى نظام بنوكها ••

التى تستقبل كنوزا هائلة هربها اليها لصوص الشعوب ، وتجار المخدرات ، وزعماء عصابات القتل والنهب ٠

وكثيرا ما وافقت السلطات السويسرية على الاتجاه العالمى الذى يطالبها بوضع نظم سليمة ، وشريفة ، للحسابات السرية فى بنوكها ٠

واتخذت الموافقة السويسرية أشكالا متعددة منها :

١ ــ وافقت على الدخول فى مباحثات مع سلطات الأمن فى الدول المختلفة ، لمساعدتها فى اعادة الاموال التى هربها القتلة وزعماء العصابات وتجار المخدرات ٠ ومعظم هؤلاء من الولايات المتحدة الامريكية ٠ فعصابات المافيا وقتلة شيكاغو ، استطاعوا أن يهربوا ثروات طائلة الى الحسابات السرية فى بنوك سويسرا

وحول هذه الثروات ــ بالذات ــ نجحت مباحثات تمت فى العام الماضى بين سلطات سويسرا والولايات المتحدة للكشف عن شخصيات أصحابها والموافقة ــ من حيث المبدأ ــ على اعادة تلك الأموال الى الخزانة الامريكية ٠ المالكة الحقيقية لها ٠

٢ ــ لم تجد السلطات السويسرية صعوبة كبيرة فى أقناع بنوكها بفضح أسرار رجال العصابات وزعماء الاجرام فى العالم ٠ فالمعروف أن هذه الاموال جمعت عن طريق السرقة ، والسطو ، والتهديد ، والابتزاز ٠ وجميعها وسائل غير شريفة لاتشرف صاحبها ، ولاتبعد الشبهات عن البنك الذى يقبلها ٠

وقد تغير الوضع عندما بدأت المفاوضات بشأن كشف أسرار حسابات الشخصيات السياسية العالمية ٠ فقد هبت البنوك تعارض مناقشة الفكرة ٠ ورفضها رفضا قاطعا بحجة أن هذا يعنى نهاية سمعة البنوك السويسرية ويفقد العملاء ثقتهم فى تلك البنوك ٠

ولكن هذه الضجة الكبيرة التى أثارها رجال البنوك ، ضد اقتراح كشف أسرار بعض الشخصيات ، لم تقلل من الضغط

المتواصل الذى تتعرض له الحكومة السـويسرية من جانب العديد من حكومات العالم تطالبها به بالكشف عن أرصدة عدد من المواطنين والحكام السابقين ·

وخضعت الحكومة السـويسرية ووافقت على الدخول فى مباحثات ، ومفاوضات مع تلك الحكومات ·

وكانت الصـورة ، على خطورتها ، تدعو الى الدهشـة والغرابة ·

توالت طلبات مقدمة من حكومات شـملت جميع قارات العالم · أكثرهـا مـن أمريكا الجنوبية · ثم تلاها طلبـات من أفريقيا · وآسيا · كلها طلبات بنفس المعنى · وتطالب بنفس الشيء ·

أتضح أن عشرات من رؤساء الدول الذين أبعدوا عن الحكم طوعا أو كرها ، لديهم حسابات سرية فى بنوك سـويسرا · والحكومات التي جاءت بعدهم ، تطالب اليوم بتلك الارصدة ·· بحجة انها أموال الشعب ، سرقت من خزائن الدولة ، وهربت لحساب عدد من الحكام السابقين ·

وقدمت مبررات قانونية تقول :

« لافارق هناك بين زعيم عصـابة تقتـل وتسرق وتنهب وتخطف الاطفال وتطالب بالفدية ، وبين زعيم دولة سرق أموال الرعية ، ونهب خزائن الدولة ، واستباح حقوق الشـعب · فالأول حصل على ثروة بطريق غير شريف ، واودعها فى بنوك سويسرا · والثانى حصل ، هو الآخر ، على ثروة بطريق غـير مشروع وهربها لحسابه في بنوك سويسرا · فاذا كانت الحكومة السويسرية توافق على اعادة أموال زعيم عصـابة القتل الى سلطات البلد الذى ينتمى اليه ، فلماذا لا توافق سويسرا على اعادة أموال زعيم الدولة السابق ، الى خزانة الشـعب التى نهب منها تلك الأموال ؟ » ·

ورفضت البنوك السويسرية هذا الدفاع وحاولت تفنيده قائلة :

« زعيم العصابة ، يعرف الجميع أنه بدأ من الحضيض ، ثم سرق ونهب ، فتكونت لديه ثروة كبيرة ، استطاع أن يهربها فيما بعد • ولذلك فيجوز أن ندخل في مفاوضات لاثبات حصوله على ثروته بطريق غير مشروع ، تمهيدا لاعادة هذه الأموال الى سلطات بلده • ولكن الوضع يختلف تماما مع الزعيم السياسى ، ورئيس الدولة السابق • فمن يدرينا أنه سرق تلك الثروة من أول الشعب ؟ • لماذا لانفترض انه جمعها بطريق شريف ، بجهده ، وعمله ، وعرقه ؟ أو لماذا لايكون قد ورثها عن الآباء والأجداد ؟ » •

وبسرعة وصلت ردود الحكومات المختلفة التى تفند ــ بدورها ــ وجهة نظر رجال البنوك السويسرية •

قالت الحكومات فى ردها :

« •• **المنطق** يؤكد استحالة هذا الذى يقوله رجال البنوك السويسرية • فهل من المعقول أن يجمع زعيم دولة ثروة تقدر بأكثر من ٢٠ مليون جنيه ، فى خلال سنوات حكمه القليلة ؟ أن مرتب ومخصصات رئيس الدولة يكفى فقط لتوفير مستوى لائق من المعيشة له ولافراد أسرته • ولكن هذا المستوى اللائق لايمكن أن يحقق له وفرا يقدر بعشرات الملايين من الجنيهات التى أودعها فى بنوك أوربا المختلفة • »

وتتابعت التساؤلات من جانب الحكومات :

« **فى** معظم الدول النامية ، تولى الحكم فيها رجال من الشعب ، جميعهم من الفقراء المعدمين • ولهذا السبب وحده آمن بهم الشعب ، وأوصلهم الى قمم الزعامة والرياسة • ولم يمتلك أى زعيم منهم ــ رسميا ــ وطوال فترة حكمه ، سوى راتبه الذى خصص له بموافقة مجلس الشعب • ولم نسمع أبدا عن هبوط ثروة من السماء على أى واحد من هؤلاء الزعماء والرؤساء • والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو :

ــ من أين لبعضهم بكل هذه الملايين الموزعة بين بنوك أوربا المختلفة ؟ » •

وماقالته الحكومات يستحق الاحترام ، والاقتناع ٠

فما الذى يدعو أى رئيس دوله الى تهـريب الأمـــوال الى الخارج ؟

لابد أن يكون السبب هو خوفه من أفتضاح أمره يوما ما ٠ أو لاعتقاده بأن أيام حكمه ـ أو حياته ـ قد أوشكت على النهاية وأن عليه أن يؤمن مستقبله ومستقبل أولاده وأحفاده وأحفاد أحفاده من بعده ٠

أن جميع الدول النامية تضطر الى وضع قيود اقتصـادية ، أهمها منح خروج العملات الصعبة الى الخارج ، وذلك لآهمية تلك العملات بالنسبة لمشروعات التنمية ، والتصنيع والنهضة الاجتماعية ٠ فكيف يتفق هذا مع قيــــام رئيس دولة نامية وفقيرة ، نالت استقلالها حديثا ، بتهريب عشرات الملايين من العملات الاجنبية لحسابه السرى فى أوربا ، رغم حاجة بـلاده الى كل مليم وسنتيم منها ؟

كما أن قوانين الدول النــــامية تعاقب المواطن الذى يهرب أمواله الى الخارج ، بمصادرة هذه الاموال وبسجن صــاحبها ، وباعدامه أحيانا فى بعض الدول المتطرفة فى ثوريتها ٠ وبالتالى فلا يجب أن يفلت رئيس دولة أو رئيس وزارة أو مسئول كبير فى الحكومة من هذا العقاب ، لا لشىء الا لانه زعيم ، أو رئيس أو مسئول كبير ٠٠ وتمكن من تهريب الاموال الى الخارج ، رغم أنف القانون الصارم الذى لايفرق بين أمير وخفير ٠

كل هذه المبررات ، لم تقنع رجال البنوك الســـويسرية ٠ فكل مايهمهم هو استمرار الحفاظ على هيبة وســـمعة البنوك التقليدية ٠ وقدموا دفاعا لايؤيده المنطق ولا القانون يقول :

« ان البنوك السويسرية لم تساعد فى تهريب أموال رؤساء وزعماء الدول النامية ٠ ولم تتدخل لاقنــــاع هؤلاء بايداع ثرواتهم لديها ٠ وانما الذى حدث هو أن حضر مندوبون عـن

هؤلاء الى مكاتب البنك وطلبوا فتح حسابات سرية بأسمائهم الحقيقية ، أو بأسماء مستعارة • وليست مهمة البنك أن يبحث عن مصادر تلك الاموال ولا عن ملكية أصحابها • وبالتالى لايجوز مطالبة البنوك باعادتها الى غـــير الذين أودعوها فى حسابهم • »

هذا النزاع القائم بين العديد من حكومات دول العالم المختلفة وبين البنوك السويسرية ، أصاب السلطات السويسرية — فى برن •• العاصمة — بحيرة بالغة • كما مله الشعب السويسرى من كثرة ماسمع عنه •• وطوال السنوات الماضـــية • فرغم الشهرة العالمية التى يتمتع بها الجهاز المصرفى الســويسرى ، فهناك فضائح تاريخية كثيرة ، ارتبطت بتلك الشهرة وتعايشت معها •

فمازال الشعب الســـويسرى يعيش فى الفضـــيحة التى هزته منذ سنوات قليلة ، عندما اختلس زعيم جزائرى سابق — محمد خيضر — ملايين الفرنكات من ميزانية جبهة التحرير الجزائرية وأودعها باسمه فى بنوك جنيف • وتقدمت الحكومة الجزائرية تطالب بهذه الملايين ، التى سلبها محمد خيضر من دم الشـــعب الجزائرى بدون وجه حق • وشـــهدت محاكم سويسرا فصولا من هذا الصراع بين حكومة دولة أجنبية وبين البنوك السويسرية ، استمرت لســنوات طويلة لم تنته حتى الآن •

وقبل هذه الفضيحة ، صدم الرأى العام الســـــويسرى ، بفضيحة ديكتاتور الدومينكان الســــابق « تروجيللو » الذى هرب الى سويسرا أكثر من ١٠٠٠ مليون دولار • اختلسها من خزانة الشعب خلال ثلاثين عاما حكم فيها الدومينيكان بالحديد والنار • واتضح أن ابنه كان يصرف نصف المعونة الامريكية المقررة لبلاده سنويا ، على سهراته وغرامياته مع حســناوات هوليوود ، وبالذات مع الممثلة التى كانت فاتنـــة يوما ما •• زازا جابور !

تماما كما صدم الشعب السويسرى بفضيحة حاكم سيام ـ تايلاند الآن ـ السابق « تارانات » الذى مات وترك فى بنوك سويسرا نحو ٢٠ مليون جنيه استرلينى · واتضح أنه أعطى عشيقاته حق سحب مبالغ كبيرة من تلك الثروة التى سرقها من الشعب الفقير المحروم ·

وديكتاتور الارجنتين الراحل « بيرون » بلغ من حبه وثقته فى زوجته الأولى « ايفا » أنه أعطاها ١٥ مليون دولار ، لتودعها باسمها فى بنوك سويسرا · وعندما ماتت ايفا ، حاول بيرون ـ وهو فى المنفى ـ أن يسحب هذه الملايين · واحتاج هذا الى بعض الوقت ، تمكنت خلاله الصحف أن تعرف السر وتنشره ·

وموريس تشومبى ـ قاتل لومومبا ـ مات هو الآخر بعد أن ترك عشرات الملايين من الدولارات فى بنوك سويسرا · ومازالت حكومة الكونغو تقدم المذكرة تلو المذكرة الى الحكومة السويسرية لتتدخل من جانبها لاقناع البنوك السويسرية باعادة تلك الملايين الى شعب الكونغو ، المالك الحقيقى لها ·

ومازالت المذكرات متبادلة بين حكومة العراق وحكومة برن من جانب ، وورثة ملك العراق الراحل فيصل ، والحكومة السويسرية ، من جانب آخر من أجل الحصول على مئات الملايين التى تركها ملك العراق الشاب قبل قتله · ورثة الملك يطالبون بهذه الثروة الطائلة ، بحجة أنها ثروة ملك ، ابن ملك ، ورثها عن أجداده ، ولم يسلبها من الشعب · وعارضت الحكومة العراقية ـ المتعاقبة ـ فى تسليم هذه الاموال الى ورثة الملك ، بحجة أن هذه أموال الشعب العراقى ، ونهبت من خزائن الدولة التى استباحها فيصل ووالده من قبله ·

وهناك اسرائيل التى تطالب سويسرا ـ منذ فترة ليست بالقصيرة ـ بتسليمها جميع أموال اليهود الذين أودعوها فى البنوك السويسرية ، قبيل وخلال الحرب العالمية الاخيرة ، ثم ماتوا ، ولم يتقدم أحد من ذويهم للمطالبة بها · وتتبجح اسرائيل وتبنى منطقها فى طلب هذه الاموال ، على أساس أن

اسرائيل هى الوطن الأم لجميع اليهود فى الكرة الارضية ٠ فاذا مات أحد اليهود ـ فى أى مكان من العالم ـ وكانت له ثروة ، ولم يترك من يرثها ، فأن هذه الثروة تصبح من حق اسرائيل تلقائيا ، بصفتها الوريثة الشرعية لجميع يهود العالم ٠

ووعدت الحكومة السويسرية ببحث ودراسة طلب اسرائيل٠

وتردد أن سويسرا قد توافق على طلب اسرائيل ، وزاد البعض فأكد أن اسرائيل قد تسلمت ـ فعلا ـ أموال اليهود ٠ ولا أحد يعرف على وجه الدقة حقائق ونتائج هذه المحاولة الاسرائيلية الخبيثة ٠

وهناك عشرات من القصص والفضائح والقضايا التى تتصل كلها بنظام الحساب السرى فى بنوك سويسرا ٠

وهى نفسها الفضائح التى أثارت أعصاب الرأى العام السويسرى ، بما سببته له من اتهامات لبلده لدرجة أن البعض يصف الآن سويسرا بانها « المأوى المأمون للصوص العالم ، وتجار الأجساد ، وقتلة الشعوب » ٠

ليس هذا فقط بل أن البعض يحلو له بين الحين والحين ، توجيه أفظع الاتهامات لحياد سويسرا ٠

فمثلا ٠٠

تكونت لجنة تحقيق منبثقة عن الكونجرس الامريكى ، لبحث ماتردد حول قيام بعض الدول المعادية لامريكا ، بالسيطرة على المصانع الحربية فى أوربا ، عن طريق أموال تلك الدول المودعة فى بنوك سويسرا ٠ وتفاصيل هذه الاشاعة أن السرية التى اشتهرت بها تلك البنوك ، جعلت بعض الدول تودع مبالغ طائلة فى بنوك سويسرا ، وتطلب استثمارها فى الصناعات الضخمة الاوروبية ، وعلى رأسها الصناعات العسكرية ٠٠ وهى مطمئنة الى أن أحدا من الحكومات الغربية لن يعرف أبدا أن رأس المال الاجنبى يستثمر فى صناعة بلاده ٠

وسبق أن اتهمت فرنسا البنوك السويسرية ـ سنة

١٩٥٩ - بانها تمول شراء الاســلحة للجيش الفرنسى السرى الذى قضى عليه الجنرال الراحل شارل ديجول فيما بعد ٠

وفى سنة ١٩٦٤ هاجم جورج براون - وزير الاقتصـــاد وقتذاك فى الحكومة البريطانية - البنوك السويسرية ، واتهمها بالتآمر من أجل خفض سعر الجنيه الاسترلينى ، لانها تبـادر ببيع كل مالديها من رصيد الاسترلينى بأى ثمن ٠٠ فى كل مرة تتخذ فيها الحكومة البريطانية اجراءات اشتراكية ٠

لهذه الأسباب وغيرها ، بدأت السلطات السويسرية ، تدرس كيفية مواجهة الاتهامات التى توجه اليها ، وفتحت صــدرها لسماع أى طلب تتقـدم به حكومة من الحكـومات للمطالبة بسحب أرصدة رعاياها وحكامها السابقين التى أودعوها سرا فى بنوك جنيف وزيوريخ وبرن ولوزان وبازل وغيرها ٠

ووضعت مجموعة من القواعد لتنظيم البت فى تلك الطلبات أهمهـا :

« على كل حكومة تتقدم بطلب سحب أرصدة بعض رعاياها فى البنوك السويسرية ، أن ترفق بطلبها أكبر عدد ممكن من الادلة والوثائق التى تثبت أن المال المطلوب ، هو مال الشعب وأن الشخص الذى أودعه باسمه ، تمكن من أختلاسه ، وسرقته من خزانة الدولة ٠ »

والواضح أن الحكومات لن تعجز عن تقـديم كافة الأدلة والوثائق التى تثبت حق الشعوب فى ملكية ملايين الجنيهات المكدسة فى بنوك سويسرا ٠

فمطلوب من الحكومات أن تقدم « شهادة فقر » ، تثبت بها أن المسئول السابق ولد فى أسرة كادحة مكافحة ٠ ولم يكن يملك سوى مرتبه قبل وأثناء فترة توليه المسئولية الكبيـرة فى بلاده ٠

ويمكن لهذه الحكومات أن تتقدم بما يثبت أن الملايين التى وضعت باسم الحاكم السابق لم تكن ملكا خالصـا له ٠ وانما الحقيقة انها أموال الشعب وقد وضعت عمدا باسمه ، لاسباب

تتعلق بأمن الدولة • وتفسير ذلك أن بعض الدول تحتاج الى مبالغ كبيرة من العملات الاجنبية للصرف ـ سرا وفورا ـ على العمليات التى تتطلب السرية وتحتاج الى السرعة خارج الحدود • ويحلو لبعض رؤساء الدول أن تودع هذه الأموال فى البنوك الأجنبية بأسمائهم •

ويمكنها أن تتقدم ـ أيضا ـ بما يثبت أن الحاكم أو المسئول السابق كان يتولى القيام بعمليات تجارية ، استغل فيها سلطته المطلقة ، وحقق أرباحا طائلة ومحرمة ، هربها الى خارج البلاد •

ويمكنها أن تتقدم ـ أيضا ـ بما يثبت أن مامن صفقة تجارية وقعها الحاكم أو المسئول الكبير السابق ، الا وناله الجانب الاعظم من العمولة • وقد تم تحويل هذه العمولات كلها لحسابه فى بنوك سويسرا •

ويمكنها أن تثبت أن الحاكم السابق كان يوزع أنصاره ومحاسيبة على المراكز الاقتصادية الكبيرة فى البلاد ويتولى هؤلاء جميع عمليات الاستيراد من الخارج ولحساب الدولة • كما يقومون بالتوقيع ـ باسم الحكومة ـ على اتفاقيات القروض التى تحصل عليها الدولة من الدول أو البنوك الاجنبية • وقبل أن تدخل تلك القروض الى خزانة الشعب ، تقتطع منها شريحة ضخمة ، كعمولة وأكراميات ، وتذهب كلها الى الحسابات السرية فى سويسرا •

كما يمكن اثبات أن المسئول السابق كان يوزع الملايين على مشروعات وهمية لا تنجح أبدا .. أو يخصص لها أكثر مما تحتاج .. من العملات الاجنبية ، التي كانت تضل طريقها ـ عادة ـ وتذهب الى الحسابات السرية .

ويمكنها أن تتقدم ـ أخيرا ـ بما يثبت ان المسئول السابق كان يأمر فيطاع . لا رقيب يراقبه ولا محاسب يحاسبه .. وكيف أنه كان يكرر ما سبق أن قاله لويس الرابع عشر يوما من انه الدولة ، والدولة هو .. ويحدث أن تنتهى فترة حكم هذا الرئيس .. اما بحدوث انقلاب يطيح به ، واما باعتزاله

الحكم من تلقاء نفسه ، وأما لانتقاله للحيـاه الآخرة . وفى جميع تلك الحالات تثار مشكلة كبيرة حول الرصيد الموجود باسمه فى بنوك الخارج .

● اذا نجح الحاكم فى الهرب بجلده بعد الانقلاب الـذى أطاح بحكمه ، فانه يمضى بقية عمره هانئا مطمئنا عـلى مستقبله ومستقبل أولاده بفضل الملايين التى هربهـا الى الخارج .

● ونفس الوضع يتكرر اذا كان ابتعاده عن الحكم ، من تلقاء نفسه ، أو عند بلوغه السن القانونية ، أو لفصله من وظيفته .. عندئذ يشد الرحال الى ربـوع أوربا ، ليعيش بجانب ملايينه العديدة .

● أما فى حالة وفاته ، فان ورثته يرفضون ـ عـادة ـ تسليم الملايين التى وضعها الحاكم باسمه فى بنوك خارجية للصرف منها على شئون الدولة السرية ، بحجة أن هـذه الاموال تركت لهم ، ولا شأن للحكومة ولا للشعب بها .

وعبثا تحاول السلطات اقناع الورثة بأن الهدف من وجود تلك الاموال فى الخارج كان الصرف منها على عمليات وطنية تتطلب السرعة والسرية .

ومن السهل اثبات ملكية الشعوب لهذه الاموال .

بدليل ان حكومات كثيرة تقدمت بالفعل تطالب بها .

وكم أتمنى لو أن حكومتنا تقدمت هى الاخرى الى الحكومة السويسرية لتطالب بأموال الشعب المصرى التى هربهـا البعض لحسابه ، بدون وجه حق .

الحكايات التى تروى عن هذه الاموال ، كثيرة ومتعددة .. ولكن أقربها من الواقع والمنطق تلك التى تؤكد أن هذه الاموال وضعت فى البنوك السويسرية ــ منذ فترة طويلة ــ وبأسماء بعض عمالقة مراكز القوى ، للصرف منها على العمليـــات العاجلة التى لا تتحمل التأخير ، أو صفة العلانية .

ثم انتهى عهد مراكز القوى ..

ولكن مشكلة الاموال المودعة بأسماء بعضـــهم ، لم تنته بعد .

قيل أنهم أنكروا وجودها ..

وقيل أنهم أكدوا سحبها واعادتها لخزانة الدولة مـنذ زمن بعيد .

وقيل ــ أيضا ــ أنهم رفضوا أعادتها ، وأصروا عـلى الاحتفاظ بها لهم ولاولادهم وأحفادهم من بعدهم .

وتضاربت الاقوال عند تقدير حجم هذه الاموال .

أقل تقدير اقترب من العشرين مليون جنيه استرلينى !

وأعلى تقدير بلغ نحو ٢٠٠ مليون جنيه استرلينى !

والغريب أن هذه القضية شغلت الصـــحافة العربية ، والصحافة العالمية ، أكثربكثير مما انشغلنا نحن بها فى مصر .

فصحافتنا لم تكتب الا من بعيد لبعيد .

والحكومة التزمت الصمت المطبق حول هذا الموضوع .

فى حين أن مجلة محترمة وعالمية مثل مجلة «بارى ماتش» ــ الفرنســـية ــ نشرت أكثر من مرة عن قضـــية الاموال المصرية فى البنوك السويسرية . كما أن مجلة « لو بوا » ــ

وهي مجلة أسبوعية فرنسية أيضا — نشرت المــزيد من التفاصيل ، عن نفس الموضوع ، فقالت ان الاتفاق قد تـم على أن تعود الاموال الى الخزانة المصرية ، ولكن على دفعات وحددت المجلة قيمة كل دفعة بمليوني جنيــه اســترليني سنويا .

ولم تذكر المجلة المصدر الذى استقت منه هذا الخبر .

وبالتالى فلا أحد يعرف مدى صحته ، أو كذبه . وبالتالى لأحد يعرف مصير هذه الاموال وهل مازالت موجــودة فى البنوك السويسرية ، أم لعلها نقلت الى أماكن أخرى أكثر ضمانا وسرية ؟

وكم نتمنى أن تكون هذه الاموال مازالت قابعة ، وقانعة ببنوك سويسرا .

لان هذا يعطينا الامل فى امكانية استردادها يوما ما .

فقد سمعنا أن الحكومة السويسرية ، تفكر جديا فى تسليم الحكومات المختلفة ، أمـــوال رعاياها المودعة فى البنوك السويسرية ، بشرط أن تتقدم هذه الحكومات بما يثبت أن تلك الاموال لم تكن ملكا حلالا للذين أودعوها لحسابهم .

او بمعنى آخر ، تريد الحكومة السويسرية ، أن تتأكد من أن هذه الاموال هي فى الحقيقة كانت ملكا للشعب . وأن البعض قد نهبها ، أو اختلسها ، أو تحايل على خروجهـــا من البلاد ، وايداعها لحسابه فى بنوك سويسرا .

وما تطلبه الحكومة السويسرية ، هو عين العقل .

فهى تريد أولا أن تحافظ على ســمعة بنوكها .. وعلى الضمانات التى يتمتع بها عملاء تلك البنوك .

ولن يصعب على حكومتنا أن تقدم الف دليل ودليل عــلى أن هذه الاموال التى نطالب بها لم تكن أبدا ملكا للذين أودعوها فى حساباتهم الخاصة .

فجميع هؤلاء ، هم أصلا من البســطاء . لم يولدوا وفى أفواههم معالق من الذهب ، ولا حتى معالق من النحاس ..

ولم يرثوا عن الآباء البسطاء ، والاجداد المعدمين ، سوى الذكرى الطيبة ، والافعال الحسنة .

ولم نسمع عن أحدهم أنهم تاجر فى تجارة مربحة .. وانما هم جميعا كانوا – وظلوا – من طبقة الموظفين .. أى لا يملكون سوى رواتبهم الشهرية .

ونظام الرواتب فى الحكومة المصرية ، لايسمح أبدا لأى موظف – حتى ولو كان يشغل منصب الوزير أو رئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية – أن يدخر من راتبه الشهرى عشرات الملايين من الجنيهات فى فترة زمن قصيرة .

اذن فموقف الحكومة المصرية فى منتهى القوة .

والمطلوب الان أن تتحرك الحكومة ، ويستيقظ مجلس الشعب ، وتتكشف الحقائق – حول هذا الموضوع الحساس – أمام الشعب ، وبسرعة .

فالهمسات أصبحت صراخا يسمع فى المنازل والمكاتب والنوادى والمقاهى .

والرقم الذى بدأ صغيرا أصبح الان مخيفا . بدأ بعشرين مليون جنيه ، فأصبح الان ٢٠٠ مليون جنيه ، ولن تمر فترة الا ويتضاعف الرقم الاخير مرة ومرات .

والاخطر من هذا كله أن الناس اصبحوا ينسبون هذه الاموال الى أسماء وشخصيات ، قد يصعب على المرء ان يصدق تورط أصحابها فى هذا الموضوع الحساس جدا .

ومن حق هؤلاء أن تظهر الحقائق بسرعة جدا ، حتى تتأكد براءتهم ، وطهارتهم ، ووطنيتهم . !

لقد أسعدنا ما أعلنه رئيس الوزراء السـابق ـ الدكتور عبد العزيز حجازى ـ حول احتمال استرداد العمولات التى حصل عليها البعض ، بدون وجه حق ، وأودعوها لحسابهم فى بنوك سويسرا .

ولكن السعادة لن تكتمل الا اذا تم تنفيذ هذا الوعد .

واذا كانت حكومة عبد العزيز حجازى قد ذهبت قبل أن تحقق ما وعدت به ، فيجب ان تتولى الحكومة الجديدة ، حكومة ممدوح سالم ، تنفيذ هذا الحلم الشعبى .

فليس سرا ما يقال عن فضيحة العمولات التى حصل عليها عدد من كبار الموظفين العاملين فى الحكومة وفى القطاع العام واغرقوا بها بنوك اوربا .. خلال السنوات الطويلة الماضية .

ولسنا وحدنا الذين نعانى من هذا السلب والنهب لموارد واموال الشعب .

شعوب عديدة اخرى واجهت ، ما نواجه الان ، ونجحت فى تشخيص نقاط الضعف ، وعملت على تقويتها وتدعيمها .
وقد يفهم أن تنتشر هذه الافات الاجرامية فى المجتمعات الراسمالية .. ففى هذه المجتمعات لا يعتبر جريمة التاجر الذى يتقاضى عمولة من المصنع الذى يتعامل معه .. فالتاجر يشترك ويبيع من ماله الخاص .

ولكن غير المفهوم أن تظهر وتنتشر تلك الآفات الاجرامية فى المجتمعات الشيوعية والاشتراكية .. ففى تلك المجتمعات يكون الشعب هو المالك الوحيد لثروات البلاد .. الموظفون هم الذين يتفاوضون مع الشركات والمصانع الاجنبية على

شراء ما يلزم الشعب من مواد خام ومواد غذائية و . . و . . و . . الخ .

والشركات والمصانع الاجنبية ، التى يتعامل معها موظفو الدول الاشتراكية والشيوعية ، تحدد تلقائيا نسبة معينة من اجمالى الصفقة ، وتقتطعها جانبا « كعمولة » من حق المشترى .

ويأخذها المشترى ، حلالا خالصا لجيبه .. اذا كان يعمل لحسابه الخاص ، وقادما من دولة راسمالية .

ويأخذها المشترى الاخر ، أمانة فى عنقه .. لتوصيلها الى الشعب ، اذا كان ينوب عن هذا الشعب الاشتراكى أو الشيوعى ، فى التوقيع على الصفقة .

ومصر تركت النظام الاقتصادى الرأسمالى منذ سنوات طويلة ، وانتهجت النظام الاشتراكى .

وما أكثر الشعارات التى رفعناها ، والهبنا بها مشاعر الجماهير .. منها على سبيل المثال لا الحصر :

« ارفع رأسك يا اخى ، فقد مضى عهد الاستغلال » .

« الرخاء ، كل الرخاء ، للشعب .. ولا رخاء لاعداء الشعب » .

« ثروات البلاد وخيرها للشعب وحده » .

« الاشتراكية من أجل تحالف قوى الشعب العاملة » .

ومن الواضح أن هذه الشعارات ، ومئات غيرها ، قد لاقت استجابة من البعض .. ولكن البعض الآخر لم يطبقها الا من خلال الفاظ يرددها فى المناسبات العامة ، كما يردد الببغاء الذى ينطق ولا يفهم .

والكشف عن هؤلاء ليس صعبا أبدا .

واعتقد أن أى مسئول يريد ــ حقا ــ أن يطارد قناصى « العمولات » فى بلادنا ، لما عجز عن ذلك ، ولما احتاج الى

عباقرة فى البحث والمطاردة والقنص ــ على طريقة جيمس بوند ــ لوضع يده على لصوص قوت الشعب .

ليس مطلوبا من هذا المسئول الا أن يراجع أسماء أعضاء جميع لجان المشتريات فى كل شركة ، ومصنع ، ومصلحة ، ووزارة ، وهيئة ، يملكها القطاع العام او الحكومة ، منذ أواخر الخمسينات وحتى يومنا هذا .

.. ثم يتبع هذه المراجعة السريعة ، بمراجعة أخرى أقل تسرعا أكثر تدقيقا ، لتحديد معالم الوسط الاجتماعى والاقتصادى الذى ينتمى اليه ــ الآن ــ أعضاء لجان المشتريات الذين ذهبوا ، والذين استمروا يعملون .

ومن المؤكد ان المراجعة الأخيرة ، ستكشف عن العجب العجاب .

ستكشف عن الموظف ــ درجة خامسة أو سادسة ــ الذى ترك شقته المتواضعة فى لاظوغلى ، ليقطن فيلا فى أعلى العمارة التى امتلكها ــ فجأة ــ السيدة زكية زوجته ، الفقيرة الثورية ، الاشتراكية .

سنتعرف على المسئول الكبير الذى وقع باسم مصر ــ وبأموال شعبها ــ على عقود بملايين الجنيهات لشراء طائرات رديئة وغير صالحة ، وأغذية تالفة ، وسيارات نقل مستهلكة ، ومصانع لاتعمل ، مقابل نسبة ضخمة من الصفقة قبضها « كعمولة شخصية » للتسهيل والتوقيع .

سنسلط الأضواء على الكبير الخطير الذى كان ينطق بكلمة واحدة ، تلغى على أثرها صفقة مربحة ومجزية للشعب تم التعاقد عليها مع دولة فى أقصى الغرب ، وتوقع صفقة أخرى بديلة ، وخاسرة ، ومجحفة ، مع دولة فى أقصى الشرق .

كانت هذه مجرد عينات فقط ، لآلاف الحالات التى نعرفها ، ونصطدم بها كل يوم ، ولم نكن نملك أمامها سوى الحسرة ، على ما آلت اليه الشعارات البراقة ، والضمائر المطاطة .

ان الشعب المصرى ليس بالسذاجة التى يتصورها البعض .

انه يعرف ان كل شركة فى العالم تدفع نسبة مالية مغرية عن كل صفقة يتفق عليها . وكلما كان الانتاج متواضعا ، أو حتى رديئا ، ازدادت نسبة العمولة .

ونحن نعيش على الاستيراد . فسياسة التصنيع « من الابرة حتى الصاروخ » لم تحقق لنا الاكتفاء الذاتى . كما أن انتاجنا الصناعى لايزال « يترك للتمنى » على حد التعبير الفرنسى الساخر . وبالتالى فهناك آلاف الصفقات ، وآلاف العقود ، كانت حصيلتها جميعا .. ملايين الجنيهات — بأندر العملات الصعبة — التى صرفت كعمولات .

والمفروض أن تكون هذه العمولات قد دخلت خزانة الشعب . فالشعب هو الذى دفع ثمن المشتريات .

ولكن الواضح أن الجانب الأكبر والأعظم من تلك العمولات قد ضل طريقه .

وبدلا من يطرق باب البنك الأهلى المصرى ، اتجه الى باب « يونيون دى بنك سويس » فى جنيف ولوزان وزيوريخ .
وكان الله فى عون الشعب طالما أن أحدا لم يعنه على ضرب اللصوص ، وقناصى العمولات .

● لصوص القصور المصادرة ! ●

يجب ان يسترد الشعب أمواله التى سرقت فى غفلة منه .

لقد ثبت أن جانبا كبيرا من أموال وتحف القصور الملكية المصادرة ، قد وزع على زيد وعبيد ممن كانت أيديهم — فى

وقت من الاوقات ـ قادرة على الامتـداد ، وعلى الهبش ، وعلى سرعة الاخفاء .

منازل كثيرة يسكنها ، حاليا ، هؤلاء الذين ذاقوا الفقر والحرمان فى طفولتهم وشبابهم .

ولم يرثوا الملايين عن الأباء والأجداد .

فالآباء ، كانوا لا يملكون سوى مرتباتهم الضئيلة .

والأجداد كانوا جوعى البطون ، وحفاة الأقدام .

ورغم ذلك ، فان المنازل والفيللات التى يسكنها هؤلاء الآن تزدحم بالتحف النادرة ، والسـجاجيد الفاخـرة ، والنجف الثمين ، والتماثيل الرائعة التى كانت موجودة يوما ما داخل القصور الملكية .

والأمثلة كثيرة :

والأدلة واضحة ، ولا تحتاج الى بوليس سرى ، ليتعقب السرقات . يكفى جدا ـ اذا كنا جادين حقا فى استردادأموال ومكاسب الشعب ـ أن تشكل لجنة من مجلس الشـعب ، وتقوم بزيارات خاطفة لمنازل جميع الذين أتيحت لهم الفرصة ـ فى شهور وسنوات الثورة الأولى ـ للاقتراب من القصـور المصادرة .

ومن المؤكد ان هذه اللجنة سترى العجب العجاب .

سترى أعضاء هيئة تصفية وتقييم القصور المصادرة ،وقد تحولوا جميعا من أصحاب الملاليم الى أصحاب الملايين .

منهم من كان موظفا صـغيرا . دون الثلاثين من عمره . لا يملك سوى مرتبه عندما أختير للعمل فى هذه الهيئة ،والآن

امتلأ جيبه بالمال ، وازدحمت غرف شقته بالتحف ، وتزينت زوجته بالفراء ، وتحلت بالماس حول رقبتها وأصابعها .

ومنهم الضابط الصغير ، الذى أصبح وزيرا ، ثم غضـب

عليه الحاكم بعد أن أصبح نصابا ، على المستوى المحلى والعربى ، وصدر قرار بمنعه من السفر .. حتى لا يسىء الى البلد والى الثورة وقادتها أكثر مما فعل . هذا الرجل يقيم الآن فى شقة رائعة تطل على حدائق نادى الجزيرة بالزمالك . الذين دخلوا هذه الشقة تصوروا انهم داخل أحد قصور روكفلر أو أوناسيس أو شاه ايران . فمجموعة التحف واللوحات الموجودة داخل هذه الشقة لايمكن أن توجد الا لدى هؤلاء الكبار .

ومنهم الموظف الذى خدم الملك وخدم أول رئيس جمهورية فى مصر . ولم نسمع انه ترك وظيفته فى القصر الملكى ، والقصر الجمهورى ، ليفتح له مكتبا تجاريا ، حتى يمكننا أن نبرر الثراء الذى يتمرغ فيه اليوم . فقد أحيل هذا الرجل على المعاش ، منذ فترة قصيرة . ولكنه لن يعتمد على هذا المعاش فى كثير او قليل . فالمال الذى جمعه ، يغنيه ويغنى بناته وأزواج بناته وأحفاده أيضا .

شقته التى تطل على النيل ، تمتلىء بكل ما ثقل وزنه وثقلت قيمته ، من القصور الملكية المصادرة .

العمارتان اللتان تزينان أحد ميادين مدينة المهندسين بالدقى ، حرص المالك ـــ وهو نفسه الموظف اياه ـــ على أن يجعل منهما دليلا واضحا وصارخا على لصوصيته . فقد زودهما بسلمين داخليين ، استعارهما من القصور الملكية التى تمرغ فى خيرها قبل وبعد مصادرتها .

.. كانت هذه عينة سريعة ، ذكرتها لمجرد التعريف ببعض اللصوص الذين سرقوا الشعب ، ولم تمتد اليهم قبضة القانون حتى الان .

وهناك قصة أخرى ، أكثر اثارة وليس لى شرف التوصل اليها او الكشف عنها لاول مرة ، كل ما فعلته هو اننى قرأتها

فى بعض الصحف العربية والعالمية ، ورأيت أن أعيد نشرها هنا .

تفاصيل القصة أن أحد الشبان المصريين ، سافر الى باريس خلسة ، ودخل محلا لبيع المجوهرات فى قلب العاصمة الفرنسية . وطلب مقابلة مدير المحل الشهير .. وعندما اختلى به في غرفة مكتبه الملحقة بالمحل أخرج الشاب المصرى من جيبه خاتما ماسيا عرضه للبيع .

ونظرة واحدة من صاحب المحل بعينه الفاحصة الخبيرة ، كانت كفيلة لاصابته بالذهول . ولكن الجواهرجى كان من الذكاء ، ومن سرعة البديهة بحيث أنه تمالك انفعالاته بسرعة ، واستأذن من الشاب للحظات ، واختفى داخل غرفة جانبية ، اتصل بها تليفونيا بالبوليس الذى جاء على الفور ، والقى القبض على الشاب المصرى .

لسوء حظ هذا الشاب ان الخاتم الذى جاء ليبيعه فى باريس كان معروفا وفريدا من نوعه فى العالم .. وجميع تجار المجوهرات يعرفون ان هذا « الفص » النادر هو من أشهر مجوهرات تاج امبراطور ايران .

وتمت اتصالات بين البوليس وسفارة ايران من جهة ، وبين البوليس وسفارة مصر ، من جهة أخرى .

ونتيجة الاتصالات الاولى أوضحت أن الخاتم هو نفسه الذى أهداه امبراطور ايران لزوجته الاولى الاميرة المصرية فوزية ، شقيقة الملك السابق فاروق .

ونتيجة الاتصالات الثانية — مع السفارة المصرية — انتهت بحفظ التحقيق مع الشاب المصرى والافراج عنه هو والخاتم الثمين .

ونتيجة الاتصالات الجانبية ، التى تمت فى القاهرة بعد ذلك ، أشارت الى أن هذا الخاتم عادت به الامبراطورة

السابقة فوزية الى القاهرة ، بعد طلاقها من الشاه ، وانها ظلت تحتفظ به حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ومصادرة الاموال والقصور الملكية .. وبيع محتوياتها فى مزاد علنى .

وكان الخاتم الثمين ـ الذى يقدر ثمنه بنحو مليون جنيه استرلينى ـ من بين تلك المجوهرات الثمينة ، والمصادرة لحساب الشعب .

ولكنه ـ اى الخاتم ـ اختفى بقدرة غريبة ـ فى لمح البصر !

ولم يأت ذكره ابدا فى اى كشف من كشوف المجوهرات المصادرة الرسمية . وبالتالى لم يعرض فى المزادات العلنية !

لقد امتدت اليد الطويلة ، واحتفظت بالخاتم لنفسها ، ولاولادها من بعدها ، حتى ظهر اخيرا فى قبضة الشاب المصرى الذى حاول بيعه فى باريس .

وكانت فضيحة بجلاجل . تناقلتها الصحف العالمية ، وذكرتها بعض الصحف العربية فى بيروت وغير بيروت ، أما الصحف المصرية فقد علمت بها ـ عن طريق وكالات الانباء ـ ولكنها ـ بالطبع ـ لم تنشرها !

وليس هذا هو المهم الان .

وانما الاهم هو ان الاوان آن ليقوم أحد أعضاء مجلس الشعب ويرفع صوته مجلجلا تحت قبة البرلمان ، مطالبا بفتح ملفات القصور الملكية المصادرة .

وما أعظم المفاجآت التى تنتظرنا داخل تلك الملفات !

سنوات الامتيازات

- المـال لمن لايسـتحق
- كفاية دلع أيها السـادة
- البعـض أكثر حظـا

● المال لمن لايستحق ! ●

لو كنت أحد نواب مجلس الشعب ، لطالبت باعادة النظر في المخصصات التى يحصل عليها البعض بدون وجه حق .

والتعرف على هؤلاء ليس صعبا . فالاسماء معروفة ، والأدلة واضحة ، والأرقام تتحدث عن نفسها .

ففى مجتمع اشتراكى ، يهدف الى اذابة الفوارق بين الطبقات ، ويعامل فيه جميع المواطنين معاملة واحدة ، لايعقل أن يستمر الأخذ بنظام مخصصات يفوق ــ فى حالات كثيرة ــ أحلام أشد الناس حرصا وتمسكا بالنظام الاحتكارى الرأسمالى .

والامثلة كثيرة ، ولكن يمكن هنا أن نكتفى بذكر أكثرها صراخا ، وشذوذا :

هناك من لايعمل ، ورغم ذلك فهو يتمتع بنفس المخصصات التى منحت له عندما كان فى وظيفته .

وهناك من أحيل على المعاش ، بعد أن تعدى السن القانونية ولكن ــ لظروف استثنائية جدا ــ تقرر الاستمرار فى صرف مرتبه بدلاته مخصصاته كاملة ، باسناد وظيفة شرفية ووهمية ، تغطى هذا الشذوذ أمام نص القانون .

وهناك الذى ترك وظيفته ، ورغم ذلك فان الدولة مازالت تتحمل أعباء تنقلاته . فخصصت له سيارة أو سيارتين ، لاستعماله هو وأفراد أسرته الكريمة فى الذهاب الى النادى ، وفى التنقل بين المحلات ، وفى نقل الاولاد من المدارس والجامعات .

والسؤال الآن هو :

ـ ما الدعي لاستمرار صرف هـذه المخصصـات من خزانة الدولة ، التى يمولها المواطن العادى من عرقه وقوته وحرمانه؟

يحدث هذا في مصر ، في نفس الوقت الذى تشـهد فيه بريطانيا حملة ضارية يقودها النائب العمالى ويلى هاملتون ، ويطالب بمنع التصديق على منح الأسرة المالكة البريطانية علاوة جديدة ، تساعدها على مواجهة أعباء الحياة وارتفاع الاسعار •

ومن رأى ويلى هاملتون ان الاسرة المالكة ليست فى حاجة الى المزيد من المال • فأفرادها يملـكون القصـور ، والعقارات ، وآلاف الافدنة ، والأسهم ، وأرصدة الذهب فى بنوك بريطانيا وغـيرها •

ورغم حملة النائب البريطانى الغيور على أموال الشـعب ، فقد نجحت الاسرة المالكة فى الحصول على تصـديق مجلس العموم على منحها العلاوة المطلوبة ، بفضل أنصـار الاقطاع والملكية داخل هذا المجلس •

ولم ييأس ويلى هاملتون • لقد فشل داخل مجلس العموم، ولكنه قرر أن يخاطب الرأى العام رأسا • فأصدر كتابا بعنوان « الملكة وأنا » طالب فيه ليس فقط بالغاء العلاوة ، وانما أيضا بضغط المخصصات الملكية الى أدنى مستوى ممكن • كما أكد ويلى هاملتون أن نهاية الملكية فى بريطانيا قـد حانت • وأن اعلان الجمهورية لن يتأخر عن الخمسين سنة القادمة •

ولحسن الحـظ أن مصر سـبقت بريطانيا ، فى انهاء النظام الملكى واعلان الجمهورية فى ١٩٥٢ •

ولكن من سوء حظ مصر ، أن بريطانيا سبقتها فى المطالبة بوضع نهاية لهذه المخصصات الخيالية التى يتقاضاها من هم لايستحقونها !

● كفاية ٠٠ دلــع أيها السادة ! ●

ـ **لسنا** وحدنا الذين نطالب بوضع نهاية لهذه الامتيازات والمخصصات المالية الضخمة التى يتمتع بها بعض كبار الموظفين فى الدولة ٠

الشعب الايطالى يشاركنا نفس الهدف ، ويرفع صوته عاليا ـ هذه الايام ـ مطالبا بالغاء تلك الامتيازات فورا ٠

فقد اكتشف المواطن الايطالى ـ فجأة ـ أن خـزانة الدولة مسئولة عن غسل شعر عضـوات البرلمان بالشامبو الفاخر ، وتصفيفه لدى أشهر « كوافير » فى روما !

واتضح أن جزءا من الضرائب التى يتحملها الشعب ، يصرف لعضوات البرلمان المحترمات ـ وعددهن ٢٤ نائبة ـ من أجل تجميل شعرهن وطبقا لأحدث التسريحات المبتكرة ٠ واذا عرفنا أن كل نائبة تتردد على « الكوافير » بمعدل ١٠ مرات شهريا ، لامكننا أن نتفهم تخصيص مبلغ ١٠ ملايين و٨٠٠ ألف لـيرة سنويا من أجل المظهر الخارجى لعضوات البرلمان الانيقات ٠

٠٠ وكانت الفضيحة ، التى تتردد الآن على كل لسـان فى ايطاليــا ٠

فالازمة المالية كادت أن تخنق كل بيت ٠

والبطالة منتشرة ، ولم يعد فى الامكان حلهــا ، أو حتى حصرها ٠

والازمة السياسية مزمنة ٠ والحـكومات المتعاقبـة فشلت الواحدة بعد الاخرى فى تهدئة حدتها ٠

•• فى هذ الوقت المتأزم ، اقتصاديا وسياسيا ، يصطدم المواطن الايطالى بالامتيازات غير المعقولة التى يتمتـع بها كبار الموظفين ، ومن عينة تصفيف شعر النائبات المحترمات •

•• ومن حق هذا المواطن أن يثـور •• وأن يتمـرد • وأن يرفـض •

•• وهذا مافعله المواطن الايطالى أخيرا •

فاذا كان من المستحيل أن يرتفع الموظف الفقير الى مرتبـة الموظف الغنى ، فلا أقل من الغاء الامتيازات التى يحصل عليها الاخير ، وحتى لايزداد الفقير فقرا ، والغنى غنى • ونحن فى مصر نصطدم بهذا النوع من الاستفزازات التى يطلـق عليها البعض اسم : الامتيازات •

محظوظون ـ بالآلاف ـ اقتصر توزيع تلك الامتيازات عليهم وحـدهم •

والمدهش ان جميعهم ليسوا فى حاجة اليها •• فلديهم مايكفيهم ، من المرتب الضخم الذى يتقاضاه كل واحـد منهم ، الى الثروة ـ الصغيرة أو الكبيرة ـ التى جمعوها من هنا وهناك •

أقلام كثيرة ، كتبت مـرارا وتكرارا تطالب بالغاء هـــذه الامتيازات ، والبدلات ، التى لاتتناسب أبدا مع موارد دولة فقيرة ، تبنى بلادها بعد خراب ، وتسلح جيشها بعد سلسلة من المعارك والحروب •

ولم يأت هذا الكلام بفائدة حتى الآن •

فالواضح ان الذين يملكون الغاء هذه الامتيازات ، والبدلات ، هم أكثرهم فوزا بها • حتى يخيل الينا أن هنـــاك نوعا من التحدى ، بين أصحاب الامتيازات وباقى فئات الشعب المحرومة •

والا فما معنى الظواهر التالية :

نحن دولة نامية •• دولة فقيرة • أمامنا معارك تحتاج الى كل مليم • ووراءنا تركة ثقيلة جدا من الديون ، والخراب ، والركود •

ونحن أيضا نصنع سيارات للركوب مثل سيارات رمسيس ، وسيارات فيات التى أطلقنا عليها اسم (نصر ١٢٨) ، (نصر ١٢٥) . وهى سيارات عملية وجميلة وتصلح جدا ليركبها كبار الموظفين فى بلادنا .. بالمجان . ولكن كبار الموظفين ــ

من الوزراء ووكلاء الوزارة ومديرى العموم ورؤساء مجالس ادارات شركات القطاع العام ــ لايفضلون الصناعة المحليه ويفضلون الصناعة الاجنبية . والا فما معنى أن يركب هذا الموظف أو ذاك سيارة مرسيدس (٢٨٠/اس . ايه) موديل ٧٤ و ١٩٧٥ ؟

ان ثمن هذه السيارة فى ألمانيا لايقل عن ٣٠ ألف مارك . أى أكثر من ٧ آلاف جنيه مصرى . وضعف هذا المبلغ تحتاجه لدفع الرسوم الجمركية للسماح لها بالخروج من ميناء الاسكندرية . أى أن هذا الموظف الكبير اشترت له الدولة ــ النامية الفقيرة المثقلة بالديون ــ سيارة يزيد ثمنها على ١٦ أو ١٧ ألف جنيه (!) .

والأغرب من هذا أن البعض لايميل الى الصناعة الالمانية . ربما لكراهيته التقليدية والقديمة لهتلر وللنازية ولمعسكرات الاعتقال . وربما لان الصناعة الالمانية تهتم بالمتانة على حساب الفخفخة . وهو من هواة هذه الفخفخة التى لايراها الا فى السيارات الامريكية ، الناعمة ، الصامتة .

وحتى لانغضب هواة الفخفخة ، وبالتالى قد ينعكس هذا الغضب على أعمالهم ، فقد اشترت لهم الدولة ــ من خزانتها المرهقة والخاوية ــ سيارات أمريكية من طراز شيفروليه أمبالا ٨ سلندرات ، موديل ١٩٧٤ او ١٩٧٥ .

وأرجوك لاتسألنى عن تكاليف السيارة الواحدة حتى خروجها من باب الجمرك . فالرقم لن يسبب سوى الغضب ، والعجب .

ولكن الذى يجب أن نسأل عنه جميعا هو السبب فى رفض كبار الموظفين المصريين ركوب السيارات المصرية الصنع ؟

اذا كانو هم الذين يدفعون من جيوبهم ، ومن الثروات التى ورثوها عن الآباء وعن الاجداد ، فمن حقهم رفض السيارة

الشعبية ، وشراء الكاديلاك أو الرولزرويس أو المزراتى أو الفيرارى !!

ولكن عندما تتحمل الدولة ـ أى الشعب ـ ثمن هذه السيارات ، فان الوضع يختلف .

والصورة تنقلب .

وحتى اذا كانت خزانة الدولة متخمة بالاموال وبالذهب ، ولا تعرف كيف تصرف هذه الكنوز ، فان الوطنية تفرض علينا أن نشجع الصناعة المحلية ، قبل الصناعة الاجنبية .

الموظفون فى بلاد العالم الاخرى يفعلون هذا .

ولن أتعرض هنا للدول الشيوعية أو الاشتراكية ، فأنظمة هذه الدول لا تسمح أصلا باستيراد أى شىء يصنع مثله فى بلادها .

ولكنى اشير الى الدول الرأسمالية الغنية .

الوزير فى فرنسا لا يركب الرولزرويس أو الكاديلاك ، وانما يركب الستروين الفرنسية الصنع .

والوزير الايطالى يركب الفيات .. أو أى سيارة ايطالية الصنع .

والسويدى يركب فولفو أو ساب .

والانجليزى يركب الرولزرويس أو الاوستن أو المينى .

والالمانى يركب المرسيدس ، أو الفولكس فاجن .

وهكذا .

المسئولون فى العالم الغربى ، يفخرون بصناعات بلادهم . مهما كانت هذه الصناعات تقل فى الجودة ، أو فى الفخفخة عن صناعات أخرى أجنبية .

هذا الاعتزاز بالوطنية ، هو الذى ينقص بعضنا للاسف الشديد .

وسنحتاج الى فترة انتقال ، قبل أن نعيد هذا الاعتزاز الى قلوب الناس .. فقد عشنا فترة طويلة ماضية ، كان المظهر اهم من الجوهر .

كان البذخ ، فى الكماليات ، هو طابعنا وأبرز ما يميزنا .

اذا ركبنا سيارة ، فيجب أن تكون أفخر واغلى سيارة فى الدنيا .

اذا بنينا منزلا ، فيجب أن يكون فاخرا ، وأثاثه ثمينا ، وتحفة لا حدود لقيمتها .

وكانت أيدينا مخرومة .

ويكفى أن أشير هنا الى أحد كبار المسئولين الذى عين موظفا كبيرا فى وظيفة غير معروفة . فهو المسئول عن تلبية طلبات مراكز القوى وأفراد عائلاتهم فى بلاد الله المختلفة .

فهو يطير الى سويسرا ليشترى الذ انواع الجبن !

ويمر على باريس ليشترى اجمل مجموعة من كرافتات « سولكا » !

ويتوقف فى المانيا ليشرف على شحن بعض الموديلات الجديدة والخاصة ، من انتاج مرسيدس !

وواقعة واحدة ، اذكرها لكى لا يظن البعض اننى أوزع الاتهامات بلا دليل تحت يدى .. ففى أوائل الستينات ، تم زفاف شقيق أحد مراكز القوى ، من ابنة أحد المسئولين . وفى يوم الصباحية ، طرق الموظف اياه باب شقة العروسين ، وسلم على العريس مهنئا باليد اليمنى ، وأعطاه باليد اليسرى ، مجموعة مفاتيح فى سلسلة ذهبية .

ثم انسحب الموظف اياه . فقد انتهت مهمته .

أما العريس ، فبعد أن حلق ذقنه ، وارتدى ملابسه ، نزل

الى الشارع فوجد فى انتظاره ، سيارة مرسيدس آخر موديل ــ وقتذاك ــ سوداء اللون ومن طراز « ۳۰۰ / أ س . ايه »

تكلفت وقتها أكثر من ٩ آلاف جنيه .. فالرسوم الجمركية ــ فى هــذا الوقت ــ كانت أكثر من ٢٠٠٪ وتحملت الدولة ــ بخزانتها المرهقة الخاوية ــ تكاليف هدية الزواج !

وللقصة بقية أشد غرابة .

فبعد فترة قصيرة ، تزوجت الشـقيقة الثانية لابنة نفس المسئول من مراكز القوى السابقة .

ومرة أخرى جاء الموظف الكبير ، وقدم التهنئة ، وسـلم المفاتيح ، لعريس ابنة المسئول الكبير .. وكانت الهدية من نفس نوع الهدية التى قدمت لشقيقتها الكبرى .. مرسيدس سوداء موديل « ٣٠٠/أس ايه » !

وهكذا كانت خزانة الشعب ، تتحمل الكثير مما يطـاق ومما لا يطاق .

وقد نحتاج الى جهد ، والى اصرار ، حتى نتخلص نهائيا من هذا الاسراف الغير مقبول ، والغير محتمل .

● البعض أكثر حظا ●

انتهت ــ أخيرا ــ آخر مظاهر الرياسة التى ظل يتمتـع بها الرئيس الامريكى السـابق ريتشارد نيكسون . فرغم استقالة نيكسون ، منذ شهور ، الا أن الحكومة الامريكية ظلت تحيطه ببعض المزايا الخاصة ، والمؤقتة .. طبقا للوائح والقوانين .

وقد انتهت الان هذه الفترة ، وأوقفت الحكومة الامريكية

صرف مرتبات طاقم السكرتارية الخاصة .. واقتصر نيكسون على سكرتيرة واحدة سيصرف مرتبها من ماله الخاص .

كما سحبت ادارة الامن رجالها الذين وكلت اليهم مهمة حراسة نيكسون واسرته فى هذه الفترة الانتقالية .

وأصبح نيكسون الان مجرد رئيس سابق للولايات المتحدة الامريكية .

مجرد موظف انتهت خدمته .. ويستحق المعاش القانونى لهذا المنصب ، بلا استثناءات او بعض الامتيازات .

اصبح نيكسون مجرد مواطن بين الملايين من الموظفين السابقين .

لم تعد هناك حراسة مسلحة ، تقف ليل نهار أمام منزله . والطريق مفتوح — الان — امام المرور والجمهور .

ولم يحزن ريتشارد نيكسون .. ولم يتحسر على مظاهر الابهة التى كان يتمتع بها طوال السنوات الماضية ، ثم حرم منها فجأة .

كما انه لم يغضب لان الصحف اصبحت تتجاهله . فلا أحد يتذكر تاريخ ميلاده ليطالب بالاحتفال به على المستوى القومى . ولا أحد ينادى بدراسة وتعميق «الفكر النيكسونى» فى عقول وقلوب الاجيال الحالية والقادمة .. ولم يجتمع الكونجرس ليوافق على منح نيكسون كافة المخصصات التى كان يتمتع بها خلال فترة حكمه .

لقد اهملت الصحف والاذاعات الامريكية ، كل ما قام به ريتشارد نيكسون من أعمال وأمجاد .

فلا أحد يتحدث الان عن السلام الذى حققه نيكسون فى الشرق الاقصى .

ولا أحد يتذكر التقارب التاريخى الذى تم بين بكين وواشنطن ، فى أعقاب الزيارة التى قام بها نيكسون للصين الشعبية .

ولا أحد يعدد المبادرات السلمية التى أوقف بها نيكسون الحرب فى الشرق الاوسط ، فى نهاية سنة ١٩٧٣ .

جميع هذه الاعمال ــ وغيرها ــ لا تستحق اهتمام الصحف الامريكية .

فما فعله نيكسون هو ما كان ينتظر أن يقوم به .. فهذا هو عمله .

ولكن الذى اهتمت به صحافة أمريكا ، والذى أثار غضب وسخط الرأى العام الامريكى ، هو الخطأ الذى ارتكبه نيكسون ، ويطلق عليه اسم « فضيحة ووترجيت » .

لقد أمر نيكسون بالتجسس على بعض السياسيين ــ من أعضاء الحزب الديمقراطى المنافس ــ أثناء معركة انتخابات الرياسة ، واعتبر هذا الخطأ جريمة لا تغتفر .. فى حق الشعب الامريكى ، وفى حق الديمقراطية الامريكية .

وأجبر الرئيس ريتشارد نيكسون ، على تقديم استقالته . حدث هذا فى الوقت الذى تنظر فيه شعوب أخرى كثيرة الى فضيحة « ووترجيت » كظاهرة طبيعية ، ومألوفة .

شعوب أخرى كثيرة ــ وبالذات فى الشرق ــ فرضت عليها رقابة بوليسية خانقة ، وبأمر من حكامها العمالقة .

وسمعنا عن الذين كانوا يأمرون أجهزتهم بالتجسس والتصنت على آلاف المواطنين ، وتسجيل مكالماتهم التليفونية الخاصة جدا ، وتصوير اتصالاتهم الحساسة جدا ، ثم تتجمع هذه الشرائط والافلام ، داخل صالة العرض الخاصة بهم للاستمتاع بمشاهدتها والاستماع اليها فى أوقات الفراغ .

والذى سمعناه عن هؤلاء ، ليس سرا .. فالجميع علموا به ، ولكنهم لم يملكوا الوسيلة ــ ولا القوة ــ التى يمكنهم بها وقف هذا التجسس ، وهذه الجريمة التى ترتكب ــ وارتكبت ــ آلاف المرات فى اليوم الواحد .

ريتشارد نيكسون هو وحده الذى سقط . وحده الـــذى ارتكب الجريمة . ووحده الذى دفع ثمنها . وأجبر على تقديم استقالته ، ليمضى البقية الباقية من عمره فى ذل ، ومرض وخجل .

أما غيره ، من الذين تعودوا على هذه الجرائم الروتينية ، فقد استمروا يملكون السلطة فى بلادهم ، ويحتلون قلـــوب وعقول السذج من رعاياهم .

أعيدوا نظام الأحزاب

- الاغلبية الصامتة
- لا .. للحزب الواحد
- ارهاب .. استبداد .. وديكتاتورية
- حرب اليمن .. أو الدرس الذى لا ينسى
- الحزب المنتظر
- مظاهرات هنا وهناك

● الاغلبية الصامتة ●

لدينا فى مصر اغلبية تجيد الصمت ، وتنبذ الصراخ .

وهى اغلبية موجودة فى القرية ، ومنتشرة فى المدينة . بعض أفرادها يتضورون جوعا ، والبعض الآخر يلتوى من التخمة . بين صفوفها من يحمل الدكتوراه ، ومن لا يمكنه أن يفك الخط .

أغلبية مسالمة . لا تتصارع على الفوز بمقاعد السلطة التشريعية . ولا تتكالب على مراكز التنظيم السياسى اليتيم . ولا تتقاتل من أجل نيل بركة السلطة التنفيذية .

أغلبية لا تنافق الحاكم ، ليرفعها فوق اكتاف الجميع .

أغلبية لا تتمتع بالثقة ، ليسمح لها بنهب القصور الملكية المصادرة ، وبالسطو على أموال الشعب المهربة فى بنوك اوروبا ، وبسرقة أموال القطاع العام ، وبتسخير التنظيم السياسى لاقتناء العزب وبناء العمارات وامتلاك أفخر السيارات .

أغلبية مؤمنة ، تتمسك بالاديان والانبياء . رفضت الالحاد ، وابتعدت عن مخالب الشيوعية التى هاجمتها ملفوفة فى ورق سلوفان !

اغلبية راضية بما كتب لها . وخافت أن تتذمر أو تعترض حتى لا تشرد ، وتعذب ، وتتهم بالخيانة والعمالة !

أغلبية مشغولة بتدبير طعامها وتعليم اولادها . ولا وقت لديها لمتابعة خط سير الخناجر التى يتقاذفها اليمين واليسار !

النصاب شهما ، والافاق بطلا ، والمغامر عملاقا ، والهزيمة نكسة ، والانفصال وحدة ، والفقر غنى ، والتسول كرامة !

اغلبية تصدق كل ما يقال لها . طيبة قلبها جعلتها تظن

اغلبية سريعة النسيان . ثروتها استولوا عليها وصرفوها خارج الحدود . اشتروا بها صحفا عربية فى بيروت ، تهلل للطغيان فى مصر ، وتنادى بالارهاب ، وبالالحاد . وصرفوا منها على المؤمرات التى فشلت ، وعلى الحرب التى انتكست وعلى الديكتاتوريات التى تهاوت . ورغم هذه السرقات كلها ، ظلت الاغلبية الصامتة الصابرة تعفو عن اللصوص ، وتترحم على السفاحين .

اغلبية رحيمة لاتحب الانتقام . الذى طعنها تبكى عليه خوفا من العقاب ! والذى ضللها وافقرها واذلها وغاب عنها ، غفرت له واشتاقت اليه !

أغلبية متواضعة ، رضيت بأقل من القليل . رغم أن الشعوب الاخرى من حولها لاترضى الا بالكثير ! أغلبية فى مصر تأكل الفتات ، واغلبية خارج مصر تتسلى بالفستق والتفاح !

اغلبية من حقها أن تتمتع بثروتها القومية ، ولكنها تنازلت — كرها — عن هذا الحق سنوات وسنوات ، خوفا من القهر الذى يتربص بها ، وفزعا من الارهاب الذى يحاصرها ، ويأسا من الاصلاح الذى وعدوها به آلاف المرات !

اغلبية تأتى دائما فى المؤخرة . مطالبها الحيوية يمكن أن تؤجل . مشاكلها الملحة يمكن أن تتفاقم . أما الاقلية الحاكمة فانها تنال كل ماتطلبه ، وتحقق كل ماتحلم به . القوانين تتغير حتى تتفق مع مطامع الاقلية . والتشريعات تصدر لتبدد أحلام الاغلبية !

هذه هى الاغلبية الصامتة .

وليست ابدا هؤلاء الذين يجيدون الحوار الاجوف ، ويرفعون نبرات أصواتهم الصارخة ، ويحسنون الخلط بين

الايمان والالحاد ، وبين الارهاب وحرية الرأى !

وليست أبدا أولئك الذين يترحمــون على الرجعيـــة ، ويتمسحون فى الرأسمالية الاستغلالية !

ان هؤلاء وأولئك مجرد أقلية ضائعة . لا خوف منها . كل مواهبها تركزت داخل حناجرها ، لتعلو صرخاتها على همسات الاغلبية الصامتة الصابرة !

● لا .. للحزب الواحد ●

ان اســـتاذنا التابعى غاضب .. اننى كتبت أقــول — بمناسبة أو بغير مناسبة — أن نظام الحزب الواحد فشل فى البلاد التى أخذت به .. فشل فى ايطاليا .. وفشــل فى المانيا .. وفشل فى تركيا .

والاستاذ التابعى يعتقد ان نظام الحزب الواحد هو الدواء الشافى لكل العلل وكل الامراض . وقد كنا نسمع الى وقت قريب عن اختراع دواء عجيب يشفى ضغط الدم وفقر الدم . والاملاح والبول الســـكرى والبرد والحمى والامســاك والاسهال .. وهو يتصور ان حزبا واحدا يحكمنا لمدة عشر سنوات — على الاقل — يســتطيع أن يفعل المعجزات . ويحول الصحراء الى جنة . والحكام الفاسدين الى ملائكة . والضعفاء المتخاذلين الى اقوياء مناضلين .

تماما كما يفعل الدواء الشافى العجيب .

وأنا اختلف مع الاســـتاذ التابعى فى أن الحزب الواحد يســـتطيع ان يفعل كل هــذا . وان يحول الفســيخ الى شربات .. ولا أتصور أن فى امكان بلادى ان تنهض لان فيها حزبا واحدا فقط يحتكر الحكم والسلطان .

وما معنى الحزب الواحد ؟

معناه حكم رجل واحد .. اله لاشريك له .. طاغية لايخضع لقانون .. الويل لمن يعارضه والموت لمن يقاومه .. والدمار ن يقف فى طريقه !

ان كل رجل وقف فى طريق هتلر كان مصيره الموت أو الاعتقال .. يكفى أن يكون رجل الجستابو لايحبنى ليدبر لى المكائد . وليقدم تقريره السرى بأننى انتقد النازى ، فيقبض على ، واحاكم أمام قاض نازى . وأعدم بيد جلاد نازى .. فقد القضاء استقلاله وأصبح موظفا فى الحزب .. وفقد البوليس عدالته . وأصبح لجنة فرعيه للكزب . وفقد كل شيء طابعه . وأصبح آلة مسخرة فى يد رجل واحد .

وقد يكون هذا الرجل مجنونا . أو قد يسكره خمر السلطان كما حدث لحكام مستبدين عديدين فيحكم بلده وهو مجنون . ولايستطيع أحد أن يفتح فمه وينتقده .. أو ان يطالب بتطبيق مبادىء العدالة والقانون .

فعندما يدخل الحزب الواحد من الباب يخرج القانون من النافذة ، وتخرج العدالة ، وتخرج المساواة . وتخرج معه الفرص المتكافئة التى هى من حق كل فرد من أفراد الشعب وقبل كل هذا تخرج الحرية . وليتأمل الاستاذ التابعى عشر سنوات كاملة فى مصر بغير حرية .

وعشر سنوات بغير حرية . معناها عشر سنوات بغير صحافة . وعشر سنوات بغير صحافة معناها عشر سنوات بغير الاستاذ التابعى .

ان الاستاذ التابعى يستطيع اليوم أن يكتب ، وينقد ، ويهاجم — حتى فى فترة الانتقال — وصحيح ان هناك رقابة ، ولكنه حتى الآن لم يحدث ان وزير الدعاية — الارشاد — اتصل بالتليفون بالاستاذ التابعى ليعطية عنوان مقاله . كما يحدث فى كل بلد فيه نظام الحزب الواحد .

فهل حدث فى بلد من البلاد الدكتاتورية — اى الحزب

الواحد — ان ظهرت مقالة واحدة فيها انتقاد لحاكم ؟

الم يــكن هتلر يقتل خصومه بمسدسه . فتخــرج صحف المانيا كلها تصفق للعمل العظيم .

الم يحدث ان مئات الالوف كانــوا يقتلون فى معســكرات الاعتقال بلا ذنب ولا جريمة ، فيخرج كتاب هتلر بمقال واحد يحيون العدالة . ويمجدون شريعة الغاب .

الم يحدث أن نائبا انتقد موسولينى فوجد فى اليوم التــالى مقتــولا .

الم يختف رجال من ايطاليا عن الحياة .. او امضــوا فى السجن عشرات السنين لان احدهم قال فى مجلس خاص أنه لايوافق على اعتداء موسولينى على استقلال الحبشة .

الم يسمع الاستاذ التابعى عن الحزب الواحد فى روسيا ، وكيف أن افراد الاسرة يتجسس بعضهم على بعض .. وكيف ان سكان موســكو مكثوا عشرات الســنين لايســتطيعون مغادرتها الى بلد مجاور فى نفس روسيا الا اذا اخذوا اذنــا من البوليس .

الم يسمع الاستاذ التابعى ان الموظف فى ايطاليا والمانيا لم يكن يستطيع أن ينال ترقية الا اذا كان عضوا فى الحزب ، أو محسوبا لاحد زعماء الحــزب .

ثم هل منع الحزب الواحد الرشــوة والفســاد فى ايطاليا والمانيــــا .. ؟

الم يحدث ان زعماء الحزب كانوا يعيشون كأغاخان بينما كان يعيش افراد الشعب كغاندى .

الم يكن جورج يملك القصور وسكان المانيا فى وقت الحرب لايجــدون الاكواخ .

الم يقفز موسولينى بزوج ابنته الكونت شــيانو فوق كل الرؤوس . ويرفعه من موظف صــغير الى وزير خارجيــة البلاد بلا سبب الا أنه متزوج ابنة الدكتاتور .

ولما اختلف موسولينى مع زوج ابنته اعدمه رميا بالرصاص

اننى لااجد اصلاحا يمكن ان تحققه الدكتاتورية ، ولايمكن ان يحققه الدستور .. فأنا أرى ان كل ما أصاب مصر هو نتيجة حكم الرجل الواحد والحزب الواحد .

وأنا مؤمن من أنه يجب ــ بعد فترة الانتقال ــ ان تحكم مصر بأكثر من حزب .

ولنتصور ماذا يحدث فى مصر لو حكمت بحزب واحد . ؟

يتحول الشعب كله الى « كليشية واحد » يفقد الشعب شخصيته . يعمل بأمر الدولة . ويأكل بأمر الدولة . ويتكلم بأمر الدولة .. ويسكت بأمر الدولة . يلغى « التفكير » .. ويصبح من حق الدولة ان تقرر الصحف التى تتصفحها والكتب التى تقرأها . والاذاعة التى تسمعها . والافلام التى تراها .

تنتشر الجاسوسية . فيتكلم الناس همسا . يسيرون وهم يتلفتون وراءهم يتوقعون فى كل يوم وشاية تزج بهم فى اعماق السجون .

لايشعر الفرد أنه فى أمان .. حريته مهددة . حياته مهددة . لايجد من يلجأ اليه أو يحميه من طغيان الحاكم .. الشكوى ممنوعة والصراخ ممنوع .

لايد له فى الحكم . لايستطيع ابدال الحاكم الا بثورة . ولا يستطيع أن يصلح الحال الا باراقة الدماء .

لايأمن الفرد على بيته . ولا على ماله ولا على مقدساته من ان يعبث بها حاكم مستبد يعلم أنه باق بلا رقيب ولا حسيب .

وقد يجىء لنا حاكم عادل . وقد يكون هذا الحاكم احد الملائكة . ولكن من يضمن لنا انه يعيش عشر سنوات . هل يستطيع الاستاذ التابعى ان يحصل لنا على ضمان من شركة

تأمين السماء . ان هذا الحاكم العادل الذى يرتفع فوق الشهوات ، وفوق الاغراض ، وفوق الخصومات ، هل يستطيع أن يحصل من شركة تأمين على ضمان بأنه سيعيش عشر سنوات . ؟

فاذا حدث وأعطته شركة التأمين هذا الضمان .. فمن يضمن لى أنه لن ينحرف ، كما انحرف حكام كثيرون فى الماضى بدأوا ملائكة وانتهو شياطين .

واذا حدث وتكونت شركة تأمين على نزاهة وعدالة الحكام ، وأعطت للشعب بوليسة التأمين هذه .. فمن يضمن ألا يجىء الى جوار هذا لحاكم اصدقاء ومحاسيب ، يطغون بغير ان يعلم . ويستفيدون من الحكم آمنين من أنه لاتوجد معارضة . ولاتوجد صحافة حرة . ولايوجد رجل يجرؤ على ان يعلن عن الجرائم التى ترتكب بغير علم الحاكم بأمر الله .

واذا كانت شركات التأمين هذه كلها لم تتألف بعد . فكيف نقبل أن نعطى صكا على بياض لرجل واحد . مهما كان هذا الرجل . ليحكم هذا البلد عشر سنوات . وان نطلب الى هذا الشعب ان يتحول فجأة الى قطعان من الغنم تسير خلف رجل واحد . بغير ان يكون لها حق المأمأة .. أو حق الهرب من سكين الجزار .

اننا نقبل الغاء الاحزاب فى فترة الانتقال . ولكننا نرفض الغاءها بعد فترة الانتقال .. اننا نعتبر الحكم الاستثنائى اشبه بمدة النقاهة يقضيها المريض فى الفراش للعلاج .. ولكننا نرفض ان نمضى عشرة أعوام فى فراش المرض .

اننا نفهم ان يتحدث الشعب فى الازمات الجسام . نفهم ان تؤلف جبهة وطنية فى أوقات الحرب . وان تؤلف وزارة قومية فى اللحظات الحاسمة .

ان انجلترا عندما الفت وزارتها القومية فى اثناء الحرب الماضية ، وفى أثناء الحرب الاولى ، لم تلغ أحزابها ، بل كرست كل الاحزاب جهودها لكسب الحرب .. ولم تلغ هذه

الاحزاب وجودها .. ولم تطلب الى الشعب ان يلغى عقله . ويلغى تفكيره السياسى أو تفكيره الحزبى .

وعندما قامت ثورة سنة ١٩١٩ لم يطلب أحد الغاء الاحزاب اكتفاء بحزب واحد .. بل ائتلف الوفد .

وبقى الحـــزب الوطنى موجـــودا .

ولم يؤد بقاء الحزب الوطنى على قيد الحياة الى فشل الثورة .

بل لقد حدث فى اثناء الثورة ان قامت عدة احزاب اكتسحها سعد زغلول . بغير ان يصدر قانونا بمنع تعدد الاحزاب .

ولماذا نذهب بعيدا ؟ ان حركة التحرير قامت يوم ٢٣ يوليو لتقضى على حـــكم الفرد . ولتنهى الطغيـــان والدكتاتورية . ولتعيد لهذا الشعب حيـــاة ديموقراطية حـــرة .. وليكون الدستور حقيقة لا خيـــالا .

أما حكم الحزب الواحد فهو نظام مغر جميـــل وبراق .. وبشرط ان تكون أنت زعيم الحزب الواحد .

فهو المقعد الوحيد المريح فى مثل هذا النظام .

وليس مريحا أن يكون الواحد منا فى مقعد زعيم من زعماء الحزب الواحـــد .

فمهما كبر نفوذ الواحد منا فلن يصل مثلا الى نفوذ «بريا» .

وانظر الى ما حدث لبريا .. ؟

اختلف معه الزعيم مالينكوف فأتهمه بالخيانة .. وزج به فى السجن . وقدمه للمحكمة لتحكم عليه بالاعدام .

فهل سمع واحد منا دفاع بريا . ؟ هل سمع واحد منا ان هناك محاميا للدفاع عن بريا .. ؟ هل عرف واحد منـــا ان هناك قضاء حقيقيا نظر فى (قضية بريا) .. ؟

وقد كان بريا أحد زعماء الحزب الواحد . وأحد المتحمسين للحزب الواحد . لانه كان يظن أنه ان بقى الحزب الواحـــد فسيبقى فى يده الصولجان والسلطان .

فاللهم أبعد عنا نظام حكم الحــزب الواحد . ونظام حكم الرجل الواحد .

اللهم نجنا من نكبة الدكتاتورية .. وجنبنا عثرة انظمــة الطغيـــان .

اللهم أعطنا بعد فترة الانتقال حكما ديموقراطيا كاملا فيه حرية . وفيه عدالة . وفيه مساواة . وفيه شعب يسجد له الحاكم لا حاكما يسجد له الشعب .

●●●

الذى قرأته فى الصفحات السابقة ، هو نص المقال الذى نشره الاستاذ مصطفى أمين فى عدد « آخر ساعة » الصـــادر بتاريخ ٢٦ أغسطس سنة ١٩٥٣ . وقتها كتب مصطفى أمين يرفض قيام الحزب الواحد . فقد شم فى الجو أن هناك اتجاها لقيام الحــزب الواحد ، كبديل عن الاحزاب الملغاة .

ولم يعجب الاســتاذ محمــد التابعى برأى الاســتاذ مصطفى أمين . فكتب التابعى يهاجم الاحـــزاب ، ويؤيد الحزب الواحـــد .

فما كان من مصطفى أمين الا أن كتب مقالا ثانيا يرد فيه على التابعى ، ويعدد أخطار قيام الحزب الواحد . وهــــو المقال الذى نشرته فى الصفحات السابقة لهذه الكلمات .

● ارهاب . استبداد . ديكتاتورية ●

كان الاستاذ مصطفى أمين يقرأ المستقبل ـ فعلا ـ عنـــدما كتب منذ ٢١ سنة فى مجلة آخر ساعة بتاريخ ٢٦ اغسطس ١٩٥٣ ، يهاجم فكرة الحزب الواحد .

لقد استعرض مصطفى أمين المشاكل والمتاعب التى تنتظر

لشعب — أى شعب — عندما يسلب حقه فى المعارضة ، ولا يستطيع أحد أن يرفع صوته ويقول (لا) للحاكم .

وكان مصطفى أمين يسبق الزمن بهذا المقال ، فقد تحققت جميع توقعاته ومخاوفه .

كنت أرتدى البنطلون القصير عندما ألغيت الاحزاب السياسية فى بلادى . وعشت انا وجيلى كله طوال السنوات التالية ، ونحن نسمع من يكرر — بمناسبة وبدون مناسبة — أن الأحزاب السياسية هى سر البلاد . وان البلاد لم تتأخر الا بسبب فساد الأحزاب . وعفونة الحزبيين القدماء . كما أكدوا لنا أن الخير كل الخير ، فى قيام التنظيم السياسى الواحد .

وقامت هيئة التحرير . ثم قام الاتحاد القومى . ثم قام الاتحاد الاشتراكى العربى . الذى يتعرض هو الاخر للتغيير والتبديل مرة كل عدة سنوات .

وطوال هذه الفترة لم يعرف جيلنا معنى الرأى الآخر . لم يتذوق حلاوة المعارضة . وتعودنا على الرأى الواحد ، والقرار الواحد ، والحاكم الأوحد !

الحكومات تشكل ، ثم تعدل ، ثم تتغير ، دون أن نعرف السبب !

القوانين تلغى ، والدستور يجمد ، ولا يستطيع مواطن ان يسأل لماذا ؟

الوزير يقال ، والمرتشى يطلق سراحه ، والانتهازى يتربع فوق القمم ، والوطنى الشريف يجوع ، ولا يقدم للشعب تفسير واحد لهذه القرارات العفوية الوحدوية .

لم نسمع فى الماضى عن مواطن حاول ان يعترض الا وكان مصيره الفصل من وظيفته ، أو احالته مستشفى المجاذيب ، أو اتهامه بالخيانة العظمى .

هذا لا يحدث أبدا فى دول العالم التى تتمتع شعوبها بالأحزاب المعارضة .

فى هذه البلاد لا تستطيع الحكومة أن تلغى آدمية المواطن. ولا يمكن للحاكم أن يسجن من يشاء ، أو يرفت من يريد . القانون هو الذى يحكم الأمور هناك . واذا غفل المواطن عن تصرف خاطىء لأحد المسئولين ، فان الحزب المعارض لا يغفل أبدا . انه يقيم الدنيا ويقلبها فوق رأس هذا المسئول .

أى قرار لا يعجب الشعب ، تسارع المعارضة وتجمع الأصوات .. وتطلب سحب الثقة من الحكومة . وقد تسقطها بسبب هذا القرار .

أى قانون جديد لابد أن يسبق صدوره استفتاء الشعب على جميع بنوده .

هذه هى المعارضة الحقيقية والديموقراطية التى لم يعرفها جيلنا .

ولهذا السبب لابد أن نطالب اليوم بعودة المعارضة . بعودة الرأى الآخر .

ان الرئيس أنور السادات أعاد للشعب حريته . فلماذا لا يعيد له ديموقراطيته ؟

لماذا لا يلغى الحزب الواحد ، ويعاد الأخذ بنظام تعدد الأحزاب ؟

ان بعض السذج ، يهاجمون هذا الرأى ، ويتصورون أن معنى عودة الأحزاب ، هو عودة « حزب الوفد » ، و « حزب السعديين» ، و « حزب مصر الفتاة » ، و « حزب الأحرار الدستوريين » .. و .. و .. الى آخر قائمة الأحزاب المصرية السابقة .

وينسى هؤلاء — أو لعلهم يتناسون عن سوء قصد — أن الأحزاب الماضية قامت من أجل تحقيق مطالب قومية تحققت فعلا ، أو فات وقت بعضها .

أن الاحزاب التى ننادى بها الان ، لا صلة لها بالاحزاب القديمة .

أحزاب اليوم ستنادى بمبادىء جديدة . وستعمل من أجل أهداف محددة .

فمطالب اليوم ، ليست نفسها مطالب الأمس .

ان الأحزاب التى تنادى بها الآن ، لا صلة لها بالأحزاب القديمة .

وساسة اليوم ، ليسوا امتدادا لمصطفى النحاس أو لابراهيم عبد الهادى ، أو لمكرم عبيد ، أو للدكتور محمد حسين هيكل !

فظروفنا غير ظروفهم .

وأحلامنا تختلف عن أحلامهم .

ونحن لم نطالب بالأحزاب ، الا بعد ان اثبتت لنا تجارب السنوات الماضية ، فشل الحزب الواحد ، وفشل الرأى الواحد .

فلولا اختفاء المعارضة فى مصر لما توالت علينا الكوارث بهذا الشكل .

ولو كان لدينا الحزب المعارض لما تركنا الاتحاد الاشتراكى يتحكم — بقادته — فى أرزاق الناس! الذى لا يرضيهم أبعدوه وراء الشمس ! والذى يعجبهم رفعوه فوق القمة !

لوكان هناك من يحاسب ، لما استطاعت مراكز القوى أن تسرق ، وتنهب ، وتشرد ، وتسجن ، وتبطش بالمواطنين .

ولو كان هناك من يراقب ، لما تركنا بعض المسئولين السابقين يحققون ثروات طائلة وبطرق غير مشروعة وغير مفهومة .

هناك فى مصر الجديدة تنتشر فيللات أشبه بقصور ألف ليلة وليلة ! من هم أصحابها ؟ من هو الذى بناها لهم ؟ وكم قبض ثمنا لها ؟ ومن أين دفعوا ثمن الأرض، وثمن البناء ، وثمن التأثيث ؟

وماحدث فى مصر الجديدة ، حدث فى الزمالك ، وحدث فى المهندسين ، وحدث فى المعمورة ، وحدث فى الهرم ، وحدث فى المنصورية .. وحدث فى مناطق أخرى كثيرة !

مساحات شاسعة من أجمل الحدائق ، يمتلكها من لم يكن أبدا فى الحسبان أن يصبحوا من كبار الملاك .. فى يوم من الايام .

فمنهم من تخصص فى رفع شعارات الاشتراكية !
ومنهم من استقطب مبادىء الماركسية اللينينية !

ومنهم من تبنى حقـــوق الفـــلاحين والعمـــال والمثقفين والرأسمالية الوطنية والجنود !

ومنهم من كان الفيلسوف الذى قدم التفسير الاشتراكى الوطنى لكل قرار صدر ، والتبرير الذكى لكل اجراء اتخذ !

ومنهم من اخترق آذاننا ــ لسنوات طوال ــ من كثرة ماقال وردد حول حتمية النقاء الثورى ، وحتمية التقشف ، وحتمية شد الحزام حول البطون !

هؤلاء جميعا أصبحوا الان من ملاك الاراضى الزراعية ·
ثمار حدائقهم ، يصدر الى الخارج ، ويغمر الاسواق ·
دواجن مزارعهم ، تتخاطفها المجمعات الاستهلاكية ·
وهكذا ·· فقدنا الثقة فى هؤلاء جميعا ·
ولم نعد نصدق ماقالوه لنا ·

ولم نعد نستطيع ان نتحمل كلامهم ، أو حتى وجـــودهم بيننــــا ·

لقد سرقونا ، وضحكوا علينا ، واســـتغلوا تســـامحنا ، وتمادوا فى السخرية بنا !

هم يأكلون ، ونحن نتضور جوعا !

هم يزدادون غنى ، ونحن نزداد فقرا !

هم الذين تسببوا فى كل كوارثنا ، ومشاكلنا ، وأوجاعنا !

هم أصحاب الحزب الواحد · وأصحاب الرأى الاوحد !

والاخذ ، بنظام تعددالاحزاب ، هو وحده الذى سيخلصنا من هؤلاء جميعا ·

ولن نكون أفضل من غيرنا الذين أبقوا على تعدد الاحزاب ، ورفضوا الاكتفاء بالحزب الواحد · فلو كان هناك خير فى الرأى الواحد ، والحزب الواحد ، لسارعت شعوب فرنسا وبريطانيا

والمانيا الغربية والولايات المتحدة وأيطاليا و ٠٠ و ٠٠ بالغاء نظام تعدد الاحزاب واكتفت بالحزب الواحد ٠

٠٠ فمن المؤكد ان هذه الشعوب لاتقل فى الذكاء عن شعبنا ٠

ولهذا السبب أتمنى أن نصبح أكثر تواضعا ، وأكثر رغبة فى التعلم من غيرنا ٠

واذا كانت شعوب أوروبا وآسيا ـ وحتى بعض شعوب أفريقيا ـ قد نجحت فى رفع مستواها الحضارى فعلينا الا نتردد فى تقليد أسلوبها ، ولا نخجل من نقل تجاربها ٠

فاذا تطلعنا الى الدول التي تتمتع ـ حقا ـ بالديمقراطية ، سنجد انها تتمتع بصحافة حرة غير مكممة ٠ حرية الرأى مكفولة بحكم القانون ٠ الاحزاب السياسية متعددة ٠٠ ويتزايد عددها ، وتتطور أهدافها مرحلة بعد مرحلة ٠

الرأسمالى يقول رأيه ويمضى ، دون أن تلاحقه لعنات وطعنات أخوان ماركس !

والاشتراكي يواصل الحديث عن مكاسب العمال والفلاحين ، دون أن يتهمه أنصار اليمين ، بالكذب ، والخداع والتزوير !

والشيوعى ، ينظم خلاياه ، بلا خوف من رجال المباحث الذين يلقون به في السجون والمعتقلات !

فالحكومة في هذه المجتمعات ، لا تتدخل أبدا لفرض رأيها ، ولا تحاول مطلقا أن تكتم أنفاس من يعارضها !

والصورة تختلف تماما في الدول الاخرى التى تتمتع بديمقراطية غير الديمقراطية التى تحدثنا عنها ٠

فالديمقراطية الجديدة لا تؤمن بتعدد الاحزاب ٠ ولا بتعدد الآراء ٠

لاتوافق على تضارب الافكار ٠ ولا تأخذ برأى الافراد ٠

صحافتها موجهة ٠ النقد ممنوع ٠٠ الا اذا ارادت اللجنة المركزية للحزب الواحد أن تنقد !

والمعارضة محرمة ٠٠ الا اذا اراد المكتب السياسى الاعلى أن يعارض !

كل الابواب مفتوحة أمام أعضاء الحزب الواحد ..
وكلها مغلقة بالقفل والمفتاح فى وجه غير الاعضاء !
كبار رجال الدولة يلمعون فجأة ، ثم يختفون فجأة .. بلا مبرر ! المسئول الذى كان الناس يرون صورته تتصدر الصحف وتملا شاشة التليفزيون ، كل يوم ، يمنع نشر أى كلام عنه ويمنع ظهوره أمام الناس ، بجرة قلم .. وبلا سبب معروف ! ولا يجرؤ مواطن ويسأل عن سر هذا الابعاد المفاجيء !

قادة الحزب الواحد يمكنهم ان يأمروا بسجن أى مواطن يعارضهم ، وبقطع عيش أى فرد لاينحنى أمامهم !

.. صورتان متناقضتان متباعدتان . الاولى لديمقراطية الشعب ، والثانية لديكتاتورية الحزب .
منتهى الحرية هنا ، ومنتهى الاستبداد هناك .

والشعب المصرى من حقه أن يطالب بالحرية ، بعد أن ضاق بالاستبداد .

لقد عانى طويلا من حكم الحزب الواحد ، والحاكم الاوحد .

وآن له الآن فى عهد السادات أن يختار الديمقراطية التى تخدمه ، لا تلك التى تخدم قادة الحزب الواحد .

آن له ان يطالب بالغاء الرأى الاوحد ، والاخذ بنظام تعدد الاراء .. تعدد الاحزاب .

● حـــــرب اليمن ●

أو الدرس الذى لا ينسى

فلو كانت لدينا معارضة ، خلال الســنوات الماضية ، لما تورطنا فى حرب اليمن التاريخية .
لقد اتخذت الحكومة قرار التدخل العســكرى فى اليمن ،

لمساندة الثورة الشعبية والعسكرية التي قادها المشير عبد الله السلال ، ولانقاذ الشعب اليمنى من ظلام التخلف .

رأينا الطائرات الحربية ـ والمدنية أيضا ـ تقلع من جميع مطاراتنا وتحمل ملايين الاطنال من القنابل ، والهدايا ، وأكياس الذهب .. لتشارك فى أعنف حرب شهدتها رمال وجبال اليمن السعيد .

ورأينا السفن الحربية ـ والمدنية أيضا ـ تتدفق على البحر الأحمر ، حاملة الآلاف من ضباطنا وجنودنا ، ومئات الدبابات والمدرعات ، والسيارات ، والمدافع ، وصناديق الذخيرة .

وطالت الحرب سنوات وسنوات .

استشهد فى معاركها الوف عديدة من ضباطنا وجنودنا الابطال الأبرياء .

واستمرت خزانة الدولة تصرف على هذه الحرب أكثر من مليون جنيه استرلينى يوميا ، ولمدة ٥ سنوات متصلة .

وكان يمكن أن تستمر هذه الحرب البشعة ، خمس سنوات أخرى ، لولا حرب يونية ٦٧ ، ولولا مؤتمر الخرطوم الذى تقرر فيه الاتفاق بين عبدالناصر والملك فيصل ، على أنهاء أشتراكهما المسلح فى هذه الحرب الطاحنة .

وقد استطاعت أجهزة الاعلام المصرية ، وقتذاك ، أن تضلل الرأى العام وترسم له صورة غير حقيقية لأبعاد هذه الحرب .

وبلغت السخافة ذروتها عندما طلبوا من عبد الحليم حافظ أن يغنى من تلحين عبد الوهاب أغنية عن حرب اليمن تقول كلماتها فى وصف عمليات القتل والتشويه وابادة الجنود والضباط والمدنيين بانها : « يا حبايب بالسلامة . رحتم ورجعتهم بالسلامة . رحلة نصر جميلة .. ! »

لم يسمح للصحف بالكتابة عن حرب اليمن الا من خلال البيانات الرسمية الكاذبة . ولم ينشر فى صحفنا عن هذه

الحرب الا شطحات التفاؤل الكاذب • ولم يصدر فى مصر أى كتاب يتضمن الوثائق الصادقة لخسائرنا الفادحة فى الارواح والعتاد خلال هذه الحرب الشهيرة •

لو كنا نملك المعارضة فى هذا الوقت ، لطالبنا بمعرفة الحقائق كاملة • ولطالبنا بمعرفة نتيجة الدم الذى سال ، والمال الذى صرف بمنتهى البذخ •

لو كنا نستمع للرأى الآخر ، لربما فكرنا أكثر من مرة قبل أن نتورط فى هذه الحرب •

لم تغتصب منا أرض ، حتى نهب لاستعادتها بالقوة •

ولم تجتح جحافل اليهود حدود اليمن ، حتى نبادر بانقاذ الشعب اليمنى الشقيق من براثن الاستعمار الصهيونى •

ان الثورة التى قادها المشير السلال ، تعتبر من شئون الشعب اليمنى الداخلية ، وكان من رأى البعض الا نتدخل عسكريا لصالح طرف وضد الطرف الآخر • فالجمهورى اليمنى هو أخ الملكى اليمنى • ولا شأن لنا – كدولة تبعد عن اليمن بآلاف الاميال – بما يحدث من خلافات بين الاخوة الشقيقين اليمنيين •

كان هذا هو رأى البعض وقتذاك ، ولكن الاعتراض كان خافتا ، مهملا ، بددته الرياح !

فمراكز القوى المصرية كانت تستعد لبسط أوهامها التوسعية على صعيد العالم العربى ، من المحيط الى الخليج • وكانت حرب اليمن فرصة لا تعوض للوصول الى هناك ، حتى ولو تكلف هذا أرواح عشرات الآلاف من شبابنا ، ومئات الملايين من ثرواتنا ، وعشرات السنوات من التأخر والتخلف تعود بنا الى القاع !

كان الهدف مجرد المجد الشخصى •

وحتى هذا الهدف لم يتحقق •

أن ما حدث لنا فى ورطة اليمن ، يجب ان نتعلم منه درسا لا ينسى أبدا •

فهو يعلمنا ضرورة وجود المعارضة فى بلادنا ·

أن الرأى الواحد ـ مهما بلغت حماسته الوطنية ـ لا يمكنه أن يضمن صواب الفكر الى مالا نهاية !

ولابد أن يخونه الصواب يوما · وهو ما أثبتته لنا الايام عشرات المرات خلال السنوات الماضية ·

لقد مللنا اللسان الواحد الذى تكلم بأسمنا ·

ومللنا الاذن الواحدة التى تسمع نيابة عنا ·

ولابد الآن من أن نتكلم بألستنا جميعا ·

ولابد أن نسمع بآذاننا ما يقال لنا ·

·· لابد من المعارضة !

● الحزب المنتظر ●

تعدد المنابر ، داخل الاتحاد الاشتراكى ، هو البديل المؤقت لقيام الأحزاب السياسية فى بلادنا · والمنبر الذى لن أتردد فى تأييده والانضمام اليه ، هو الذى يتضمن برنامجه القضايا التالية :

١ ـ أن يؤمن بشعار « مصر أولا » · الامكانيات كلها من أجل النهوض بشعب مصر · الجهد كله يبذل فى سبيل رفاهية المواطن المصرى · ثروات البلاد تصرف داخل حدودنا · فالشعب الجائع المحروم ، لا يبعزق ملاليمه على غيره !

٢ ـ أن تتميز أحلام قادة المنبر بنعمة التواضع المفقود ! فهم يفكرون فى تحقيق وحدة الشعب المصرى قبل أن يفكروا فى تحقيق وحدة الكرة الارضية · يعملون من أجل تصفية الخلافات الدينية والفكرية والمذهبية ، بين فئات الشعب المصرى قبل أن يخططوا لتصفية الامبريالية العالمية فى مجاهل أفريقيا والشيوعية الحمراء فى استراليا وامريكا اللاتينية !

٣ ـ أن يدعو المنبر الى الوحدة العربية المدروسة ، ويرفض قيام الوحدة المحدودة الارتجالية ! لقد عانينا طويلا من الوحدة التي تعلن ، وتنفذ ، وتنهار ، في جلسة عمل واحدة !

٤ ـ أن ترتفع أصوات من فوق المنبر المنتظر ، تطالب بانقاذ الفلاح المصري من الأزمات التي تمنع تنفسه • فالفلاح المصرى لا يزال يشرب الماء الملوث من الترع • وينام داخل أكواخ صنعت من الطين ولا تدخلها الكهرباء ، ويأكلها النمل الأبيض • فلاحنا في القرن العشرين ما زال يستخدم في زراعته نفس الأدوات التي كان يستعملها فلاح قدماء المصريين !

ان الاموال الطائلة التي صرفت في الماضي لتحقيق الأحلام التي لم تتحقق أبدا ، كانت كفيلة باحداث الانقلاب في حياة الفلاح المصرى ، فتنقله من عصر البدائية الى عصر المدنية • •

٥ ـ أن ينادى المنبر باعادة كتابة التاريخ بلا تزييف • وان يشكل من بين أنصار المنبر لجنة لتقصى الحقائق تبدأ عملها على الفور •• لتكشف لنا مآسى الماضي ، حتى نعرف الأبطال الذين ضحوا من أجل الشعب ، وأشباه الأبطال الذين ضحى الشعب من أجلهم •

٦ ـ أن يرسم لنا المنبر تصوره لمستقبل مصر • لا نريد كلاما معسولا لا يتحقق أبدا • ولن نقبل أوهاما لا تصدق مطلقا • نريد تخطيطا دقيقا لمستقبلنا بعد ١٠ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٤٠ سنة قادمة • كم سيكون لدينا من مصانع تنتج فعلا ، وليست لمجرد كمالة عدد •

متى سنحتفل بوفاة آخر أمي في بلادنا ؟ •

متى سيكون هناك سرير لكل مريض ؟ ومأوى لكل أسرة ؟ وعمل لكل متعطل ؟ ومقعد لكل تلميذ ؟ وطعام لكل فم ؟ ومكان لكل قدم في المواصلات ؟

•• هذا التخطيط هام جدا ، حتى يطمئن الشعب على مستقبل أولاده بعد أن يئس من ماضيه وبعض حاضره •

٧ ـ ان تصر الأصوات من فوق المنبر المنتظر ، على استرداد أموال الشعب المسروقة ، وبذلك يعود للشعب ما نهب منه من ثروات لا تقدر بثمن والتى اتخذت لها أشكالا مختلفة : فهى عمارات شاهقة يملكها المحاسيب • وأطيان شاسعة استولى عليها الالاضيش • وجناين مثمرة وضع الأقارب أيديهم فوقها ومخصصات خيالية يحصل عليها من لا يستحقها • وعمولات ضخمة يقتطعها الوسطاء ولحساب بعض الكبار • وارصدة ثمينة مهربة فى بنوك سويسرا • وقصور فخمة طرد منها أصحابها ، ويقطنها الآن « اثرياء الأشتراكية » ، كما أطلق عليهم أستاذنا جلال الدين الحمامصى •

أن المنبر الذى أنتظره هو الذى يمثل الاغلبية الصامتة • الكادحة • المظلومة • والرحيمة بمن أساء اليها •

● مظاهرات هنا وهناك ●

لقد شاهدت فى دول كثيرة ، كيف تعبر الشعوب عن رأيها •

عندما أراد الشعب الفرنسى أن يعدل القانون لينص على اباحة الاجهاض ، بدأت حملة اعلامية واسعة ، اشتركت فيها الأحزاب والهيئات الاجتماعية والطبية والصحفية ، كما خرجت الجماهير الى الشوارع والميادين ، تهتف وتنادى بالتغيير •

ووافقت الحكومة على وجهة نظر الشعب وأجرت التعديلات المطلوبة •

وعندما ارتفعت الأسعار بشكل مخيف فى بريطانيا ••• قامت القيادات الجماهيرية بتنظيم الأسلوب الذى تأخذ به حقها •

وكان لهذا الأسلوب أكثر من اتجاه •

اتجاه اعلامى يقرأ ويسمع ويرى •

واتجاه رسمى يتم بالاتصالات مع كبار المسئولين فى الدولة •

واتجاه ثالث ـ وأخير ـ يتمثل فى تجميع فئات من الشعب والخروج بها الى الشوارع ، تهتف وتنادى بتخفيض الأسعار • وتفهمت الحكومة لوجهة نظر الشعب وبدأت سياسة اقتصادية رشيدة وبعيدة المدى •

وعندما أحس الشعب الألمانى بنوع من الاختناق بسبب التضخم المالى المتزايد ، خرجت الجماهير الى الشوارع والميادين تطالب بالاصلاح •

•• وفى جميع هذه البلاد ، وغيرها ، كان خروج الجماهير الى الشوارع منظما •

جماهير تقدر مسئولياتها • سارت رافعة شعارات تبرز الرأى الآخر • رجال الأمن على علم مسبق بخروج المظاهرات • وحددوا لها الشوارع ، حتى يمنع فيها المرور خلال المسيرة • هتافات • عبارات محددة • مطالب واضحة •

لم أر متظاهرا واحدا حاول الخروج على هذه التقاليد الديمقراطية • لم أشاهد مواطنا يكسر واجهة محل تجارى لا صلة لصاحبه بالغلاء ، ولا بالتضخم • لم ألمح متظاهرا يقتحم مكتبا لشركة طيران أجنبية لا علاقة لها بارتفاع سعر الطماطم ، ولا باختفاء البوتاجاز •

لم أر جماهير المظاهرة تنقض على الأتوبيسات العامة ـ التى يملكها الشعب لا الحكومة ـ ويكسرون زجاجها ، ويمزقون اطاراتها ، ويشعلون النار فى هيكلها •

لم أر مواطنين ، يقذفون المارة الابرياء بالحجارة • فيهشمون سيارات الأهالى ويجرحون تعساء الحظ الذين تصادف مرورهم فى نفس الشارع •

التظاهر فى تلك الدول التى زرتها ، يهدف الى مخاطبة الحكومة بصوت عال ، ولا يهدف الى تخريب البلد •

والتجمع الجماهيرى الذى يطوف حول أبنية الوزارات ـ فى تلك الدول ـ يرمى الى اقناع سكان هذه الأبنية بحل مشاكل

الجماهير ، ولا يرمى الى تحطيم مبانى الحكومة فوق رءوس العاملين داخلها ٠

ولهذا السبب تنجح عادة هذه التحركات الجماهيرية ٠

المتظاهرون يحبون بلادهم قبل أشخاصهم ٠

والحكومة تحترم آراء المواطنين ، مهما كانت صعبة ، ماداموا يستخدمون فى طلبهم أسلوب الحوار لا أسلوب الارهاب ٠

ولهذا السبب ـ أيضا ـ لم تفكر الحكومات الديمقراطية فى الأخذ بوسائل الضرب والقمع والعنف ، ما دام المتظاهر لم يعتد على حياة أو على ممتلكات الغير ٠

٠٠ فمن حق الشعب أن يتكلم ٠ وان يرفع صوته عاليا اذا أصيب المستمع بالطرش فجأة ٠ ولكن ليس من حقه أن يهشم الرأس بطوبة ، أو يفتح البطن بسكين ٠

٠٠ وكم أتمنى لو أن الحكومة ، بدأت بمبادرة من جانبها ، فتسمح بخروج المسيرات الشعبية الى الشوارع ، لتقول رأيها ، وتنادى بمطالبها المشروعة ٠

٠٠ ان هذه المبادرة من جانب الحكومة ، لابد أن يحسن الشعب استقبالها والترحيب بها ٠

٠٠ ومن يدرى ، فقد نشهد قريبا مظاهرات تخترق شوارع القاهرة ، ولا تختلف في شكلها واسلوبها ، عن المظاهرات التى نراها فى شوارع باريس ولندن وبون ٠

عودة إلى حجمنا الطبيعي

- الاشقاء .. أصبحوا أعـــداء
- وأحدهم يكرر نفس الاخطاء

لو كانت آذاننا استمعت الى الرأى الآخر ، لما ســــاءت علاقاتنا مع معظم الدول العربية الشقيقة ، خلال السنوات الطويلة الماضية .

ولو كنا تركنا غيرنا يقول رأيه ، لما تسرعنا وقطعنا علاقاتنا مع هذه الدولة أو تلك .

عندما زرت المغرب – أخـــيرا – فوجئت برصـــيد الحب الضخم الـــذى تملكه مصر فى قلوب هـــذا الشعب العـــربى المتدين . الذين قابلتهم فى الرباط أو فى الدار البيضاء ، كشفوا لى عن جراح الماضى . عـــن الفترة التى تدهورت فيهــــا العلاقات بـــين مصر والمغـــرب ، لدرجة القطيعة التــامة ، وتبادل الاتهامات عبر الاثير وبين السطور .

قالوا لى فى المغرب آنهم فتحـــوا حـــدودهم وقلوبهم لألاف المدرسين المصريين . كانوا يريدون تعويض ما حرمهم منـــه المستعمر الفرنسى خلال قرون . وأرادوا أن ينطقوا بالعربية، ويفكروا بها . وكانت مصر هى الدولة الوحيدة القادرة على مساعدتهم فى تحقيق هذا الهـــدف .

وكانت التجربة ناجحة فى بادىء الأمر .

وارسلت مصر آلاف المدرسين ، لتعليم أبناء المغرب اللغة العربيــــــة .

كما أرسلت أيضا آلاف الخبراء للعمل فى المصانع والمعامل المغربية ، بدلا من الفنيين والخبراء الفرنسيين الذين حاولوا أن يبعدوا المغرب عن المشرق ، وارادوا أن يسلبوا لســـانه القدرة على النطق بالضـــاد .

وفجأة تلبد الجو بين مصر والمغرب .

مشكلة محلية تتعلق بالحدود بين المغـــرب والجـــزائر .

فسارعت مصر بتبنى وجهة النظر الجزائرية ، ضــد وجهــة النظر المغربيــة .

هكذا بكل بساطة . ولم يفكر عباقرة القاهرة أن المغربى هو أخ عربى ، لا تقل عروبته عن الاخ الجزائرى . وأن النزاع الذى نشب بينهما ، يعتبر من المســائل الداخلية التى لا تهم ســواهما فقط . فاذا تطور هــذا النزاع الى التشــابك العسكرى ، فان كل ما يمكن لمصر ان تفعله ، هو أن تتدخل بمساعيها الحميدة ، لوقف القتال فورا بين الشقيقين العربيين واذا فشلت هذه المساعى الحميدة ، فلا بأس من الاستعانة بالجامعة العربية لتتولى تسوية الازمة تسوية سلمية لاتضر بطرف له حق ، ولا تحقق مكاسب لطرف لاحق له فيهــا .

هكذا كان يجب أن يكون دور مصر ، فى تســوية النزاع المغربى الجزائرى . دور الاخ الاكبر عندما يحــل مشــاكل أخوته الصغار .

ولكن الذى فعلناه ، كان شيئا بعيدا تماما عما ذكرناه .

ارسلنا قوات مسلحة ، لتقف بجانب الجزائر ، وضــد المغرب العربى . اى اننا أردنا ان نزيد المشكلة تعقيدا ، وأن نقتل العربى بســلاح عربى .

وكان من الطبيعى أن تتدهور العلاقات بيننا وبين المغرب . وأعطينا فرصة للعناصر المغربية ، المعادية لاى تقارب مــع العرب فى المشرق لكى تملا قلوب العناصر العربية بالخــوف والكراهية لكل ما يأتى من المشرق العربى .

وصــدر الامر بأغــلاق المدارس المصرية فى المغرب . وطرد آلاف المدرســين المصريين واعادتهم فورا الى بلادهم وعاد الخبراء الاجانب من فرنسا الى المغرب مرة اخرى ، ليعلموا أبناء المغرب اللغة الفرنســية ، وليديروا المصــانع والمعامل المغربية من جديد ، بعد ابعاد الخبراء المصريين .

وقعت العلاقات بين الرباط والقاهرة .

وتبادلنا حملات الدعاية المضادة ، وما صاحبها من شتائم

وسخافات ، ومؤامرات ، وتهديدات ، عبر الاثير ، وفـــوق أعمدة الصحف .

ومن المضحك والمؤلم فى نفس الوقت ، ان المغرب تصالح مع الجزائر .. وعادت العلاقات بين الرباط والجزائر كأقوى مما كانت .. ولكنها أبدا لم تعد بين الرباط والقاهرة . فقــد ظلت مجمدة ، ومتوترة ، كما كانت .

الى أن أعيدت منذ فترة قصيرة العلاقات بـــين المغرب ومصر .

وعندما نشبت الحرب بين مصر وســـوريا فى جانب ، واسرائيل فى الجانب الاخر ، كانت القوات المغربية تحارب مع العرب ضد اسرائيل .

وســـقط قتلى وجرحى من المغاربة .. واختلط دمهم مع اخوانهم من المشرق العربى .

وسارعت المغرب بتقديم كل ما فى امكانياتها من أجل تدعيم الجبهة العربية ماديا ومعنويا ، وحتى آخر لحظة .

وأدى المغرب واجبه كاملا ، بالنسبة لقضـــية فلسطين وللحق العربى .

وفى زيارتى الاخيرة للمغرب ، لاحظت أن العلاقات بـــين الرباط والقاهرة — فى عهد أنور السادات — قد تحســـنت لدرجة ملحوظة .

ولكن من الصـــعب أن تندمل الجروح العميقـة خلال فترة زمن قصيرة . فمازالت فى الافق آلام ، وآهـــات ، يتطلب محوها الكثير من الصبر ، والجهد ، والوقت .

المسئولون المغاربة أكدوا لى أن الخلافات انتهت تماما . والسفير المصرى فى الرباط قال لى :

ان العلاقات المصرية المغربية تمر الان بمرحلة وفـــاق واحترام متبادل .

ولكننا مازلنا نطمع فى ترجمة هذا الى وقائع وأرقام ..

ونتمنى أن يعود التعاون المصرى المغربى الى ما كان عليه فى يوم من الايام ، عندما كان المدرسون المصريون ينتشرون فى كل مكان فى المغرب . عندما كانت الخبرة المصرية تحل محل الخبرة الفرنسية أو الاوربية بصفة عامة .. عندما كان الشعب المغربى يسمع الاذاعة المصرية ، ويقرأ الصحيفة المصرية ، ويشترى الكتاب المصرى ، ويشاهد الفيلم المصرى .

أكدوا لى فى الرباط أن ما أطالب به ، يطالبون به ، أيضا .. فصورة مصر – فى الوقت الحالى – تعطيهم الكثير من الامان والضمان .

ورغم ذلك مازلت أشعر بأن هناك بعض الخوف ، وبعض التخوف .

ولكن هذا لا يعنى أبدا ألا نمد أيدينا ، لكسب الصداقة المغربية مرة أخرى ، عن طريق التقارب السريع مع الشعب المغربى الكريم ، واقناعه بصورتنا الجديدة والحقيقية ، حتى نبدد خوفه ، ونزيل تردده .

وليس المغرب وحده الذى أسأنا اليه اساءة بالغة فى الماضى .

لقد أسأنا الى الكثير من الدول العربية ، الشقيقة ، شعوبا وحكومات .

أسأنا اساءة بالغة الى المملكة العربية السعودية .

تخيلنا أن القومية العربية يمكن أن تفرض بالارهاب .. وبقوة السلاح .

وتوهمنا أن من حق مصر ، أن تغير وتبدل فى أحوال الشعوب العربية الاخرى ، رغما عن أنف تلك الشعوب ، ونكاية فى نظم حكمها .

والذى يرجع الى الصحف المصرية – فى السنوات الطويلة الماضية – وبالذات فى أوائل الستينات ، سيقرأ ما لا يصدقه عقل أو يقبله منطق .

شتائم سوقية . اتهامات قذرة . تهديدات فارغة . مؤامرات مكشوفة . ومخططات ساذجة .

والـذى يتذكـر ماكانت تقوله اذاعـة صـوت العرب لابد أن يشـعر بالقرف .. فقـد كـانت اذاعـة من أجل تشتيت العرب ، لا من أجـل جمعهم . كان المذيع الجهورى الصوت ، يصرخ ويطالب بالثورة ، عـلى جميع الانظمة العربية التى يتهمها ـ بكل بساطة ـ بأنها أنظمـة رجعية ، وعميلة ، ومتعفنة .

وربما يتذكر بعضنا الخطب الرنانة التى سـمعناها من مراكز القوى الغابرة . وهى تصف العاهل السعودى مـرة بالجنون . وأخـرى بالفساد ، وثالثة بالخيـانة والعمالة للامبريالية الامريكية .

وربما يتذكر البعض التهديدات التى وجهها كبار المسئولين المصريين ـ وقتذاك ـ للملك الراحل فيصـل .

وعندما تورطنا فى حرب اليمن ، كان من أحلام أولى الامر فينا ، أن يستتب لنا الامر فى اليمن ، لنبدأ من أرضه حربنـا المقدسة للاطاحة بالحكم الملكى فى السعودية .

وبالفعل أغارت طائراتنا على المواقع السعودية ، كمـا أغارت الطائرات السعودية على المواقع المصرية فى اليمن .. وقتلنا منهم وقتلوا منا .. واستمر العداء ، واشتد النزاع ، وتشدد كل جانب بموقفه وبرأيه وبعناده .

حتى كانت هزيمة يونية ١٩٦٧ .

وبعدها ظهر العاهل السعودى على حقيقته .. كان عظيما ونظيفا ، ومخلصا لعروبته ولدينه .. لم يتشف فى مصر .. ولم يهلل للوحل الذى تمرغنا فيه بسبب الهزيمة القاسية .. وانما أسرع الى الخرطوم ، وقدم لمصر أكثر مما قدمتـه أية دولة أخرى من الدول التى كنا نؤيدها ، وندعمها عسـكريا وسياسيا واعلاميا على الصعيدين العربى والعالمى .

وظل الملك فيصل ، وحتى آخر لحظة فى حياته ، كريما مع مصر . سخيا فى دعمها . ومتفهما لمواقفها .

وكما أسأنا الى المغرب والسعودية ، أسأنا ايضـــا الى الجزائر .

لقد ساعدنا الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسى .. ولم نتخلى عن الثورة الجزائرية حتى بعد أن نالت استقلالها .

ولم ينس الشعب الجزائرى البطل ، ما قدمنـــــاه له من مســـاعدات وتضحيات .. وظلت صـــورة مصر تملأ قلوب الشعب الجزائرى ، تقديرا وعرفانا وحبا .

الى أن اختلف قادة الثورة فيما بينهم .. واتفقت الاغلبية على ضرورة احداث التغيير واقصاء أحمد بن بللا .

وتقبلت جميع الدول العربية هذه التغيـــيرات الداخلية : بلا تعليق .. وبلا رد فعل ، الا مصر . فهى وحدها التى غضبت وثارت ، وهددت ، وتوعدت .

كان من حقها أن تقول رأيها أولا فى هذه التغييرات . كأن هناك وصاية مصرية على القيادة الجزائرية .

وطارت بعثة خاصة من القاهرة الى العاصمة الجزائرية برياسة المشير عبد الحكيم عامر ، ومعه محمد حسنين هيكل بحجة الاطمئنان على سلامة أحمد بن بللا .

وفترت العلاقات بين مصر والجزائر فتورا واضـــحا ، ومكشوفا أمام الشعب المصرى والشعب الجزائرى .

الى أن اندلعت الحرب ضد اسرائيل ، فتحملت الجزائر مسئولياتها العربية ، وبادرت برد جميل مصر ، وساندتهـــا عسكريا وماديا ومعنويا بكافة امكانياتها وعلى حســــــاب خطط تنميتها .

وكما أسأنا الى المغرب والسعودية والجزائر ، أســـأنا أيضا الى الاردن .

جاء وقت توهمنا فيه أننا رسل تحقيق العدالة الاجتماعية ليس فقط فى منطقة الشرق الاوسط وانمـــا نتجاوزها شرقا وغربا وجنوبا وشمالا .

وتسلطت عليها فكرة تنادى بضرورة قلب نظام الحكم فى جميع الدول العربية والافريقية التى لا تتفق معها ، سياسيا ، وعقائديا ، ومذهبيا .

وأعلناها حربا لا هوادة فيها على الملكية المتعفنة فى بعض الدول الشقيقة .

وكانت المملكة الاردنية الهاشمية ، من أولى تلك الدول التى لم تسلم منا .

وكان الملك حسين ، هدفا ظاهرا ، لحملات تشهير لا قبل له بها .

ورد الملك حسين على الهجوم بهجوم مضاد . وانشغلت الدولتان فى أشعال نيران الكراهية المتبادلة ، وتوسيع هوة الخلاف ، والصراع ، بين البلدين .

وتعرض الحسين لسلسلة من المؤامرات للقضاء على نظامه ، أو على حياته .

وأفلت الحسين مرات عديدة من الموت .

وظلت أجهزة الاعلام المصرية ، المكممة ، تزف لنا يوميا بعد يوم اقتراب يوم الخلاص من الملك حسين ، نتيجة لانقلاب يشترك فيه الشعب الاردنى مع الجيش للاطاحة بالنظام الملكى الهاشمى ، واعلان النظام الجمهورى مكانه .

ومن اجل تحقيق هذا الهدف ، تحالفنا مع زيد وعبيد من أعداء الملك حسين . وتعاملنا مع هذا الزيد وذاك العبيد ، بمنتهى السخاء ، من اجل الصرف على مؤامرات لم تنجح أبدا .

وظل الملك حسين ، ملكا على الاردن .

وبقى النظام الملكى ، قويا وراسخا ، لم يتزعزع حتى الان .

وقبيل حرب ٥ يونية ١٩٦٧ ، وصل الملك حسين الى

القاهرة ، وتمت تصفية الخلافات بين القاهـــرة وعمـــان ، من أجل المعركة المشتركة .

وبعد الهزيمة ، استمرت فترة المهادنة بعض الوقت ، وان تخللتها بعض الخلافات المغلفة بنـــوع من السرية شـــبه المعلنة .

ثم تلاشت هذه الخلافات تماما بين القاهرة وعمان ، قبيل وبعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، على أساس حـــق كل دولة فى تصريف أمورها الداخلية . لا شأن لنا بما يجرى داخـــل الاردن ، ولا شأن للاردن بما نفعله داخل مصر . أما القضـــايا العامة ، القضايا المصيرية ، والقضايا العربية القـــومية ، فالتشاور فيها متبادل ومتفق عليه من كلتا العاصمتين .

وكما أسأنا الى المغرب والسعودية والجـــزائر والاردن ، أسأنا أيضا الى العراق .

نشبت بيننا وبين العراق سلسلة من الحروب المستمرة ، والمتقطعة ، ومنذ سنوات الثورة الاولى .

وجاء وقت تخيلنا فيه أن الهدف الاول والاعظم للحكومة المصرية ، هو قلب النظام الملكى فى العراق ، واعلان الجمهورية مكانه . كل المشروعات الحيوية التى تهم الشـــعب المصرى جمدت وتوارت فى صفحات الصحف الداخلية ، لتفسح المجال فى الصـــفحات الاولى لنشر فضائح النظام الملكى العراقى ، وخيانات نورى السعيد العميل وحلفه المشبوه .

وعندما سقطت الملكية فى العـــراق ، وأعلنت الجمهورية مكانها ، استمرت الحفاوة المصرية بها لفترة قصيرة ، ثـــم فجأة أعلنت الحرب الاعلامية بين القاهرة وبين بغداد ... وعدنا من جديد نوجه طاقاتنا وأموالنا ومشاعرنا كلها من أجل الاطاحة بحكم « المجنون » عبد الكريم قاسم ، كما وصفناه ، وجندت أجهزة أعلامنا الصحفية والاذاعية من أجل تشويه النظام العراقى ، والعمل على اسقاطه بـــأى ثمن ، وبكل الطرق المشروعة والغير مشروعة .

ومرت سنوات ، سقط بعدها عبد الكريم قاسم . وجاء بعده عبد السلام عارف ، وهللنا للعهد الجديد الى درجة الثمالة .

وعشنا فترة سلام ووئام مع العراق . ولكنها للاسف كانت قصيرة ، في عمر الزهور .

فقد مات عبد السلام عارف .. فجأة .

وتولى شقيقه عبد الرحمن عارف الحكم من بعده .. ولكنه لم يكن هو الذى يملك السلطة كلها في يده .. ولذلك كان حماسنا أقل ، وتأييدنا محدودا .

ولم يعمر عبد الرحمن عارف طويلا .

وتولى حزب البحث الحكم في العراق بقبضة قوية ، وبأهداف مبعثرة هنا وهناك ، فتهاوت فترة السلام والوئام بين القاهرة وبغداد بسرعة البرق ، وعدنا الى الصراعات ، والمؤامرات ، والتوجس المستمر ، وأزمة الثقة المتبادلة .

وتوقف الصراع لفترة في أعقاب حرب ٥ يونية ٦٧ ، ليعود أشد وأقسى فيما بعد .

ثم يهدأ قبيل وأثناء وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

واستمر الهدوء في العلاقات المصرية العراقية حتى يومنا هذا .. وهناك محاولات أكيدة تبذل من الجانبين من أجل تحسين وتوطيد العلاقات بين البلدين على أساس متين من الاحترام المتبادل والأهداف المشتركة .

ولعب الرئيس أنور السادات دورا في تخفيف حدة الصراع بين العراق والكويت ، وفي التوصل الى أرضية قوية للتفاهم بين بغداد وطهران .

ونشهد الان مرحلة تعاون شعبى بين مصر والعراق ، من معالمه هذه الالوف من الخبراء والفنيين والعمال والفلاحين

المصريين الذين ذهبوا الى العراق للمشاركة فى نهضته وتنميته اقتصاديا وعلميا وزراعيا . وكان هذا النوع من التعاون الشعبى قد توقف طوال السنوات الطويلة الماضية ، عندما اتهم العراق مصر بأنها ترسل بعض عيون أجهزتها بين الخبراء والمدرسين ، من أجل تزكية روح الانشقاق بين صفوف الشعب العراقى والعمل على اثارة الفتن والتمهيد للانقلابات .

وقائمة الدول التى أسأنا اليها لاتنتهى بالعراق .. فهناك تونس التى سخرنا من رئيسها الحبيب بورقيبة واتهمناه بأشياء كثيرة نخجل من ذكرها الآن .

وهناك لبنان التى أوشكنا أن نتدخل عسكريا ، لنزيد من تدهور فتنته الاهلية أيام كميل شمعون .

وهناك سوريا التى جاءت حركة الانفصال ، وانهيار الوحدة بينها وبين مصر ، بمثابة لطمة لسياسة عربية مرسومة وبنى عليها قادة القاهرة أجمل الاحلام وأروع الامال ... وقد تبلور هذا السخط الى كراهية ، والى عناد ، والى حرقة ، استمرت لسنوات طويلة ، ولم تهدأ الا قبيل حرب ٥ يونية سنة ١٩٦٧ .

حتى السودان ، البلد الشقيق ، والامتداد الوحدوى الحقيقى لشعب وادى النيل ، لم يسلم شعبه — من خلال حكومته — من الاساءة . واضطر الشعبان — لاول مرة فى تاريخهما — الى مواجهة مرحلة من العداء ، والقطيعة ، أوشكت فى بعض فتراتها أن تنقلب الى تهديدات .

واذا كانت الدول العربية لم تسلم من آثار العناد المصرى والتدخل المستمر فى أدق شئونها الداخلية ، فان الدول الغير عربية لاقت ما هو أشد من العناد .

وأبرز مثال لهذه الدول : ايران .

لقد جاء وقت كنا نشعر فيه بأن قوتنا الذاتية قادرة ، ليس فقط على بسط نفوذها على المنطقة العربية وحدها ، وانما يمكنها أيضا أن تلتهم ماحولها . وكانت الامبراطورية الايرانية من أولى تلك الدول المحيطة بالمنطقة العربية .

واعلنا على نظام الحكم الايرانى حربا لا رجعة فيها .

مسحت صحفنا الارض بالشاه وبأفراد أسرته فردا فردا .

وجهنا اذاعة خاصة لنتيح للشعب الايرانى فرصة سماع أقسى ما يمكن سماعه من الشتائم والتهم الموجهة الى نظام الحكم فى بلاده .

وجاء رد الفعل الايرانى ، بنفس العنف ، وبنفس الشدة .

واستمع الشعب المصرى الى اذاعة ناطقة باللغة العربية وصادرة من ايران ، عبارة عن شتائم واتهامات لا حصر لهـــا وتمس قادة مصر وحكومتها ونظامها السياسى والادارى .

واستمرت الاتهامات والحملات الاعلامية ، لدرجة أوشكنا ـــ الشعب المصرى والشعب الايرانى معا ـــ على الاعتقاد بأن الشغل الشاغل لمصر ـــ وقتذاك ـــ هو الاطاحة بالشاه وبنظامه الملكى ، وأن شاه ايران لا يفكر ـــ حينذاك ـــ الا فى كيفية الاطاحة بعبد الناصر وبثورته وبنظامه .

ولم ينجح هذا ولا ذاك فى تحقيق ما تصورناه هدفا لهما .

وبعد حرب ١٩٦٧ ، توقفت الحملات بين القاهرة وطهران واعيدت العلاقات الدبلوماسية مرة أخرى ، وفى عهد الرئيس الراحل جمال عبد ا لناصر .

ولكنها ظلت مجرد علاقات روتينية بحتة .. فأزمة الثقة

مازالت قائمة . وخلاف سنوات طويلة ، لايمكن أن يصـــفى فى أيام أو فى أسابيع قليلة .

وعندما تولى حكم مصر ، الرئيس أنور السادات ، بـــدأ صفحة جديدة فى العلاقات المصرية الايرانية .. فقد قـــــدر السادات مدى ما يحصل عليه العرب ، من وراء كســــب الامبراطورية الايرانية الى جانب القضية العربية . فقد كانت ايران ـــ نكاية فى العرب بصفة عامة ، ومصر بصفة خاصة قد وطدت علاقاتها مع اسرائيل بشكل واضح وخطـــير ..

وايران من اولى دول العالم انتاجا للبترول .. ولها قوة عالمية لا يمكن الاستهانة بها .

وعندما مدت القاهرة يد الصـــــداقة والتفاهم ، أسرعت طهران فى مصافحتها والشد عليها . ولا ينسى العرب الموقف الذى وقفه الشاه اثناء وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

ولاتنسيمصر المســـاعدات التى قدمتها ايران للشـــعب المصرى ، فى حدود مبلغ الالف مليون دولار .

ولم تتحسن العلاقات بين القاهرة وطهران فحسب ، وانما تحسنت أيضا بالنسبة لطهران وبغداد ، وهو ما كان أصعب من الامساك بالنجوم فى السماء .. فى وقت من الاوقات .

وانتهت بذلك فترة ، لا أعادها الله مرة أخــرى ، ساءت خلالها علاقاتنا مع جميع الشعوب والحكومات العربية .

ونحمد الله ان هذه الفترة قد انتهت الان ، بعد أن تحسنت علاقاتنا مع الجميع ، وعادللمنطقة العربية سلامها وتفاهمها . وقد تحقق هذا بمجرد أن عدنا الى حجمنا الطبيعى ، وبعد أن اقتصرت أحلامنا على تحقيق رفاهية شعبنا وتنميته وتحرير أرضه من المستعمر الاسرائيلى .

● أحدهم .. يكرر نفس الأخطاء ●

دليل سذاجة العقيد معمر القذافى ، أنه يكرر نفس الاخطاء التى ارتكبتها القيادة المصرية خلال السنوات البعيدة الماضية .

فقد تصور العقيد الليبى أن أقصر طـــريق لمبايعته خليفة للزعيم الراحل جمـــال عبد الناصر هو أن يتصرف كما كان يتصرف الرئيس المصرى السابق ، وأن يردد نفس خطبـــه ، ويرفع نفس شعاراته ، ويكرر نفس مخططاته . حتى ولو كانت التجربة قد أثبتت فشل بعض هذا كله .

وكان من الممكن للزعيم الليبى أن يختار ، وأن يتعلم من تجارب غيره . فيكرر ما نجح منها ويبتعد عن تلك التى فشلت .

ولكن العقيد القذافى ، لا يحسن أبدا الاختيار .

ولا يريد أبدا أن يتعلم ، من تجارب غيره .

انه يظن نفسه ، فلتة من فلتات الطبيعة ! وموهبة الهية لا تتكرر ! واذا كان غيره فشل فى أن يحقق أحلامه وأطماعه فانه — أى القذافى — لا يمكن أن يفشل .

المهم .

لقد تقمص القذافى شخصية الراحل جمال عبد الناصر بسلبياتها وايجابياتها .

ولكن هذا التقمص كان ناقصا .. وساذجا .

تصور العقيد أن جمال عبد الناصر قد احتل قلوب الملايين لا لشىء الا لانه اختلف مع الملوك والرؤساء العرب ، فى فترات مختلفة من حكمه .

لقد اختلف — حقيقة — جمال عبد الناصر مع بعض الحكام ولاسباب كثيرة معروفة وغير معروفة . اختلف مع الرئيس التونسى الحبيب بورقيبة . وطلب من أجهزة الاعلام المصرية أن تشتم الرئيس التونسى كما يحلو لها . وبالفعل أظهرت الصحف المصرية بورقيبة ، فى صورة كاريكاتورية غير صادقة وتعتبر نقطة سوداء فى تاريخ الصحافة المصرية المكممة وقتذاك .

واختلف مع الملك المغربى الحسن الثانى .. وتراشقت القاهرة والرباط سهام البغض والكراهية ، لفترة طويلة .

وقاطع الرئيس اللبنانى كميل شمعون .

وسخر من الفيلسوف ميشيل عفلق وجماعته .

ودخلت القاهرة فى حرب اعلامية قاسية ، لاهوادة فيها ،

ضد الشاهنشاه محمد رضا بهلــــوى ، امبراطور ايران ، استمرت سنوات وسنوات .

ولا زلنا نذكر كيف كانت القطيعة بين مصر والمملكة العربية السعودية .. وكيف تطورت هذه القطيعة ، الى شـــتائم . وقذائف لغوية نشرتها الصحف ، وأذاعتها الاذاعات المتبادلة بين القاهرة والرياض .

وخضنا جولة مريرة مع عمان ، وضد الملك حسين ! وفترت العلاقات مع اللواء السودانى ابراهيم عبود ، ومع من جاء قبله ، وبعده .

وشهدنا ملحمة من سلسلة المآسى مع الحكام العراقيين ابتداء من نورى السعيد ، ومرورا على عبد الكريم قاســـم ، وانتهاء بأحمد حسن البكر !

وخضنا حربا طاحنة ، بالدماء ، والدمار ، ضد الامــــام اليمنى البدر !

وتوترت العلاقات مع الرئيس الجزائرى بومدين ، بعـــد اقصاء احمد بن بللا !

وقد انتهت هذه المرحلة الان ، والحمد لله .

وأصبحت للقاهرة سياسة عربية محددة ، وواضـــحة ، وناجحة . فهى صديقة لكل العرب . تعايش جميع الانظمة . لاتفرق بين هذه الدولة وتلك . ولاتمسك بفرشاة تلون بها وجه الملوك والرؤساء العرب ، فنقول هــذا «أحمر» ، وذلك «أصفر» ، أو نتهم من يختلف معنا بالعمالة ، ومن يمشى فى ركابنا بالثورية !

وقد نجحت هذه السياسة نجاحا كبيرا . بدليل التضــــامن العربى الذى تحقق قبل وأثناء وبعد حــــرب ١٠ رمضـــان المباركة .

وكان يمكن للزعيم الليبى ان يطبق نفس السياسة .. وأن يعيش ويترك غيره يعيش هو الاخر . ولكن العقيد الليبى

صمم على ان يكرر أخطاء القاهرة السابقة .

وكانت النتيجة مؤسفة ، للشعب الليبى ، ومخجلة لزعيمه الاوحد .

شتم الحسن . ولعن الحسين . وتطاول على بورقيبة وسخر من بومدين . واساء للسادات . وتوعد نميرى . وأهان فيصل . وهدد قابوس . وتربص بالبكر . وذم شيوخ الخليج .. وتحدى شاه ايران .

ورغم هذا لم يقتحم القذافى قلوب الملايين .

ولم تهلل له الجماهير العربية ، كما تمنى وانتظر .

واعتقد القذافى ان جمال عبد الناصر قد اشتهر عالميا ، لا لشىء الا لانه أيد جميع ثورات الشعوب ضد الاستعمار ، والرجعية ، فى مشارق الارض ومغاربها .

ووجدنا العقيد القذافى يطلق لعقيرته العنان تأييدا لكل حركة تمرد ، ولكل ثورة شعبية ، ولكل حركة عسكرية ، ولكل تحرك ارهابى ، فى أى مكان فوق سطح الكرة الارضية .

ورأينا خزانة الشعب الليبى ، تفتح ليتدفق مابداخلها على أوربا ، وافريقيا ، وآسيا ، وأمريكا الشمالية والجنوبية ، واستراليا .

ملايين الدينارات الليبية حصل عليها زعماء حركة التمرد فى ايرلندا .

ومئات الملايين من الدينارات الليبية صرفت من أجل تزكية حركة التمرد داخل السودان وبذر بذور الشقاق بين شماله وجنوبه .

وملايين أخرى عديدة صرفت من أجل زيادة الصراع بين الصومال والحبشة .

وثروة طائلة صرفتها الحكومة الليبية من أجل الاطاحةبحكم رئيس جمهورية الفلبين فرديناند ماركوس !

وقامت الحكومة القذافية بتمويل حـــركة جماعة الفهود السوداء فى الولايات المتحدة الامريكية .. وحركة تحـــرير نيوزلندا .. كما تدفقت أموال الشعب الليبى المسكين ، على سويسرا لمساعدة سكان منطقة « جورا » فى نيل انفصالهم عن مقاطعة برن !

ومرة أخرى لم تتحقق أطماع العقيد القذافى .. وضاعت على الشعب الليبى آلاف الملايين هباءا .

ورغم ذلك لم يتعلم القذافى .. ولم يتعظ من فشل غـــيره الذى سبقه فى هذه السياسة وفوجئنا بالعقيد القذافى يتصور أن مجد عبدالناصر ، لم يتحقق الا لانه قاد جيش مصر ليحارب به أكثر من مرة خلال فترة حكمه الطويلة .

فقد حارب عبد الناصر ، فرنسا وبريطانيا واسرائيل فى سنة ١٩٥٦ . وهزم الجيش المصرى هزيمـــة نجحت أجهزة الاعلام وقتذاك فى قلبها الى نصر مبين .

ثم حارب اليمن والسعودية فى ١٩٦٣ ولم تتوقف هذهالحرب الا فى أعقاب حرب يونية ١٩٦٧ .

ثم حارب اسرائيل مرة اخـــرى فى يونية ١٩٦٧ ، وكانت هزيمة طاحنة وكاسحة ومخجلة لكل مصرى ولكل عربى .

وكانت هذه الحروب كلها ، وبالا ووباء وخـرابا على مصر وعلى شعبها الذى لا يزال يعانى من ويلاتها وأهوالها وآثارها حتى الان .

ولكن العقيد معمر القـذافى ، اعتبر اعلان الحروب مسألة حياة أو موت بالنسبة للمجد الشخصى الذى يحلم به .

وسمعنا كيف استعد الجيش الليبى لغـــزو المغرب ، والاطاحة برأس الملك الحسن الثانى !

وقرأنا عن مخطط القذافى السرى لضم تونس الى الجمهورية العربية القذافية !

وشاهدنا المسيرة الغوغائية التى نظمها العقيد القذافى لاقتحام القاهرة ، وحرق شارع الهرم بسكانه وبدور اللهو على جانبيه ، وفتح الطريق حتى قصر عابدين ، واعداده لاستقبال موكب البطل المغوار سيادة العقيد القذافى !

وتصورنا حملة الارهاب التى رسمها القذافى ـ فوق الورق ـ لاحتلال السودان وتأديب وتهذيب الرئيس جعفر نميرى ،لانه تجرأ وطلب تأجيل الوحدة الشاملة مع ليبيا !

وأذاع راديو ليبيا نص الانذار التاريخى الذى أصدره القذافى والموجه للشاه ، ليجبره على سحب القوات الايرانية التى زعم الشاه أرسلها لصد المتسللين عبر حدود سلطنة عمان !

وتكشفت المؤامرة العسكرية التى رسمها خيال القذافى للاطاحة برأس السلطان قابوس !

وتسربت الى الصحف ووكالات الانباء بعض المعلومات عن الخطة الجهنمية التى أعدها العقيد القذافى لاغتيال الملك حسين أثناء وقوفه تحت الدش فى الصباح الباكر !

ونشرت بعض الصحف تفاصيل الضربة الجوية التى أعدها القذافى لنسف قصر الملك الراحل فيصل فى الرياض ،وتدمير حقول البترول فى السعودية ! ومن أجل هذه الحروب بسط القذافى يد الشعب الليبى كل البسط · وأخذ من مال الشعب ـ وكأنه يأخذ من المال الذى ورثه عن ابيه ـ ليشترى الاسلحة من الشرق ومن الغرب ·

وجاء سماسرة السلاح الى طرابلس ليعرضوا على القذافى كتالوجات الاسلحة التى يعلنون عنها ويمثلون مصانع انتاجها ·

واشترى القذافى ـ بأموال الشعب الليبى ـ أسلحة من فرنسا،وبريطانيا ، والسويد ، ورومانيا · وتشيكوسلوفاكيا · وايطاليا · والاتحاد السوفييتى · وغيرها ·

ونشرت صحيفة لوموند ــ الفرنسية ــ ان معمر القــذافى يحاول ان يجعل من ليبيا ترسانة أسلحة متخمة ٠

وذكر محمد حسنين هيكل ــ فى كتابه الاخير الطريق الى رمضـــان ــ أن القـــذافى حاول أن يشـــترى قنبلة ذرية من الصين الشعبية ٠ فقد تصور العقيـد الساذج ان القنابل الذرية يمكن أن تشترى مثل أية سلعـة أخرى ٠ وهـو يريد ــ لسذاجته ــ أن يصبح عضوا فى النادى الذرى العالمى الذى يضم أمريكا وروسيا وفرنسا والصين الشعبية والهند ٠

٠٠ ومرة ثالثة فشل العقيد القذافى فى أن يحقق ــ بحروبه

الخيالية ومؤامراته الفاشلة ــ المجد الذى تصــور ان غيره قـد حققه بها ٠

وحاول القذافى أن يجرب وسيلة أخرى ٠

تصور أن انتشار المذهب الناصرى فى بعض المناطق العربية، لم يتحقق الا بفضل محطة اذاعة قوية ، تبث ارسالها ليـــل نهار ، كما فعلت اذاعة «صوت العرب» المصرية فى ســنوات الثورة الاولى ٠

فلا أحدينسى الدور الذى قامت به اذاعـة صوت العــرب ــ وبالذات صوت مديرها ومذيعها الاول أحمد سعيد ــ فى تأييد ثورة الجزائر وفى انتفاضة شعوب المنطقة وانتزاعها من سباتها العميق ٠ كان صوت أحمد سعيد ، القوى ، العنيف ، والمميز ٠ يهز الاعرابى البسيط والأمى ، القابع داخل خيمتـه وسـط الرمال ، والقابض فى يده على جهاز الترانزستور الصغير فوق أذنه ٠

ولكننا أيضا لاننسى الاخطاء الذى وقع فيها صوت العرب ٠

لقد استخدمت هذه الاذاعة فى زيادة حدة الخلاف بين القاهرة، وبين شعوب وحكومات الدول العربية التى اختلفنا معها لسبب أو لآخر ٠

لقد استخدمنا ــ فى بعض الاحيان ــ عبارات غـير لائقة ٠

وألفاظ غير مؤدبة • وتشبيهات غير مناسبة • وتطاولنا على بعض الملوك • وسخرنا من بعض الرؤساء • وبالغنا فى السلبيات وتجاهلنا الايجابيات ••

بعض الاكاذيب ، حولناها الى حقائق !

ومعظم الحقائق ، صورناها كأكاذيب !

وفشلت سياسة صوت العرب السابقة بدليل أن جمال عبد الناصر هو نفسه الذى أبعد عنها أحمد سعيد رغم النجاح الكبير الذى بدأ به ارساله •

ولم يتعلم العقيد القذافى من تجربة صوت العرب ••

أراد أن يكررها • ليس هذا فقط ، بل انه جاء باذاعة بلغت مرتبة من «القذارة» لم تبلغها أية اذاعة أخرى فى الشرق والغرب •

فصوت العرب ، كان يحترم — دائما — الفن الاذاعى •وكان يحافظ على أخلاقيات الارسال الاذاعى • وحتى فى هجومه على بعض الحكام ، كان معتدلا بعض الشىء ، ولم يصل أبدا الى مستوى اذاعة «نص الليل» الليبية •

لقد تصور العقيد القذافى ان حناجر المرتزقة الذين يوجهون برامج اذاعة «نص الليل» ، سوف تحقق له ماتمناه ومانتظره من أمجاد ، وشهرة ، وانتشار •

ولكن هذه الأوهام كلها لم تتحقق •

•• ونداءات التحريض وصيحات التآمر ، التى يطلقها مرتزقة القذافى عبر الأثير ، لم تنجح حتى الآن فى قلب نظام الحكم فى بلد عربى ، أو آسيوى ، أو افريقى •

ولا يزال ملوك ورؤساء الدول العربية فى مكاتبهم ، وبين شعوبهم •

•• فلا رقابهم ، طارت •

٠٠ ولا عهودهم ، زالت ٠

٠٠ ولا شعوبهم ، ثارت ٠

وفى رأيي أن هذا الفشل المتكرر الذى أطار البقية الباقية من صواب واتزان العقيد القذافى ، يتحمل البعض مسئوليته، ونتائجه ٠

فالقذافى ، ليس حقيقة مسئولا عن تصرفاته الطائشة ،ولا عن ألفاظه السوقية البذيئة ٠

المسئولون عن ذلك هم هؤلاء الذين أرادوا أن يخلقوا من الفسيخ شربات ٠ وأن يشكلوا من الطين الهش تمثالا صلبا ٠ هؤلاء الذين صوروا لنا الشاب الساذج ، المريض عقليا ، والعاجز جسمانيا ، والجاهل ثقافيا وسياسيا ، فى صورة الطفل المعجزة الذى سيحقق للامة العربية ماعجز جمال عبد الناصر عن تحقيقه فى حياته الحافلة ٠

ان هؤلاء — ومنهم الكاتب الكبير ، والسياسى العظيم ، والفيلسوف الحكيم — يتحملون مسئولية افساد هذا الساذج معمر القذافى ، واللعب بعواطفه كما شاء لهم اللعب ٠

وقد رجعت — أخيرا — الى الصحف والمجلات التى صدرت فى السنوات القليلة التى أعقبت قيام ثورة ليبيا ، وراجعت ماكتب فيها عن القذافى ، فهالنى — حقيقة — ماقرأت ٠ كاتب كبير أكد أن الرئيس السابق جمال عبد الناصر ، أعلن أكثر من مرة ، انه يرى شبابه ، فى كل مرة يرى فيها أمامه شخص معمر القذافى !

ونفس هذا الكاتب الكبير ، خصص مقاله الاسبوعى الطويل، فى الصحيفة التى كان يرأس تحريرها ، ليبرر حبه وتأييده لثورة ليبيا ، بصفة عامة ، وللشخصية القذافية بصفة خاصة ٠ ووصف الكاتب معمر القذافى بأنه « ضمير الامة العربية » !

وقد أثار هذا التأييد غضب أحد الرؤساء العرب — أعتقد أنه الرئيس السودانى جعفر نميرى — فقال للكاتب المصرى الكبير أمام الرئيس الراحل عبد الناصر ، وبالحرف الواحد :

ـ «أنت لاتعترف بحدث أو بأحـد ، بعد سـنة ١٩٧ ، الا بثورة ليبيا ومعمر القذافى !»

.. وكلام كثير آخر كتبه هذا الكاتب الكبير ، وكتبه غيره من كبار كتاب العرب فى القاهرة وبيروت وطرابلس وبنغازى، مما أفقد الشاب الساذج حساسية المسئولية الـكبيرة الملقاة فوق كتفيه .

.. وسرعان ماظهر نتيجة الخلـل وفقدان التوازن العقـلى والسياسى .

الفارغ الذى نطق به معمر القذافى ، حولوه الى نظرية ثالثة عالمية ، تقضى على النظرية الرأسمالية ، وتمحـو النظرية الشيوعية .

والجهل الذى غرق فيه ، أصبح بفضل ألسنتهم وأقلامها ، علما وثقافة وحكمة وفلسفة . مال الشعب المسكين ، تدفق كالسيل على السماسرة ،ومساحى الجوخ ، وعباقرة بيع الكلام . اشترى أقلاما حاقدة ، وعميلة ، من مصر . وصحفا مأجورة فى بيروت . وجيوبا خاوية فى اوربا وأمريكا اللاتينية .

صفحات كثيرة سبحت بحمده وتغنت بكرمه . وكتب قليلة صدرت عن نظريته وحكمته وفلسفتـه . وخزائن حـكومية مفلسة امتلأت من مال شعبه . ومنظمات ارهابية أجنبية خدعته وتوجته زعيما روحيا لها ، لتسحب من مال ليبيا ماتضمن به مستقبلها ومستقبل أجيالها من بعدها .

وصدق الساذج انه خليفة النبى محمـد فى نشر الدعوة . وبديل جمال عبد الناصر فوق سطح الكرة الارضية .

وحاول أن يتصرف كأحد العمالقة ، ولكنه ظل قزما بـين الأقـزام .

وأصبح أضحوكة فى كل مكان تتردد فيه سيرته ،او تظهر فيه صورته .

وتحول الى مادة خصبة لكل كاتب أجنبى ، يريد أن يسخر

من العقلية العربية ، وأن يبرهن على سذاجة الحكام العرب وأن يثبت تأخر وانحطاط الفكر السياسى والثقافى العربى .

وأصبح القذافى سلاحا فى يد جماعة ، لتضرب به الجماعة الاخرى . فالرأسماليون يستغلونه لاظهار كيف يمكن للافكار الاشتراكية أن تفسد عقل المواطن فى المجتمعات النامية والمتأخرة ، والشيوعيون يتخذون من القذافى المثل الحى لانحطاط الفكر الثقافى والتدهور الخلقى والتخلف الاجتماعى . وباقى الامراض المزمنة والمنتشرة فى المجتمعات الرأسمالية والرجعية المتعفنة .

.. كل هذا والطفل المعجزة فى شغل شاغل عما يقال عنه فى كل مكان .

انه أطرش لايسمع الا مايقوله له أهل النفاق .

وأعمى لايرى الا مايعرضه عليه عباقرة التزوير وأساتذة التزييف ..

.. فرفقا بالعقيد معمر القذافى .

وحاسبوا ـ الأحياء والأموات ـ الذين ضحكوا عليه وباعوا له أهرامات الجيزة !

ان القانون وان كان لايحمى المغفلين ،فانه ـ فى نفس الوقت ـ لايرحم النصابين !

وآه ...
من أهل الثقة

- دبلوماسية للارهاب والتهريب
- السياسة علم وفن وذوق .
- وانتشر الجهل فى كل مكان

● دبلوماسـية للارهاب والتهريب ●

نحن لاننكر أن وزارة الخارجية المصرية قد أدت خدمات سياسية ناجحة خلال العشرين سـنة الماضية وسط ظروف عالمية صعبة معقدة تحيط بنـا .

ولـكن .

وزارة الخارجية كبقية الوزارات تعرضت خـلال السنوات السابقة لسيطرة واستغلال مراكز القوى ، حتى تناثرت الأقاويل حـول كثيرين ممن تولوا مراكزها الحساسة ، وحتى كـان يقال أن التعيـين فى وزارة الخارجية أما أن يكون مجرد منحة تعطى لصـديق من الاصـدقاء ، أو عقابا لشخصية يراد ابعادها خـارج مصر ، أو قد يعين سفير لمجرد أن يسافر الى الخارج لعلاج نفسه أو أحد أفراد أسرته .

كما طبق على وزارة الخارجية أيضا شعار « أهل الثقة قبل أهل الخبرة » ، فشغلت معظم التعينات أهل الثقة رغم عدم خبرتهم ، وعـدم صلاحيتهم لحمل المسئولية الدبلومـاسـية .

***

اختلفت مقاييس الرجل الدبلوماسى فى مصر عنها فى باقى دول العالم المتمدين .

فالدبلوماسى التقليدى هو الرجل الذى يمثل بلاده . يمثـل أفضل ما لديها من عقل ، وشكل ، ولسـان .

والذى ينظر الى تاريخ الدبلوماسـية المصرية قبـل الستينات ، يجد أمامه صورة مشرفة . يجد وزارة محافظة على تقاليدها ، ويجد دبلوماسـيين أكفاء أحسن اختيارهم وتدريبهم واعدادهم . كان العمل الدبلوماسى فى الماضى هواية أكثر منه حرفة . وكان الدبلوماسى الهـاوى يصرف على

مظهره وعلى تمثيل بلاده فى الخارج ، أكثر مما يكسبه من هذه الوظيفة .

وكان معظم الدبلوماسيين ممن تعلموا فى أحسن المدارس والجامعات ، ويتحدثون بأكثر من لغة أجنبية ، ويمكنهم أن يعيشوا ويتعايشوا مع شعوب العالم الآخر . وان كانت هناك قلة من المحاسيب والاقارب فرضت على السلك الدبلوماسى قبل سنة ١٩٥٢ .

وفجأة تغيرت هذه المفاهيم والمقاييس المتوارثة جيلا بعد جيل .

وظهرت مفاهيم ومقاييس جديدة للعمل الدبلوماسى ، وللعمل داخل وزارة الخارجية المصرية .

بداية هذه المرحلة الانكسارية — كما أسماها البعض — مع نهاية الخمسينات .

فى هذا الوقت كانت مصر تعيش فى سنوات سميت « عصر الانتصارات » . وكان هناك من يرى أن على الدولة أن تفعل كل مافى وسعها للمحافظة على تلك « الانتصارات » بحجة أن الاعداء يحيطون بنا من كل جانب ، وأن الرجعية وأعوان الاستعمار واخوان الشيطان يتربصون بهذه الانتصارات ويتمنون أن تنقلب الى سلسلة من الانكسارات .

وارتفعت وقتذاك — ولاول مرة — شعارات تنادى باحلال « أهل الثقة » ، محل « أهل الخبرة » .

وكانت وزارة الخارجية المصرية هى الهدف الاول أمام « أهل الثقة » . تهافتوا عليها . فوظائفها مغرية . ومراكزها مرموقة . ومسئولياتها خطيرة .

ولكل هذه الاسباب وغيرها ، تركزت أنظار أهل الثقة على وزارة الخارجية ووجدوا مبررات كثيرة للاستيلاء على الوزارة ، من بينها :

ان وزارة الخارجية هى الكوبرى الذى يصل القاهرة بباقى عواصم العالم . واذا لم يضمن الحاكم اخلاص وتفانى

رجال هذه الوزارة لشخصه ، فأن من السهل جدا على الرجعية وأعوان الاستعمار وأخوان الشياطين - من أهل الخبرة - أن يسيئوا الى الحاكم ، والى سياسته ، والى البلاد ككل .

ان البلاد تستعد للحرب ضد اسرائيل . وعملاء اسرائيل يركزون نشاطهم حول السفارات المصرية فى الخارج وللايقاع بأى موظف فيها يسهل خداعه أو حتى تجنيده . ومن السهل جدا تفادى هذا الاحتمال الخطير ، اذا اقتصر الامر على ارسال

« أهل الثقة » وحدهم للعمل فى السفارات ، والمكاتب الرسمية فى الخارج .

.. وكانت تلك المبررات - وغيرها - من القوة لدرجة ان نجح أهل الثقة فى الزحف على المراكز الهامة والرئيسية فى وزارة الخارجية المصرية .

ظهر ان هناك تركيزا على منصب «السفير» و«القائم بالاعمال» و «المستشار» فهذه هى المناصب الرئيسية التى أراد أهل الثقة احتكارها لأنفسهم . أما باقى المناصب الاخرى ، فلامانع فى أن يتقاسمها معهم «أهل الخبرة» . فهى مناصب متواضعة . ومسئولياتها محدودة . ولا خطر كبير اذا لم يشغلها أهل الثقة وحدهم .

هكذا بلغ غرور أهل الثقة ، بأنفسهم ، وبقدراتهم .

وأسندت وزارة الخارجية لعدد من الوزراء الاكفاء . ولكنهم فى الحقيقة لم يكونوا يملكون الحل والربط فى وزاراتهم . كانوا واجهة جميلة فقط . مجرد يد تمسك بالقلم وتوقع على مايقدم اليها من أوراق وقرارات .

حركة الترقيات والتعيينات كانت تعد سراً ثم تقدم للوزير المسئول لاعتمادها . ولم يكن الوزير يملك حق الاعتراض ، أو حق ابداء الرأى .

.. وتروى هذه الحكاية :

دق جرس التلفون فى مكتب أحد كبار المسئولين فى وزارة

الخارجية . كان المتحدث « رجل ثقة » من أصحاب مراكز القوى فى الستينات ، ودار هذا الحوار الغريب :

صاحب مركز القوة :

ــ « .. أنقل فلانا من الديوان الى سفارتنا فى موسكو . »

وحاول المسئول الكبير فى الخارجية أن يوضح لصاحب السلطان ان الشخص المذكور لايصلح ، فهو غريب عن الوزارة وقد التحق بها منذ شهر واحد . وكان يعمل من قبل فى وظيفة عسكرية لاشأن لها بالدبلوماسية . ليس هذا فقط بل انه لايعرف من اللغات سوى اللغة العربية وحدها . وسفارة مصر فى موسكو تعتبر ــ فى ذلك الوقت ــ من أولى السفارات ، وأكثرها أهمية وحساسية ، وتحتاج الى موظفين من أهل الخبرة لاأهل الهمبكة .

.. وثار صاحب السطوة والقوة ، وقال :

ــ «لقد أمرتك أن تنقل فلانا من الديوان الى موسكو فورا.»

... وخضع المسئول الكبير الذى لايملك حولا ولا طولا .

وطار صاحبنا الى موسكو .

.. وحكاية أخرى :

كان هناك اصرار من مراكز القوى على الاحتفاظ لاعوانهم بمناصب معينة فى سفارتنا بعاصمة احدى الدول الكبرى . وكانت حركة التنقلات والتعيينات الخاصة بهذه السفارة ــ بالذات ــ تصدر من أحد مكاتب السلطة رأسا ، وترسل الى وزارة الخارجية لمجرد الاعتماد والتنفيذ .

وفى سنة ١٩٧٠ اكتشفت سلطات الأمن المصرية السر وراء اصرار أحد المكاتب المسئولة على ارسال رجالها الى تلك السفارة بالذات . اتضح أن الذهب يباع فى البلد الذى به هذه السفارة . بأسعار خيالية . وأن رجال سفارتنا يهربون الذهب من مصر ويبيعونه هناك ويحققون بذلك ارباحا طائلة .

.. وفى سجلات ادارة مكافحة التهريب بمديرية أمن القاهرة، وبالتعاون من الشرطة العسكرية ، مايثبت القاء القبض على موظف صغير قبل اقلاع طائرته الى عاصمة الدولة التى يمثلنا فيها .. وكان يحمل معه حقيبة بها ٥٠ كيلوجراما من سبائك الذهب عيار ٢٤ .

.. واعترف الموظف الصغير بكل شيء..

.. أنه مجرد «شيال» . مجرد وسيط بين مراكز القوى فى القاهرة التى «تمول» وبين أعوانها فى السفارة التى «توزع». أما هو ، أى الموظف ، فلا يعرف محتويات الحقائب التى تسلم له قبل اقلاع الطائرة بدقائق . ليوصلها بدوره الى رئيسه المباشر فى عاصمة الدولة الشرقية الكبرى .

.. هذا هو عمله الوحيد . وسيط . أبكم . أطرش . وأعمى .

وحكاية ثالثة أكثر اثارة .

منذ سنوات طويلة ماضية ، أصدرت الحكومة قانونا بالغاء العملات الورقية من فئة ٥٠و١٠٠ جنيه . وحددت ١٥ يوما تتلقى خلالها البنوك هذه الفئات من المواطنين وصرفها لهم بفئات أقل . وفجأة صدر قرار لاحق بضغط المهلة الى النصف.

والذى زار السفارات المصرية فى عواصم العالم المختلفة - وقتذاك - فوجيء بغياب ٧٥٪ من العاملين بها . كانوا جميعا فى أجازة عارضة لزيارة الاهل والاحباب فى مصر ..

ونفس سجلات ادارة التهريب ، تحدثنا عن بعض «أهل الثقة» الذين سقطوا فى أيديهم فى مطار القاهرة ، وميناء الاسكندرية وبورسعيد ، وعند حدود ليبيا ، بحقائبهم الممتلئة بآلاف الجنيهات من فئة الـ ٥٠ و ١٠٠ جنيه الملغاة . الورقة المالية الواحدة كانت تباع فى أسواق العالم الخارجى بقروش قليلة . فالبنوك الاجنبية كانت تحتفظ بمبالغ كبيرة من هذه الفئات . وعندما صدر قانون بالغائها ، أسقط فى يد البنوك

العالمية ، ولم تعرف ماذا تفعل بها · فهى لاتستطيع أن تعيدها الى مصر · لان هذه المبالغ لم تخرج من مصر بالطريق القانونى السـليم ·

وكان الحل الوحيد أمام البنوك ، هو أن تتخلص من تلك الاوراق الكبيرة ، لمن يطلبها من المهربين فى الخارج ، بأى مبلغ ·

وقيل أن الورقة المالية فئة ١٠٠ جنيه مصرى ، كانت تباع فى جنيف بخمسة فرنكات سويسرية · أى بخمسين قرشا فقـط ·

ولهذا السبب سال لعاب المصريين ، فى الخارج ، وازدحمت الطائرات والبواخر المتجهة الى مصر ، بحقائبهم المنتفخة بمئات الآلاف من الجنيهات التى حصلوا عليها بتراب الفلوس ·

والمدهش ، ان الاعداد القليلة جدا من «أهـل الثقة» الذين سقطوا فى ايدى رجال مكافحة التهـريب ، سرعان ماتدخلت مراكز القوى وأفرجت عن حقائبهم قبل الافراج عنهم · حتى يمكن الاسراع بتسليم هذه المبالغ الى البنوك قبل انتهاء المهلة القانونية ·

·· وحكاية اخرى لاتقل اثارة عن غيرها :

المعروف ان مراكز القوى الغابرة ، كانت ترسـل أعوانها للعمل داخل كل سفارة ، وكل قنصلية ، وكل مكتب مصرى فى أى بلد فى الشرق او فى الغرب ·

وكان هؤلاء الانصار ، يتميزون عن غيرهم ، ويمكن بسهولة التعرف عليهم وكشفهم ·

فهم يختلفون عن الدبلوماسيين التقليديين ·

ألسنتهم لاتنطق بغير اللغة العربية ·

جميع من فى السفارة ـ ابتـداء من السفير وحتى الخفير ـ يعملون لهم ألف حساب وحساب ·

•• والخوف الذى عاش فيه «أهل الخبرة» بسبب تقارير «أهل الثقة» ، جعل البعض يقدم على تصرفات غير طبيعية •

أحد الدبلوماسيين اضطر الى ترك وظيفته ، وبلده ،وأسرته، وهرب مهاجرا الى استراليا • فقد خاف من بطش مراكز القوى

التى أرسلت فى استدعائه ونقله الى الديوان بالقاهرة ، للتحقيق فيما نسب اليه ـ كذبا ـ فى أحد التقارير •

ودبلوماسى مصرى آخر اضطر الى طلب حق اللجوء السياسى من السفارة الامريكية فى أحدى الدول الآسيوية ، هربا من زبانية أهل الثقة الذين قرروا الايقاع به والقاءه فى السجن بتهمة الخيانة •

ودبلوماسى آخر توالت التقارير ضده ، فأظلمت الدنيا أمامه ، فآثر الهرب ، ولا يعرف مكانه حتى الآن •

والحكايات كثيرة ، والفضائح اكثر •

● السياسة فن وعلم وذوق ●

ـ لماذا أهل الثقة ؟ ولماذا أبعدنا أهل الخبرة ؟

ان المنطق المعقول هو أن نقرب أهل الخبرة ، ونبعد أهل الثقة عن أى مجال يستلزم الخبرة ، والمقدرة على ادارته .

خاصة اذا كان أهل الثقة ، ممن لاثقافة لهم .

ولذلك كان من الغريب جدا ، أن يتدفق أهل الثقة ـ بلا درجة علمية عالية وبلا ثقافة مهنية واضحة ، وبلا استعداد شخصى وطبعى ـ لتولى وظائف دبلوماسية فى وزارة الخارجية المصرية .

ان ماحدث فى وزارة الخارجية المصرية ، طوال السنوات

الطويلة الماضية ، سيظل وصمة عار فى جبين هذه الوزارة ، ولأجيال عديدة قادمة .

فى جميع دول العالم المتمدين — وغير المتمدين أيضا — يختار بعض الشخصيات ممن لعبوا دورا هاما وعظيما فى حياة أمتهم ، ليسند اليهم منصب السفراء فى عواصم العالم المختلفة . وغالبا ما يكون هؤلاء من غير العاملين فى السلك الدبلوماسى . ولكنهم حققوا لبلادهم ولشعوبهم الخير الوفير من خلال المناصب الهامة التى شغلوها ، وبالتالى فان اختيارهم لتمثيل بلادهم فى الخارج ، يكون بمثابة تقدير لهم .

.. وهو ماحدث أخيرا فى مصر ، بعد تطهيرها وتطويرها.

فما أكثر الشخصيات العامة ، الكبيرة واللامعة ، التى لعبت دورا براقا فى تاريخ بلادنا .

ومن بين هؤلاء أرسلنا من يمثلنا أمام شعوب الكثير من دول العالم . ولن يطلق على هؤلاء اسم « أهل الثقة » . لأن مفهوم هذه الثقة يقصد به ثقة مراكز القوى السابقة فى هؤلاء .. لا ثقة الشعب فيهم . أما الشخصيات التى نتحدث عنها الآن ، مثل الوزراء الأكفاء ، وكبار الضباط الذين شاركوا فى تحقيق النصر العسكرى الباهر فى ٦ أكتوبر ، أو عظماء الكتاب والمفكرين والعلماء والأساتذة ، فان تعيينهم فى مراكز دبلوماسية سيزيد من ثقل الوزارة ومن هيبتها واحترامها ، وخاصة ان هذا الاختيار يجب أن يكون فى أضيق الحدود . كما أن الشخص الذى سيرشح لمنصب فى الوزارة يجب أن يكون جديرا به ، بما قدمه من أمجاد فاق رنينها حدود البلاد .

لذلك لايجب أن يعترض البعض على اختيار الفريق أول سعد الدين الشاذلى ، سفيرا لمصر فى لندن . فالعالم كله يعرف من هو الشاذلى . لقد عرفه العالم ملحقا عسكريا فى لندن . وشارك فى النصر الذى حققه جيش مصر فى أكتوبر ١٩٧٣ . واختيار مثل هذا البطل لمنصب دبلوماسى

فى عاصمة دولة كبرى ، هو اختيار موفق ، ولا غبار عليه . ولا يجب أن نربط بين هذا الاختيار وبين ما كان يحدث فى الماضى عندما كانت مراكز القوى الغابرة توزع أعوانها ممن فشلوا فى كل عمل قاموا به ، ماعدا التهليل والتمجيد والاخلاص والوفاء لقادتهم — على سفاراتنا فى عواصم العالم المختلفة . هؤلاء كانوا عارا على وزارة الخارجية المصرية . وعار على مصر .

ولن نتخلص من هذا العار ، الا عندما تتطهر الخارجية من هؤلاء . والتطهير المنتظر يجب أن يبدأ من القاعدة . باعتبار أن القمة تتضاءل يوما بعد يوم . بخروج المتربعين فوقها بأحالتهم على المعاش . أما القاعدة العريضة فهى التى تزدحم بالعناصر الشابة التى تبدأ صعود القمة من بدايتها . ولذلك يجب أن يبدأ العلاج من القاعدة .

.. بمعنى :

ألا يكتفى بامتحان المسابقة التقليدى الذى يلتحق به من ينجح فيه ، بوزارة الخارجية . فهذا الامتحان ليس دليلا على أهلية الطالب للعمل فى السلك الدبلوماسى . والاقتراح الغالب الآن للتحقق من العناصر الصالحة لهذا العمل الحساس ، هو الأخذ بأسلوب التدريب الذى يطبق فى دول عديدة ، وأهمها بريطانيا .. سيدة الدبلوماسية فى العالم القديم والحديث .

موظف الخارجية الجديد ، فى بريطانيا ، لايتسلم عمله فى احدى السفارات الا اذا أثبت مقدرته فى تقبل العمل الدبلوماسى . وهذه المقدرة لا يترك تقديرها لمزاج رئيسه المباشر ، وانما تأتى نتيجة للاختبارات العديدة التى اجتازها خلال الأشهر الطويلة التى أمضاها فى دراسة فنون الدبلوماسية وأساليبها .

.. هناك فى بريطانيا مدرسة لتعليم صغار الموظفين كيفية العمل فى السلك القنصلى والسياسى .

.. وحتى لا أنسى أبادر فأقول ان لدينا هنا فى القاهرة مايطلق عليه اسم « معهد التدريب الدبلوماسي » ، والهدف من المعهدين واحد .. ولكن شتان مابين نتيجة هذا وذاك .

المعهد البريطانى لا يمكن أن تتصوره كمدرسة يجلس فيها التلاميذ يستمعون الى مايقوله لهم المدرس الواقف أمامهم بجانب السبورة . أنه معهد من طراز خاص . فهو عبارة عن عدد من السفارات والقنصليات والمكاتب الدبلوماسية النموذجية .

المبنى الأول عبارة عن سفارة كاملة المعدات والمكاتب والاختصاصات . وموظفو هذه السفارة من طلبة المعهد الذين عينوا أخيرا فى وزارة الخارجية . ويتدرب هؤلاء فى هذا المبنى على جميع الأعمال التى ستوكل اليهم مستقبلا عندما يرسلون للعمل فى سفارات بريطانيا فى جميع أنحاء العالم . والتدريب ينفذ بدقة وبجدية قد لا تصدق .

فالطالب يصل الى المبنى ـ نموذج السفارة ـ فى صباح كل يوم . ويجلس أمام مكتبه ، تبعا للوظيفة التى يتدرب على القيام بمهامها . فهو مرة سكرتير ثالث ، ومرة سكرتير ثان . أو أول . ومرة قنصل ، وأخرى مستشار ، وثالثة سفير ، فكل طالب يجب أن يتدرب على جميع هذه الوظائف والمناصب .. حتى يعيش التجربة كاملة .. فهو يتعلم كيف يحرر خطابا دبلوماسيا . وكيف يقيم حفلة . وكيف يتكلم . ومتى يسكت . وكيف يتخلص من المطبات .. و .. و ..

ومما يدل على نجاح المعهد البريطانى ، أن بعض وزارات الخارجية فى الدول الأوروبية المتقدمة مثل ألمانيا الغربية وايطاليا ، بدأت ترسل صغار دبلوماسييها الى بريطانيا للالتحاق لمدة سنة بمعهدها الدبلوماسى .

.. وكم نحن فى حاجة الى ارسال صغار الدبلوماسيين المصريين ـ وبعض كبارهم ايضا ـ الى هذا المعهد للاستفادة منه .

ومن المشاكل التى يجب أن تتخلص منها وزارة الخارجية، فى أسرع وقت ممكن ، مشكلة جهل بعض العاملين بهـــا باللغات الأجنبيـــة .

وأذكر ماقاله لى أحد المستشارين فى وزارة الخارجيـــة تعليقا على هذه المشكلة المؤسفة :

ــ « .. هذه نتيجة متوقعة منذ سنوات . فمراكز القوى كانت ترسل لنا العشرات الذين لا يعرفون سوى كلمـــات متقطعة فى اللغة الانجليزية التى تعلموهـــا فى المـــدارس الثانوية . وقد تدرج هؤلاء فى المناصب ، حتى وصلوا الى درجة السفراء . وقد أقاموا سنوات طويلة فى عواصم العالم المختلفة ، انعزلوا فيها عن المجتمع الدبلوماسى ، ولم يختلطوا بالأجانب من المسئولين ، واعتمدوا فى مراســـلاتهم على المترجمين وطاقم السكرتارية من الموظفين والموظفات المحليين، والذين ازدحمت بهم سفاراتنا فى الخارج » .

.. ويضيف مستشار وزارة الخارجية :

ــ « .. وحتى هؤلاء الذين التحقوا بالخارجية عن طريق المسابقة ، وصعدوا السلم من أوله ، فاننا نجد بينهم من لايجيد أية لغة أجنبية . وهناك من يتكلم اللغة بلهجة غـــير مفهومة ولا مطلوبة . وليس هـــذا ذنبهم ، ولا ذنب وزارة الخارجية . انه ذنب هؤلاء العباقرة الجهـــلاء الذين تولوا وزارة التربية والتعليم فى بداية الثورة ، ودفعهم حماســـهم الأعمى الى الغاء اللغات الاجنبية من المدارس الابتـــدائية ، واختصار مناهجها الى درجة العدم . وكانت النتيجـــة أن خريج الجامعة الآن لا يعرف أن يكتب رسالة واحدة بلغـــة أجنبية سليمة » .

.. ومشاكل وزارة الخارجية المصرية لا تنتهى .

.. وقد اخترتها لأبدأ بها الحديث عن عار أهل الثقـــة ، ومأساة أهل الخبرة ، لأنهـــا كانت من أولى الوزارات التى تعرضت لهذه المحنة ، وعانت من عارها الكثير والمـــؤلم .

ولحسن الحظ ان الرئيس انور السادات ، قد وضع نهاية لهذا كله الآن .

وبدات وزارة الخارجية المصرية ، تسترد سمعتها الضائعة ، وتبعد أهل الثقة الذين لا خبرة لهم ، وتقرب أهل الخبرة الذين يتمتعون بالثقة والخبرة معا .

.. ومن البديهى أن يتمتع أهل الخبرة ، بالثقة . فالمواطن المصرى الذى ولد وتعلم فوق أرض مصر ، هو بالقطع يعشق بلاده ، ويحرسها ، ويدافع عنها . تماما كما أن البلاد تثق فى أبنائها ، ولا تفرق بينهم . فالمواطن — اى مواطن — مخلص لبلده ووطنه ، الى أن يثبت العكس .

.. بهذا المفهوم المنطقى ، والجديد ، يعود الهدوء الى وزارة الخارجية المصرية التى تصدعت جدرانها من كثرة الضجيج الذى ظل يصدر عنها طوال السنوات الماضية .
.. وبهذا وحده تعود للدبلوماسية المصرية تقاليدها ، ورجالها ، واحترامها ، وهيبتها .

.. وبهذا وحده — أخيرا — تعود للخارجية المصرية طبقة الخبراء فى الشئون الدولية ، وتختفى منها طبقة «المحاسيب» ممن أطلقوا على أنفسهم يوما .. « أهل الثقة » .

● انتشر الجهل فى كل مكان ●

وما حدث فى وزارة الخارجية المصرية ، حدث أيضا فى جميع الوزارات الأخرى ، وجميع الشركات ، وجميع القطاعات ، الزراعية والصناعية والتجارية .

.. من منا لم يلتق بأحد هؤلاء الذين أطلقوا عليهم — كتورية — لقب « أهل الثقة » ، فى كل وزارة ، أو شركة أو مصنع ، أو مصلحة ، دخلها فى السنوات الماضية ؟

والغريب أنهم ـ أهل الثقة ـ كانوا دائما يحتلون المناصب الكبيرة والقيادية فى هذه القطاعات .

وكان غريبا جدا هذا الذى نراه ، ونصطدم به عشرات المرات فى اليوم الواحد .

رئيس مؤسسة السياحة ، لم يدرس فنون السياحة فى حياته .

المسئول عن جميع فنادق مصر الكبرى ، لم يلتحق بمعهد السياحة ، ولم يدرس فن الفندقة ، ولم يعمل فور تخرجه فى معهد عسكرى فى مكتب سياحى أو فى قسم الاستقبال بأصغر فندق فى قرى الريف المصرى .

ورغم هذا كله ، ولأنه من أهل الثقة .. تقرر تعيينه رئيسا وقائدا وموجها ومشرفا ومتربعا فوق قمة صناعة من أهم الصناعات فى بلادنا .

..والنتيجة ؟ .

تدهور الصناعة الفندقية ، بشكل تراه كل عين ، ويتحدث عنه كل لسان ، وتتعجب له عقولنا وقلوبنا .

والفنادق الكبيرة تحقق خسائر فادحة ، رغم أن نفس هذه الفنادق قبل أن تجتاحها جحافل أهل الثقة ، كانت تحقق أرباحا طائلة كل سنة .

وآثار النعمة المحرمة ظهرت على أهل الثقة بشكل لا يمكن أبدا انكاره أو اخفاءه .

فالشقة المتواضعة ، التى كان يسكنها هذا المدير ـ من أهل الثقة ـ أصبحت بقدرة اليد الطويلة ، فيللا فاخرة . والأثاث البسيط أصبح أثاثا ثمينا . والملاليم فى الجيوب أصبحت ملايين فى البنوك الخارجية .

والمؤسسة الملاحية التجارية ، التى أممت ، عينوا عليها

من لا خبرة له مطلقا فى أعمال البحر وتموين السفن . كل مواهبه وخبرته ومؤهلاته ، انه فهلوى " ويؤمن برئيســـه المباشر ، ويدين بالولاء لرئيسه الأعلى .

وامتلأ قطاع البحرية التجارية بالفساد .

خسائر هائلة ، تتراكم سنة بعد سنة . ومكاسب اجرامية ، تتضاعف عاما بعد عام .

وعندما فاحت سرقات أهل الثقة فى هذا القطاع ، اضطروا الى ابعادهم . وتعيين غـــيرهم من نفس عينتهم . وتدور العجلة .. مزيد من الخسائر ، ومزيد من السرقـــات . ثم ابعاد ، يعقبه تعيين جـديد .

.. وهـــكذا .

وهيئة مصايد الأسماك .. لم تفلت هى الأخرى من غزو أهل الثقة . اختاروا لها من لا صلة له بالأسماك الا حبــه لالتهامها والتهام الميزانية المخصصة لهـــا .

.. والمحلات التجارية الكبيرة ، اقتنصها أيضا أهـــل الثقة : فساء حالها ، وتراكمت خســـائرها ، وتكدســت بضائعها فوق الأرفف .

.. والجمعيات الزراعية لم تسلم هى الأخرى من هبش أهـــل الثقـــة .

.. وكل هذه القطاعات ، يمكن أن يحتلها أهل الثقـــة ، وأهل الجهل ، وأهـــل الهبش ، دون أن تنكشف مهازلهم ونواقصهم بسرعة .

ولكن الذى لا يعقل ، هو انتشار أهل الثقة ، وأهـــل الجهل ، وأهل الهبش ، فى قطاعات لا يمكن أن تتسع لهم . مثال ذلك قطاعات الاعلام ، والثقافة ، والصحافة . زحف أهل الثقة على هذه القطاعات ، كما يزحف الذباب .

وامتلأت دور الصـــحف المصرية ، بمن لم يمســـك فى حيـــاته قلمـــا .

وقــد عانينا ــ نحــن الصحفيين من هؤلاء ما يستحق أن تخصص له عدة مؤلفات .

لقد رأينا « صولا » يتحكم فى كل صغيرة وكبيرة فى مؤسسة صحفية كبرى .

ورأينا زوج ابنة أحد المسئولين يتولى ادارة دار صحفية ضخمة ، ولم يكن قد تعدى سنه الثلاثين وقتها . وطاح هذا الشاب فى القيادات الصحفية المحترمة . أهان رؤســــاء التحرير . وأساء لكبار الكتاب . وأحاط نفسه بالفاشلين . وعين فى الدار أقاربه وأقارب أقاربه .

ورأينا مدير مكتب أحد المسئولين ، يتولى منصب رئيس مجلس ادارة مؤسسة صحفية ناجحة . وكان أول عمل يقوم به هو أن يقلب العمال على رؤساء التحرير . وعندما احتج رؤساء التحرير ، وحذروا من هذا التخريب ، صدر الأمــر باسعادهم عن وظائفهم لأجل غــير مسمى .

ورأينا مسئولا ضخما ، لاعلاقة له بالأدب ولا بالصــحافة ولا بالكتابة ، يتحول فجــأة الى أديب كبير ، تخصص له صفحة كاملة ، كل اسبوع ، ليتحدث فيها عن القضـــــايا الفكرية والمصيرية فى حياة الشعوب . وأصبح كاتبا ومفكرا وفليسوفا .. فى يوم وليلة . وبقرار جمهورى . وهو مالم يحدث فى تاريخ العالم ، أن يخلق كاتب كبير بقرار جمهورى .

وانتشر أهل الثقة فى الاذاعة . وفى التليفزيون . وسلطت عليهم الأضواء . وأصبحوا من النجوم . ومن المشــاهير . ومن العباقرة .

حتى السينما لم تسلم من هجمات أهل الثقة . ويكفى أن نستعرض أســماء كبــار المنتجين الســينمائيين الحاليين ، لنفاجأ بأن بعضهم بدأ حياته فى مهنة بعيدة كل البعد عن الفن ، وعن السينما ، وعن التمثيل .

.. ولكن هكذا كان أسلوب أهل الثقة . انهم يجيـــدون الاختيار بين المهن المختلفة ، والفرص المتـــاحة . وكانت السينما من بين تلك المهن التى تحقق لصاحبها الثراء السريع ، والشهرة الكبيرة ، وراحة البال التى لا تعوض .

سنوات الإرهاب

● اهل الجهل .. بطشوا باهل الفكر

● سنوات الارهاب ●

لاننا اعتمدنا على أهـل الثقة ، وأبعـدنا أهـل الخبرة ، استطاع الوحش الآدمى اللواء حمزة البسيونى أن يقفز فوق الرءوس وان يحتل منصب قائد السجن الحربى .

والذى يستمع الى الذين اوقعهم سوء حظهم بين براثن حمزة البسيونى ، لابد أن يذهل من بشاعة مايسمع ، ولابد أن يصاب برعشة خوف واشمئزاز من تلك الاهـوال التى عاشها ألوف من المواطنين الابرياء .

كان حمزة البسيونى يتجـول فى السـجن ويصرخ فى النزلاء قائلا :

ــ « أننى اتسلم المسجونين بغـير ايصـال . ولست مسئولا عن اعادتهم على قيد الحياة . ولن يحاسبنى أحد على الجثث . لقد دفنت كثيرا من المسجونين السياسيين فى صحراء مدينة نصر ، ولم يسأل عنهم أحد ، ولم أقدم لاحد حسابا عن ذلك . »

وكان ملك التعذيب ــ كما وصفه مصطفى أمين فى كتابه سنة أولى سجن ــ يسير وفى صحبته دائما الكلبان الضخمان « ميمى » ، و « ليلى » ، ليطلقهما على النزلاء ليمزقا ملابسهم وينهشا لحمهم ، ثم يتولى خفافيش البسيونى ــ بعد ذلك ــ مهمة تحطيم الضلوع ، وخلع الاظافر ، وتكسير الاسنان ، وتحطيم العمود الفقرى ، واطفاء أعقـاب السـجائر فى الصدور . وعندما تنتهى جولةالبسيونى بين المذنبين والابرياء، يعود الى رئيسه حاملا مجموعة نادرة من الاعترافات .

الشيوعى يعترف بادارة خلية سرية للاخوان المسلمين !

والوطني المخلص يقر بتخابره مع العـــدو الاسرائيلى ، بقصد الاضرار بأمن وسلامة الدولة !

والمفلس المعدم يعترف بانه هرب ملايين الدولارات الى حسابه فى بنوك أوروبا !

والفلاح الجاهل البائس ، يقدم تفاصيل الخطة الجهنمية للانقلاب الذى خططه للاطاحة بنظام الحكم فى مصر !

والعامل البسيط ، الذى يتقاضى راتبه باليومية ، يكشف عن سر الشفرة التى كان يتعامل بها مع وكالة المخابرات المركزية الامريكية .

والشيخ الذى كان من أشد أنصار حركة الاخوان المسلمين، واحد رجال الشـــيخ حسن البنا المقربين ، يعترف بأنه كان لايفيق من الخمر ، ويعترف على شقته الصـــغيرة فى قلب القاهرة — جرسونيرة — والتى كان يستقبل فيها النســـاء ويقيم فيها سهرات ألف ليلة وليلة حتى مطلع الفجر !

والقسيس الذى قبض عليه داخل كنيسته ، أعترف بأنه اليد اليمنى لحركة الشيخ حسن الهضيبى التى تهدف الى قلب نظام الحكم !

فى هذا الجو البشع ، المؤلم ، اللا انسانى ، عاش كل من اختلف مع السلطة فى السنوات الطويلة الماضية ، وكـــل من اختلفت السلطة معه !

ويندر ان يخلو شارع من ساكن اقتيد فى ســـاعات الفجر الاولى ، الى السجن الحربى للتحقيق معه فى جملة نطقها ، أو اجتماع حضره ، أو زيارة قام بهـــا ، أو مؤامرة وهمية اشترك فيها ، أو نكتة ساخرة سمعها وضحك لها .

وهناك آلاف من الامثلة الحية ، والتى سمع بهـــــا الملايين .

ولكنى هنا سأقتصر على ذكر بعض التجارب التى تعرض لها عدد من كبار كتابنا الذين كتبوا ولم تعجب مراكز القوى بكتاباتهم .

فى بداية الثورة ، كانت صـحيفة « المصرى » ، هى الصـحيفة الاولى المؤيدة لثورة ٢٣ يوليو . فالعلاقة بين « المصرى » والضباط الاحرار ، علاقة قديمة . ففى مكتب رئيس التحرير الاستاذ أحمد أبو الفتح ، عقدت اجتماعـات طويلة ، بين الضباط الاحرار ، نوقشت خلالها تفاصيل كثيرة ، واذيعت فيها اسرار خطيرة .

ولكن الثقة كانت متبادلة .

واحتفظ كل جانب لنفسـه ، بما سـمعه من الجانب الآخـر .

كان الجانبان يعملان من اجل هدف واحـد ، هو تحرير مصر ، وانقاذ شعبها .

وعندما قامت الثورة ، كانت « المصرى » اول من أيدهـا وهلل لها ، وتجاوب معها ، وتبنى قضاياها .

ولكن سرعان ما وقع الخلاف . لم يكن خلافا شخصيا ، وانما خلافا فى وجهة النظر . كان من رأى أحمد ابو الفتح أن يعود الضـباط الى الثكنات ، ويترك للمدنيين حكم مصر . وكان للضباط الاحرار وجهة نظر اخرى مخالفة .

وكان يمكن ان يحتفظ كل جانب بوجهـة نظره . ويترك للأغلبية اختيار وجهة النظر السليمة ، ولكن الذى حـدث ان الخلاف تشعب ، ولم يعد فى الامكـان حصره ، أو تلافى اخطاره .

وشكلت محكمة الثورة ، واصدرت احكامها باغلاق صحيفة « المصرى » ابتداء من يوم ٤ مايو ١٩٥٤ . وبمصادرة جميع أموال وأملاك أسرة ابو الفتح ، بما فيها اثاث المنازل والاموال فى البنوك والاسـهم فى الشركات ، وشركة الاعـلانات المصرية بما فيها من صحف ، وشركة التوزيع المصرية ، التى انضمت جميعا ــ فيما بعد ــ الى صحيفة « الجمهورية » .

وصدر الحكم غيابيا على احمد ابو الفتح بالسجن لمـدة ١٥ سنة . ولما رفض أحمد أبو الفتح العودة ، الى مصـر جردته الحكومة من الجنسية المصرية .

وعاش آل ابو الفتح فى الغربة . بلا جنسية . بلا وطن . بلا صحيفة .

وبعد ان تولى الرئيس انور السادات ، اعاد الجنسية لاحمد ابو الفتح ، ورحب بعودته الى وطنه تنفيذا لمبدأ « ان كل مصرى يرحب به فى وطنه » .

.. وهكذا عاد أحمد أبو الفتح الى مصر ، بعد غيبة ٢٠ سنة ، وشهرا ، و ١٢ يوما .

وتجربة احسان عبد القدوس كانت أخف وقعا من تجربة آل أبو الفتح .

ففى سنة ١٩٥٤ ، القى القبض على رئيس تحرير مجلة « روز اليوسف » بسبب الآراء التى ينشرها فى مجلته ، والتى لا يرضى عنها مراكز القوى .

ونترك احسان عبد القدوس يصف التجربة فيقول :

ـ .. « كنت قد امضيت فى سجنى الانفرادى شهرا ونصف الشهر ، شبه معزول عن العالم اجمع . حبيس زنزانة فقدت جدرانها وارضيتها ، معنى الالوان ومفهومها . وليس بينى وبين العالم الخارجى من وسائل الاتصال سوى الكوة العلوية التى يعرفها جيدا كل من هبط الى قاع العالم السفلى ، عالم الزنازين . وفجأة بدأ كل شىء يتغير ، وبدون سابق انذار او مقدمات توحى بأن تغيرا ما سيحدث .. ويعيد وصل الخيوط التى تقطعت بينى وبين عالم الاحياء الذى انتزعت منه فى ليل الثامن والعشرين من أبريل ١٩٥٤ .. ورغم دهشتى للتغيير الذى حدث ، فلا انكر اننى سعدت به وبما اتاحه لى من «ميزات» أعادت لى الاحساس بالآدمية .. وان كان السبب فى هذا التغيير المفاجىء ظل يؤرقنى ، حتى فتح باب الزنزانة ذات يوم ، وفوجئت بالحارس يعلن نبأ قدوم زائر ـ اعترف باننى لم اكن أتوقع دخوله على فى زنزانتى البغيضة ـ وكان هذا الزائر هو .. أمى .. واستاذتى .. فاطمة اليوسف . وبيننا دار حديث طويل

غريب ، لعله أغرب حديث يدور بين أم وأبنها فى مثل هـــذا المكان » .

.. ويواصـــل احســـان فى مذكراته التى نشرت أخيرا فى مجلة « الجديد » :

ــ « .. لم تكن فاطمة قد درست الفكر السياسى ، بالمعنى الأكاديمى المعروف فى الجامعات ومعاهد البحث لهذهالدراسة، ولكنها بالقراءة الحرة وبالثقافة الجـادة أخــذت نفســـها بأسبابها ، وبالممارسة العملية فى معارك النضال السياسى والحزبى ، التى خاضتها كصحفية منتمية لحزب الوفد ، ثم كصاحبة رأى متحرر من قيود التبعية ، الا للشعب وحـــده ، كانت قد استطاعت أن تعى ما ينقص الكثيرين من الدارسين المتخصصين أن يعرفوه عن أسرار الفكر السياسى ومناهجه . وقد ساعدتها هذه المعرفة على ادراك حقيقة الموقف فى مصر بعــد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. وادراك ان هناك فرقا شاسعا بين الخلاف فى الرأى مع حكومة حزبية ، مهما مالت هذه الحكومة للعنف فى معاملة خصومها السياسيين ، وبين الوقوف موقف المعارض لثورة وليدة مازالت فى مرحلة البناء السياسى .. وهى مرحلة تدرك فاطمة اليوسف ، ان الثورات لاتسمح أثناءها بأى نوع من التردد أن يتسلل الى مواقفهـــا الحاسمة تجاه خصومها أو من يشـــك قادة الثورة فى انهم يخاصمونها . فاذا حدث وطفت على سطح الثـــورة بذور القوى الطفيليـــة التى تنمو كالطحالب فى حيـــاة الكثير من الثورات ــ فتخنقها وتنحرف بها عن مسارها ــ فان الموقف يزداد صعوبة بالنسبة لكل من يفكر فى معارضة رأى تــراه الثورة أو قرار تتخذه .. لان القوى الطفيلية تسارع رغبـــة فى اكتساب مواقع جديدة ــ لم تكن لها أصلا ــ الى المبالغة فى كشف عــداء المعادين للثورة . والمبالغة فى انزال العقـــاب بالمارقين ، تزلفا وقربى للقادة الكبار .. كل هـــذا كانت تعرفه فاطمة اليوسف ، وبرغمه لم تتردد فى أن تقف موقفهـــا الصارم الحاسم ، حين قبضوا على ، واودعونى السجن . فلما بعثوا بمحمد حسنين هيكل وزميله الرقيب العـــام على الصحافة المصرية ، ليتفاوضا مع أمى فى الشروط التى تنهى

بموجبها هذه المقاطعة الحاسمة لاخبار الثورة فى المجلة ـــ وكانت فاطمة اليوسف قد منعت نشر أى خبر عن الثورة فى روز اليوسف بمجرد القبض على احسان عبد القدوس ـــ لم تتردد فى رفض الوساطة والوسطاء . واستمرت فى مقاطعتها، حازمة أمرها ، غير حاسبة لشىء حسابا ، سوى أن تقول لمن بعثوا اليها بهيكل وزميله الرقيب العام .. انه لا يزال فى مصر من هو قادر على أن يقول (لا) فى وجه من يؤمن بأنه مخطىء ، ويقولها شجاعة وصريحة وحازمة . ليس حبا فى كلمة (لا) ، ولكن تأكيداً لمعنى أصيل عاشت تؤمن به فاطمة البوسف ؛ وهو ان روح مصر الخالدة أبدا .. الباقية على مر العصور ، استطاعت ان تحتفظ بسر مصر العظيم وهو القدرة السحرية الغامضة لشعبها على ان يحتفظ بقدرته على رفض الخطأ ، ثم التعبير عن رفضه بوسائل أكثر غموضـــا من قدرته على الرفض . سواء بالنكتة اللاذعة ـــ التى يفوق وقعهـــا على نفوس الخطاة ، أمضى السيوف وأسرع السهام ـــ أو بالاهمال القاتل فى شكل لامبالاة يحسبها الساذج بلادة فى الحس .

ومن هذا الايمان الذى لايتزعـــزع بروح الرفض المصرى للخطأ ، استمدت فاطمة اليوسف شجاعة الوقوف فى وجـــه من سجنونى عام ١٩٥٤ ، فى وقت انحنت فيه رءوس كنت أظنها كبيرة .. ولكنها مالت مع الريح .. لكى تظل محتفظة بمكانها فوق شـــــجرة الحياة السياسية ـــ ولكنها فى نظـــر الشعب قد سقطت وأصابها العطب ـــ أما استاذتى فقـــد أصرت على الوقوف فى وجه العاصفة العاتية .

وهاهى تقف الآن أمامى فى زنزانتى غير الحبيبة ، وابتسمت وأنا أقول لها مداعبا فى نبرة لم تخل من شغب الابن مـــع أمـــه :

ـــ ولكنك كنت تقامرين يا أمى .

ـــ بأى شىء ؟

كلمتان مقتضبتان لم تزد عليهما حرفا .. قذفت بهما فى اتجاهى ، فى صـــوت أحسست مع نبراته ان فاطمـــة

اليوســف المناضــــــــلة القديمة ، لــمْ تنطق بكلمتــين ، ولكنها شهرت مسدسا فى مواجهة خطر يدنو منها ، وانهــا لن تتردد فى اطلاق النار عند أول حركة مريبــة مقصــودة أو طائشــة . ولم أكن على استعداد لكي أســـقط صريعــا فى هذه الزنزانة بعبارة نارية من عبارات فاطمة اليوسف التى طالما أطلقتها فى معاركها الطويلة ضد خصومهــــا فى الرأى والسياسة . وأسرعت أحتمي بالدرع الذى كنت على ثقة من قدرته على حماية الابن من غضب أمه .

ــ كنت تقامرين بحياتى ياامى . بل .. بكل شيء فى حياتك أنت .

قلتها بمرح مفتعل ، لم يجز على أستاذتى الذكية ، فسارعت تسألنى :

ــ افصح يا احسان .. ماذا تريد ان تقول بالضبط ؟ عن اية مقامرة تتحــدث ؟

ــ رفضك يا امي وساطة حسنين هيكل وزميله الرقيب العام ، كان معناه انك أغلقت باب الحوار مع من سجنونى . وهـــذا الموقف قد يدفعهم لليأس منك ومني تمامــا . وأنت تدرين بلا شك بما يمكن ان يقدم عليه اليأس ، وخاصـــة اذا كان فى موقع القوة .

.. ولم تهتز السيدة القوية . واستمرت تنظر فى اتجاهى، وعيناها مركزتان فى ثبات تطل منهما نظرة متسائلة وكأننى لم اقل شيئا . او .. قلت مالا يعد شيئا .

واحسست بالقلق . ثم بالاضطراب . فضحكت . وكأننى أستدر تعاطفها مع افكارى . ولكنها ظلت كما هى صامتة . وساعتها ثرت . أحسست بالغضب . ليس عليهــــا بل من اجلها . ومن اجلى انا ابنها الوحيد الذى استطاع ســجانوه أن يوقفوه من أمه ، ويوقفوا أمه منه هذا الموقف الشاذ .. حيث تبدو الأم وابنها وكلاهما لا يفهم الآخر . وتحول غضبى الى ثورة .. اطلقتها فى شبه صراخ :

ـ لقد عرضت نفسك للخطر بلا مبرر معقول يا أمى . قد تكونين معذورة فى موقفك لأنك اعتدت على خوض المعـارك طيلة حياتك ، ولكن الأمر مختلف هذه المـرة .

ـ وما وجه الخلاف يا احسان ؟

ـ هذه ثورة يا أمى . وهى ثورة تواجه عاصـفة من صراعات القمة بين قادتها . والمتصارعون فى مثل هـذه اللحظات الحاسمة ، يكونون بالغى الحساسية فى تقـديرهم لمواقف الآخرين تجاههم . واذا كنت قد كتبت ماكتبت فاعتبره البعض هجوما عليه وحربا ضده ، فان فريقا آخر قد اعتبر ماكتبته قمة الدفاع عن الحرية والديموقراطية . ومن هنـا فالخطر المحدق بى محدود ، بمدى قدرة من تصورنى خصما له فى الانفراد بى والقضاء على .. اما رفضك لوسـاطة هيكل وزميله الرقيب العام ـ بعد ان قاطعت اخبار الثورة كلها بقطبيها المتصارعين ـ فما أسهل تفسيره على أنه رفض للثورة كلها . وعداء لجميع الأطراف ، الطيب منهم والخبيث . وهو موقف كفيل بأن يؤلب عليك الكل ، ويوحدهم فى اتخـاذ قرار يجمعون عليه بالقضاء على روز اليوسف المجلة والمرأة المناضلة معـا .

ـ تحليل رائع ياعزيزى . وهو تحليل لا يملك القدرة عليه الا ثائر مثلك . درس فكر الثورة كمناهج نظرية فى الجامعة ومارسه عمليا فى اشتراكه مع أصدقائه الضـباط الثـوار فى سنوات الاعداد للثورة .

ولـكن ..

وترددت أمى قبل أن تكمل حديثها ، وهى تنظر الى بابتسامة غامضة ، حاولت أن تستشف بها وقع الغمزة التى غمزتنى بها عن عمد ـ وهى تتحدث عن أصدقائى الضباط الثـوار ومشاركتى لهم فى سنوات الاعداد للثورة ، وكأنها تقول .. أنظر ماذا فعل بك من كنت تعدهم أصدقاء الفكر وخلصـاء العمر ، وأحسست أنها بهذه الغمزة تجرح كبريائى ، وتتهم ذكائى بالقصور .. لأنه لم يدرك فى وقت مبكر حقيقة النوايا

الديكتاتورية التى كان بعض هؤلاء « الأصدقاء » يخفونهـا وهم يتحدثون بحماس ــ قبل الثـورة ــ عن الحـرية ، والديموقراطية ، وارادة الشعب . وحاولت اخفـاء ألمى وقلت لهـا :

ــ ولكن ماذا ؟ اكملى يا أمى .

ــ أرجوك أن تصدقنى يااحسان ــ رغم فظاعة ماستسمعه منى ــ أننى لو خيرت بين أن يعدم احسان وحيدى ، وبين أن احنى رأسي لطاغية ، لرفضت الركوع لظالم .. مهما كـان الثمن الذى سأدفعه من كبدى . لأن تضحيتى بابنى ستصيب الطاغية برعب قاتل ، وهو يرى احدى الأمهات تصمم على أن تقول له (لا) ثم تستقبل رأس وحيدها فى حجرها .

وضحكت محاولا تهدئة انفعالها ، ثم قلت :

ــ الحمد لله أن رأسى مازال فوق كتفى ، ولم يسـقط فى حجـرك يا أمـاه .

ــ كنت واثقة من هذا يا احسان ، لأننى أعرف جيـدا ، أن أطغى الطغاة أضعف من ان يواجه أما شجاعة . نحـن الذين نخلق الطغاة بضعفنا . ونغريهم بالاستمرار فى ظلمنـا بالسكوت على هذا الظلم . ولو اننى أبديت لهيكل وزميلـه الرقيب العام أدنى بادرة ضعف لاستأسد خصومك . ولكننى لم أضعف وصمدت لهم ، كما صمدت من قبل فى مواجهـة النحاس وصدقى وعلى ماهر وغيرهم ممن خالفتهم فى الرأى.

.. ثم أفرج عن احسان عبد القدوس .

ولكنه لم يعد كمـا كان . لم يعد واثقا من احترام البعض لحـرية الرأى .

ومرت السـنوات ..

وأكثر من مرة تعرض احسان عبد القدوس ، لبطش الطغاة من مراكز القوى . لم يدخـل السجن ولكنهم عذبوه أكثر من عـذاب السجن .

عينوا له من يحاربه فى المجلة التى بناها من عرقه وفكره وقلمـه .

وعندما اشتكى ، أبعدوه هو عن المجلة ، وأبقوا فيهـا رجالهم وأعوانهم .

ثم تذكروه فجأة ، فعينوه فى صحيفة أخرى . وعندما نشر بعض القصص السياسية ، غضبوا مما كتبه ، فأعادوه لمنزله ، بلا عمل .

وهكذا ، حتى تولى أنور السادات الحكم ، فأعاد لاحسان مايستحقه من تقدير ، فعينه رئيسا لمجلس ادارة أخبار اليوم ، ثم رئيسا لمجلس ادارة الأهرام .

وجلال الدين الحمامصى تعرض هو الآخر لصدام مع مراكز القوى .

لم يعجب البعض بالنقد البناء الذى يكتبه ، فأبعده ، عن الصحافة . وجلال الدين الحمامصى من الصحفيين الذين يحترمون أنفسهم ويحترمون أقلامهم . رفض أن يهادن . رفض ان يساير موكب النفاق .. الذى زحف على صحفنا من هواة الصحافة غير الصحفيين . وآثر جلال الدين الحمامصى الابتعاد عن هذا الدجل الذى سيطر على أجهزة أعلامنا طوال السنوات الطويلة الماضية . ورفض أن يمسك بقلمه ليكتب فى صحافة مكممة ، بلا حرية . وعاش جلال الدين الحمامصى ، يخدم المهنة التى يحبها بطريقة أخرى . كان يدرسها كمهنة فى الجامعة . وعلى يديه تخرج آلاف من طلبة الصحافة والاعلام من المصريين والعرب .

ولم يكتب جلال الدين الحمامصى ، مرة أخرى ، الا بعد أن ألغى الرئيس أنور السادات الرقابة على الصحف .

فعاد لقلمه انطلاقه ، وعاد يكتب عموده الشهير « دخان فى الهواء » .

وأنيس منصور ، تعرض لتجربة قاسية على ايدى زبانية مراكز القوى ، وبسبب « جريمة » لم يرتكبها .

فأنيس منصور لم يكتب كثيرا فى السياسة . أو على الاقل اليوميات التى كان ينشرها كل أسبوع فى « الأخبار » خصصها للكتابة فى الأدب ، والنقد ، والخواطر الاجتماعية .

وحدث أن تحدث عن قصة قديمة ساخرة ، لأحد الطغاة المجانين . ونشرت القصة فى اليوميات ، بعد أن أضـــاف اليها أحدهم ، رسما كاريكاتوريا لجمال عبد الناصر !

وقامت الدنيا ولم تقعد بسبب هذا المقال ، وبسبب هــذا الرسم !

ثم صدر قرار برفت أنيس منصور ، من رياسة تحـــرير مجلة « الجيل » !

واغلقت الأبواب كلها فى وجه الكاتب الكبير انيس منصور!

حاول أن ينشر كتبه ، فلم يجرؤ اى ناشر على قبـــول كتب لأنيس منصور ، المطرود من الصحافة ومن عالم الأدب بأمر السلطات العليا !

وتبخرت جنيهات مكافأة أنيس منصور .

وعاش أنيس منصور أياما عصيبة ، لم يكن يتوقع ابدا أن يواجههـــا .

حتى نجح الوسطاء ، فى ارضاء الطغاة ، والحصول على مبادرتهم « الكريمة » باعادة أنيس منصور الى ملايين القراء الذين أحبوه وأدمنوا كل سطر يكتبه !

وقصة موسى صبرى مع عمالقة مراكز القوى ، لا تقل اثارة عن باقى القصص السابقة . شاء حظ موسى صبرى — رئيس تحرير الأخبار — أن يجلس أمام شاشة التليفزيون فى بيته ، ليشاهد الاستقبال الهائل الذى استقبل به الرئيس السابق جمال عبد الناصر عند زيارته الأولى للجزائر .

وانفعل موسى صبرى بهذا الاستقبال الحافل ، فأشاد به فى اليوم التالى فى يوميات « الأخبار » ثم أضاف ان مثل هذه الريبورتاجات التليفزيونية السياسية ، يجب أن يقدمهـــا المذيع الرجل . لأن ماحدث بالأمس هو أن صوت المذيعة ، لم يكن قويا لدرجة يمكنها من أن تعلو به حتى يمكن للمشاهدين

سماعه ، بسبب الضجة الهائلة لمئات الألوف من حناجر المستقبلين من حولها .

وقال موسى صبرى أن صوت المذيعة ، جاء رفيعا ، واشبه بمواء القط !

وكأن موسى صبرى قد ارتكب جريمة قتل !

ثارت المذيعة . وثار زوجها ــ الضابط الكبير وقتذاك ــ وهدد وتوعد !

ثم وصلت مكالمة تليفونية من الوزير المختص تفيد قرار مراكز القوى ، بوقف موسى صبرى عن العمل ، ومنعه من الذهاب الى مكتبه فى « أخبار اليوم » !

وهكذا تسببت جملة نقد واحدة لصوت احدى المذيعات ، فى وقف رئيس تحرير اوسع صحيفة انتشارا فى العالم العربى ، عن عمله ولأجل غير مسمى !

ولم يكن هذا هو العقاب الوحيد لموسى صبرى .

فقد عوقب مرة أخرى ، لأنه تجرأ وكتب عن سبائك الذهب التى كانت مراكز القوى تنهبها من خزانة الدولة . وهو ماأثبتته محاكمة قادة الانقلاب الفاشل الذى خططه بعض القادة العسكريين السابقين فى أعقاب هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧.

وأوقفوا موسى صبرى عن العمل مرة اخرى .

ثم نقلوه للعمل فى « الجمهورية » ، ومنعوه من التوقيع باسمه على المقالات التى يكتبها ، امعانا فى التقليل من شأنه ، واذلالا له !

واذا كنت قد تحدثت هنا عن التعذيب المعنوى الذى تعرض له كبار كتابنا ، على طول السنوات الماضية ، فلابد من ان تكتمل امامنا الصورة القاتمة ، ونستعرض ابعاد التعذيب الجسدى الذى تعرض له غيرهم .

وأبرز مثال على ذلك ، مالاقاه مصطفى أمين ، خلال ٩ سنوات امضاها فى السجون .

.. يقول مصطفى أمين :

ــ « .. كان من بين وسائل التعذيب التى لجأوا اليهــا ان صــــدر الأمر بمنعى من الأكل والشرب . والحرمان من الأكل مؤلم ، ولكنه محتمل . الجسم يتحمل الجوع . ولكن العطش عذاب لا يحتمل . وخاصة أنا مريض بالســـكر . وفى اليوم الأول تحايلت على الأمر . دخلت الى دورة المياه فوجدت فيها اناء للاستنجاء . وشربت من مياه الاستنجاء وفى اليوم التـــالى فوجئت بأنهم عرفــوا اننى شربت ماء الاستنجاء ، فوجدت الاناء خاليا ، واضطررت أن أشرب من ماء البول ، حتى ارتويت . وفى اليوم الثـــالث لم أجد بولا لأشربه » .

.. ويقول مصطفى أمين أيضا :

ــ « .. دخل حمزة البسيونى قائد السجن الحربى الى الزنزانة التى كانوا يعذبوننى فيها فى سجن المخابرات العامة، ووقف يتفحصنى ، وهو يرانى عاريا تماما ، وأنا مصــلوب على جدار الزنزانة والضربات والصفعات تنهال على ، وثلاثة من الضباط ينتزعون شعر جسدى ..

ثم قال الفــريق :

ــ لا .. لا .. لا . أنتم تدلعونــه هــنا . هاتوه لى فى السجن الحربى ليرى التعذيب الحقيقى .

.. ووضعوا عصابة سوداء على عينى ، وساقونى خلف حمزة البســيونى الى ســيارة جيب ، قادها الفريق بنفسه وأجلسنى بجواره وخلفى جنود بالمدافع الرشاشة .

ووضعونى فى زنزانة صغيرة ، ثم احضر الفريق حمـــزة البسيونى كلبين ضخمين وتركهما يندفعان نحوى وكان الدم يسيل من فمى الكلبين ، وامر الفريق البســيونى ، فاندفع الكلبان مرة أخرى ، وراحا ينهشان ملابسى . وانهالت على رأسى الضربات واللكمات والصفعات والفريق البسيونى يزأر ويقول (اعترف . اعترف والا فسوف أقتلك هنا) .

.. وحكايات التعذيب لا تنتهى .

واذا كنت قد ذكرت هنا تجارب كبار الكتاب والصحفيين المصريين ، فليس معنى هذا أن البقية الباقية من الصحفيين والكتاب الصغار قد عاشوا فى مأمن من البطش والسفك .

.. وما أكثر الذين طردوا ، أو نقلوا ، أو شردوا ، أو أوقفوا عن العمل لأتفه الأسباب .

.. ولم تسلم فئة من الصحفيين من هذا العذاب .

الصحفيون — من الاخوان المسلمين — عذبوا وسجنوا وطردوا وجاعوا . والأسماء كثيرة نكتفى بذكر بعضها : حسن دوح ، ورجاء مكاوى .

والصحفيين الشيوعيون تعرضوا لحملات اعتقال لا حصر لها . وما أكثر القصص البشعة التى يمكن أن نسمعها من محمد سيد أحمد ، وفيليب جلاب ، وصلاح حافظ ، وعادل حسين ، وسعد كامل ، وسعد التائه ، ومئات غيرهم .

.. وكما نرى ، فان مراكز القوى لم تكن تفرق بين الشيوعيين والاخوان ، عند البطش ، والبتر ، والابادة .

الجميع سواسية أمام العصا ، والكرباج ، والنعال .

والكل على قدم المساواة عند تقليع الأظافر ، ونهش لحم الجسد ، وكسر الضلوع .

سنوات الوهم

- مأأحلاها عيشة الفلاح
- أين التمثال ؟
- حتى لانكون مثل جاك

• ماأحلاها عيشة الفلاح •

منذ سنوات طويلة ماضية ، ولا حديث لنا الا عن الفلاح.
الخطب الرنانة ، تشيد بالفلاح ، وتتحسر على العذاب الذى تعرض له خلال القرون الماضية ، وترسم لنا صورة مضيئة للسعادة التى سيتمرغ فيها فلاحنا المسكين خلال الايام القليلة القادمـــة .

الصحف المكممة ، أفردت للفلاح صفحاتها ، لتبرز اهتمام مراكز القوى بتحسين حال الفلاح ، وبحرصـــها على ان توفر له حياة هانئة ، ورغدة ، تعوضه بها عن اجرام العهود الغابرة فى حقه .

الاذاعة خصصت للفلاح برامج خاصة . ونافسها التليفزيون فى تحقيقاته المصورة لينقل لنا الواقع المشرف للريف المصرى ، فى الوقت الحالى .

فالفلاح يزرع أرضه فى الصباح ، ثم يأكل طعاما ساخنا وشهيا عند الظهر ، ثم يعود الى منزله ، ليمضى السهرة أمام جهاز الراديو ، دليلا على دخول الكهرباء الى القرى ، ويحتسى الشاى الساخن ، تأكيدا على تدفق الماء النظيف من الحنفيات .

وصدقنا جميعا هذه القفزة العظيمـة التى قفزها فـلاحنا المصرى ، وسعدنا له ولأنفسنا بأنوار الفجر التى بدأت تتسلل الى الريف ، بعد أن طال ظلامه وخموله واهماله .

ولم يغضب ساكن المدينة ، عندما كان الحاكم يقول له ان الاهتمام الاول والجهد الاعظم يجب أن يوجها الى ساكن الريف أولا . أما ساكن المدينة ، فعليه ان يتحمل ، وينتظـر دوره فى الاهتمام والاصلاح وتوفير الخدمات والكماليات .

واقتنع ساكن المدينة بمنطق الحاكم ، وتحمل ، وانتظر دوره فى الاهتمام ·

وأحيانا كانت أعصاب ساكن المدينة تفلت منه ، فقد طال الانتظار ، والطابور الطويل أمامه لايتحرك ، ولا يبدو انه يتقدم خطوة واحدة الى الأمام ·

وفى بعض الاحيان كان سكان المدن يضيقون بالازمات الاقتصادية التى تخنق أنفاسهم ·· ويتبرمون من القصور المزمن فى الخدمات الحكومية · فأزمة المساكن مستحكمة · والمواصلات قاتلة . والشوارع ممزقة . والاسعار مولعة . والغذاء شحيح . والاجور مجمدة .

وعندئذ كانت مراكز القوى تسارع وتؤكد لسكان المدن انها تتفهم أسباب ضيقهم ، وتتقبل بصدر رحب مبررات تبرمهم . ولكن السبب فى هذا القصور، وتلك المضايقات ، يرجع أساسا ـ على حد قول أبواق مراكز القوى الغابرة ـ الى أن موارد الدولة كلها موجهة لنهضة الريف ، وانقاذ الفلاح ومن بين أنياب الثالوث المدمر والتقليدى : الفقر والجهل والمرض ·

وينزل هذا الكلام كالماء البارد فوق رؤوس سكان المدن· فتتبخر ثورتهم · وتهدأ صدورهم · ويصبرون قلوبهم ،بأن الاولوية يجب ان تكون للفلاح ، الذى طالما ضحى من اجلهم وفى سبيل اسعادهم ·

ولكن ··

هل فكرنا فى محاسبة مراكز القوى ، على ماقالته ورددته آلاف المرات ، عن نهضة الريف ورفع مستوى الفلاح ؟

لاأريد أن أوزع التهم جزافا ·

ولكنى أعتمد فى حكمى على ماألمسه بعقلى ، وتراه عينى، فى كل مرة أزور فيها الريف ، أو أختلط بالفلاحين ··

وما يلمسه عقلى ، وماتراه عينى ، قد لايهم أحد سواى .
ولذلك ..

فكم أتمنى أن يكون حسابنا بطريقة علمية ، وبعيدة عن الاهواء ، وفى مأمن من الاتهامات . وهذه الطريقة . سهلة ومقنعة ..

فالخبراء هم الذين سيعكفون على اعداد دراسة كاملة ، ومستفيضة . ووافية . تسلط الاضواء - بالوقائع والتفاصيل والارقام - على المكاسب التى قلنا آلاف المرات أن الفلاح المصرى قد حصل عليها ..

نريد من هؤلاء الخبراء ، ان يعقدوا لنا مقارنة بين فلاح الفراعنة - ايام الملك مينا - وفلاح مصر فى القرن العشرين.

فالمقارنة ستتيح لنا الفرصة للتعرف من خلالها على الاختلافات الجوهرية فى حياة الاول . وحياة الثانى .

كما سنتبين تطور الآلات الزراعية التى كان يستخدمها فلاح قدماء المصريين . ونقارنها بالآلات الزراعية التى يستخدمها الآن فلاح مصر الحديثة ، فى عصر الذرة والفضاء والهبوط فوق أسطح الكواكب والنجوم (!) .

ولانريد من الخبراء أن يقولوا لنا - فى دراستهم المنتظرة - كم عدد الفلاحين الذين وزعت عليهم الاراضى المصادرة ، وانما نتمنى ان يقولوا لنا متوسط دخل الفلاح المصرى فى السنة ، وهل حقا أن هذا الدخل يعتبر من أقل الدخول بالنسبة للفرد فى العالم ؟

ولانريد ان يعددوا لنا أيام الاعياد التى ابتكرناها - كيوم الفلاح ، وعيد الفلاحة ، وعيد الحصاد ، وغيرها - وانما نريد منهم أن يعددوا لنا الفلاحين الذين يشربون الماء العذب النظيف ، ويستحمون داخل منازلهم ، لا فى مياه الترعة الراكدة .
نريد أن نعرف عدد الفلاحين الذين دخلت الكهرباء منازلهم وعدد القرى التى امتدت اليها أنابيب المياه النقية .

نريد أن نعرف نتيجة الحرب الطاحنة ــ التى خاضتها مراكز القوى بحناجرها وعبر أعمــدة الصحف المكممة ــ ضد الأمية فى الريف . وهل توجد مدرسة لمحو الاميه ، على الاقل ، فى كل قرية ؟ وهل حقا ماذكرته هيئة اليونسكو العالمية ، من أن الامية فى الريف المصرى تزداد نسبتها سنة بعد أخرى ؟

نريد أن نتلمس آثار الثورة العارمة ــ التى أشعلتهــا مراكز القوى بالخطب الرنانة وعبر الأثير وفــوق شاشــة التليفزيون ــ ضد أمراض الفلاحين المزمنة . هــل اختفت البلهارسيا والتراكوما والانكلستوما وغيرها من الامــراض المتوطنه ، من أجساد الفلاحين .. أم ان هذه الثورة تمخضت عن ترديد شعارات جوفاء تقول ان .. «الجهد كله موجه ومعبأ ومجند من أجل توفير الخدمة الصحية لكل مركز ، ولكل قرية ، ولكل بيت ، ولكل فلاح وفلاحة ، فى ريفنا المصرى .» ؟

نريد من الخبراء ، أن يجيبوا عن مجموعــة من الاسئلة ، منها على سبيل المثال :

كم عدد الفلاحين الذين يملكون ثوبا جديدا ؟

كم عدد الفلاحين الذين يأكلون وجبة ساخنة يوميا ؟

كم عدد الفلاحين الذين يتذوقون طعم اللحم مرة واحدة فى الشهر ، او حتى فى السنة ؟

كم عدد الفلاحين الذين ينامون فى غرفة لاتشاركهم فيها الماشية والحيوانات ؟

كم عدد الحفاة فى ريفنا البائس ؟

كم عدد المرضى الذين وجدوا علاجا نافعا ، وليس مجــرد ماء ملون ؟

كم عدد الجــرحى الذين وجــدوا سريرا فى الوحــدة أو المستشفى ؟

وعشرات أخرى من الاسئلة ، التى نعرف الاجابات المحزنة عنها ، مقدما .

.. ولكننا فى حاجة الى أرقام وآراء الخبراء ، حتى يكون معنا الدليل الواضح على مدى الاهمال الذى تعرضله فلاحنا المصرى البائس ، على أيدى زبانية مراكز القوى السابقة ، الذين عاشوا حياة أصحاب الملايين ، وملأوا آذاننا صراخا عن مستقبل الفلاح ، وحرية الفلاح ، وحق الفلاح ،و.. ماأحلاها عيشة الفلاح .

● أين التمثــال ؟ ●

الذى بددناه فى عشرين سنة ، لايمكن ان نجمعه فى سنة واحدة . هذه الحقيقة ، يبدو انها مازالت خافية على البعض . كما يبدو وأن البعض الآخر يعرفها جيدا ، ولنه يتجاهلها عن ســوء قصــد .

.. والا فما معنى هذه المظاهرات التى اخترقت شــوارع العاصمة ، تكسر وتخرب وتدمر ، بحجة غلاء المعيشة ..

وغلاء المعيشة ، أصبح فى الحقيقة ، يضغط على الاعصاب ويفقدنا الاحساس بأشياء كثيرة ، كنا أحرص ماتكون عليها فى الماضى .

ولكن ..

.. ان مسئولية هذا الفقر الذى يئن منه الشعب المصرى الآن ، لاتقع على كاهل الحكومة الحالية .. التى ارتفعت أصوات تطالب باقالتها ، وترحب بعهد النازى بدلا منها .

ولو كنت من رئيس الوزراء ، لبادرت بنشر قائمة بالقروض والفوائد المخيفة التى حصلت عليها مصر ، وتحملت نتائجها ، من الشرق والغرب ، خلال العشرين سنة الماضية .

ان حديث الارقام هو وحده الذى يمكن أن يقنع الجميع

بفداحة التركة التى ورثها الشعب المصرى ، عن الذين كانت أحلامهم الشخصية أهم بكثير من أحلام شعوبهم ..

وقد نشر ـ أخيرا ـ معهد الدراسات من أجل السلام فى ستكهولم ـ سيبرى ـ احصائية بالمبالغ التى صرفتها مصر على شراء الاسلحة وحدها ، منذ بداية الخمسينات وحتى يونية ١٩٦٧ ، فقدرتها بنحو ٦ آلاف مليون جنيه استرلينى .

وبالفعل استخدمت هذه الاسلحة فى أكثر من حـــرب :

فى سنة ١٩٥٦ حاربنا اسرائيل وفرنســـا وبريطانيا ، وخسرنا عسكريا ، وحصل العدو على مكاسب لم يعلم عنها الشعب شيئا ، الا بعد حـــرب ١٩٦٧ .

وفى ١٩٦٣ تورطنا فى حـرب اليمن ، التى استمرت ٥ سنوات ، وقالت بعض المصادر ان مصر صرفت على هذه الحرب نحو مليون جنيه استرلينى يوميا .

ثم تورطنا فى حرب ١٩٦٧ . أرادها البعض مناورة سياسية فتحولت ـ رغما عنه ـ الى هزيمة طاحنة وكاسحة .

ودفعت مصر ـ كما قال د . كمال أبو المجد وزير الاعلام ـ أكثر من ١٠ آلاف مليون جنيه لاعادة بناء الجيش من درجـة الصفر ، حتى أمكن تحقيق النصر فى ٦ اكتوبر بفضل القيادة السياسية الحكيمة ، والقيادة العسكرية الواعية .

ان هذه الآلاف من الملايين التى صرفها الشعب على بنـد واحد هو بند : السلاح ، كان يمكن توفير جانب كبير منها ، لو كنا أكثر تواضعا فى احلامنا ..

لو حدث هذا لما كنا فى حاجة إلى بناء جيشنا ، ثم تحطيمه ، ثم اعادة بنائه .. وهكذا عدة مرات خلال سنوات قليلة ، وهو مالم يتعرض له أى جيش آخر فى العالم .

والصورة تصبح أكثر وضوحا اذا حدثنا رئيس الوزراء عن آلاف الملايين الاخـرى التى صرفت فى الماضى القـريب ،

خارج حدودنا ، من أجل تدعيم أنظمة متداعيـة ، ويهـدف اسـقاط حكومات معادية .

وتصوروا ماذا كان يحدث لمصر لو صرفت هـذه الاموال كلها من اجل التصنيع ، او من أجل تعليم الشعب ،وعلاجه، واسـكانه ، وأطعامه .

ان من السهل جدا على الحكومة الحاضرة أن تستأنف سياسة الماضي التى تتلخص فى «تأجيـل مشروعات التنمية والغـاء الخطط الخمسية واغراق المجمعات الاستهلاكية بالزبد الفرنسى، والدواجن الدنماركية ، والدقيق الامريكى ، والمكسرات وقمر الدين» .. كما حدث فى أعقاب هزيمة يونيه ٦٧ مباشرة ، كمحاولة من الحكام لامتصاص غضب الشعب وثورته الذى لم يقدر وقتذاك فداحة الهزيمة .

لو فعل رئيس الوزراء الحالى هذا ، لما خرجت المظاهرات فى شوارع القاهرة تطالب براسه .

.. أو ربما خرجت الجماهير لتطالب باقامة تمثـال له فى ميدان التحرير .

● حتى لانكون مثل جاك ●

كان أستاذنا الكبير محمـد التابعى ، صـادقا مع نفسـه ومخلصا لبلده ، عندما كتب منذ سـنوات طويلة ، يحـذر الحكومة من (هوجة) التصنيع التى اجتاحت بلادنا .

لقد طالب الاستاذ التابعى بأن تكون لنا سياسة صناعية، مرسومة على أساس علمي،متعارف عليه دوليا ، حتى لانصبح مثل «جاك» الذى يصنع كل شىء ، ولا يجيد صنع أى شىء .

ويومها تعرض الاستاذ التابعى لهجـوم عنيف من مراكز القوى ، كما تطوع بعض الكتاب والصحفيين ، ومنهم أساتذة

كبار ، وشنوا هجوما قاسيا على التابعى واتهموه بالرجعية، وبالعداء للصناعة ، وبالعمالة الانجليزيه التى كانت تصرعلى أن مصر يجب أن تبقى بلدا زراعيا ولاشأن لها بالصناعة .

ومرت السنوات ..

وكانت النتيجة تماما كما توقعها الاستاذ التابعى ، وكما حذرنا من عواقبها .

أصبح لدينا الآن صناعة واسعة ، وضخمة ، وهائلة .
وأصبح انتاجنا الصناعى،يغمر الاسواق المحلية والعالمية .

.. ولكن :

صناعات كثيرة لم تنجح . انتاج غزير لم يمتص . بضائع هائلة تكدست داخل العلب والصناديق وفوق الارفف فى المحلات ، لم تمتد اليها أيدى الجماهير .
وشكلت لجان لدراسة هذه الظاهرة الخطيرة . ووضعت توصيات . وقال الخبراء ان صناعة الابرة والصاروخ،لاتصلح لمصر التى مازالت فى طور التنمية . وان عليها أن تقتصر فى المرحلة الاولى على تقوية الصناعات المحلية التى تخصصت فيها وأبدعت واشتهرت .
.. هذا الرأى أكده وأيده ـ اخيرا ـ الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله ، وزير التخطيط وقتذاك ، عندما قال :
ـ « من أخطاء التخطيط الصناعى فى مصر ، عدم وضوح الرؤية بدرجة كافية لموقفنا من السوق العالمية وبالتالى لاختيارنا للصناعات التى تعطيها الأولوية . ومصر بلد متوسط الحجم ، ولا يمكن ان ينتج كل المنتجات الصناعية . وعلينا ان نركز على منتجات صناعية تمتاز فى انتاجها نسبيا ، ثم نصدر الانتاج بما يغطى شراء مايلزمنا من منتجات أخرى .» وجاء هذا الاعتراف متأخرا جدا .
فكم من آلاف الملايين خسرناها ، لا لشىء الا لكى نملأ الدنيا ضجيجا باننا دخلنا عصر الصناعات الثقيلة .
وكم من مصانع كان يجب اغلاق أبوابها ، بسبب خسائرها المالية ورداءة انتاجها لها ولكن الحكام أبقوا عليها ، حتى

يضيفوا أرقامها الى قائمة المصانع التى كان لهم «شرف» افتتاحها .

وكم من ملايين الجنيهات ـ بالعملات الصعبة ـ اقترضناها من أجل استيراد مصانع ، لم يحقق انتاجها عشر ما كنا نتوقعه ونتمناه .

وكل هذا لايهم .

فأولوا الامر فينا ، لم يكن يهمهم أى شيء . الخسائر لاتتحملها جيوبهم . والديون لن تخصم من التركة التى ستترك لأولادهم من بعدهم . واستمرار تشغيل هذه المصانع الخاسرة ، تتحمل خزانة الدولة ـ لاخزائنهم الخاصة فى بنوك سويسرا ـ أعباء هذا التشغيل الخاسر .

لم يكن من بينهم من يمكنه أن يتحمل المسئولية ، وأن يأمر بوقف هذا الجنون الصناعى الغير مجدى .. كأن البلاد ليست بلادهم . وكان المال ليس مال شعبهم . وكأن الجريمة ليست جريمتهم .

لو كان أولو الامر فينا على مستوى القيادة الرشيدة فعلا ، لكان يجب أن يكونوا اكثر تواضعا ، وأن يصعدوا السلم الصناعى بنفس الخطوات التى أخذت بها جميع الدول التى اشتهرت بانتاجها الممتاز والعالمى .

ففرنسا ـ وهى من دول العالم الكبرى ـ لاتنتج كل شيء . وسويسرا ـ التى ضربت المثل فى الصناعات الدقيقة والالكترونية ـ لم تفكر حتى الآن فى صناعة السيارات مثلا رغم انها تصنع بعض الاسلحة الحديثة والمتطورة ..

.. وهكذا .

ان الدولة التى تخطط لمستقبلها الصناعى السليم ، هى تلك التى تطبق سياسة «خطوة خطوة» .. «مرحلة مرحلة» .. أما «الهوجة» التى اندفعنا فيها فى السنوات الماضية ، لالشيء الا لنقول اننا نصنع كل شيء .. من الابرة للصاروخ ، فهى التى جعلتنا أشبه ببطل المسرحية «جاك» الذى كان يصنع كل شيء ، ولا يجيد صناعة أى شيء .. وكم من «جاك» كان يصول ويجول ـ بل حرية ـ فى بلادنا خلال السنوات الماضية !

سنوات التزييف

- احتفال حقيقى .. واحتفالات زائفة
- البطـــل الحقيقى
- جريمـــــة بطـــــل

● احتفـــال حقيقى .. واحتفالات زائفة ●

احتفلنا بأول عيد نصر حقيقى فى تاريخ مصر الحديث.

ذهبنا جميعا لمشاهدة الاستعراض العسكرى الكبيـــر ، بمناسبة مرور السنة الاولى على انتصار ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

وكان الاحتفال ، يختلف كثيرا عن باقى احتفالات الزيف التى كانت تفرض على الشعب خلال السنوات الطويلـــة الماضية .

كان المواطنون يصطفون على الجانبين ، لساعات طويلة تحت أشعة الشمس الحارقة ، احتفالا بنصر لم يتحقق الا فى خيال الذين أمروا بتنظيم تلك الاحتفالات .

كان الشعب يرى ، ولكنه لايبتسم !

كان قلبه يبكى على هذه المهزلة التى يشـــاهدها أمامه ، وعلى ملايين الجنيهات التى صرفت عـــلى هذه الاحتفالات الكاذبة .

الهزيمة كانت تمزقنـــا ، وفى نفس الوقت كانت الخطب البليغة ، تتحدث عن معجزة الانتصارات الوهميةالتى حققناها فى مشارق الارض ومغاربها .

تهدمت مدننا وقرانا ، تساقطت حصوننا وقلاعنا ، واولو الامر فينا يحاضروننا — ليل نهـــار — فى كيفية التصرف والتعامل مع الغــير كعمالقة ، امســكنا الدنيا والآخـرة فى قبضتنا .

الالوف جرحوا وقتلوا فى حرب اليمن البعيدة عنا بآلاف الاميال . والمهرجانات مستمرة احتفالا وتخليدا لهذا الــدم الذى سال كالماء فوق جبال اليمن السعيد .

وعشرات الآلاف ماتوا فى حرب أخرى أسموها «النكسة» ورفضوا

اعتبارها «هزيمة» وخرجت الابواق ــ وقتذاك ــ تهلل وتقول اننا لم نهزم وانما انتصرنا ، فنحن لم نحارب اسرائيل وحدها، وانما نتصارع ضدأقوى دولة فيالعالم ، هى الولايات المتحدة الامريكية .

الوحدة اليتيمة مع سوريا ، أصيبت بضربة الانفصال القاصمة ، بعد شهور قليلة من اعلانها وعادت سوريا الى اسمها : الجمهورية العربية السورية ، أما نحن فقد اصررنا على الاحتفاظ باسم : الجمهورية العربية المصرية . المتحدة مع من ؟ لاأحد يدرى !

والمذهل أن حكامنا اصروا على الاحتفاظ بهذا الاسم .. وخرج كبار كتابنا ــ سامحهم الله ــ ليبرروا هذه السخافة ولاقناعنا بأن المبدأ هو الهدف .. والوحدة هى الامل ، حتى ولو اجهضت فى شهورها الاولى .

كل هذه الاحتفالات الزائفة ذهبت الان الى غير رجعة .

وتذوقنا ــ بالامس ــ الاحتفال الحقيقى الاول فى تاريخنا الحديث .

كان استعراض الجيش ، قويا ، رائعا ، ولكنه ابدا لم يكن مثل باقى الاستعراضات المزيفة التى كنا نقيمها فى بورسعيد ، فى ٢٣ ديسمبر من كل عام ، احتفالا بالانتصار العسكرى (!) على فرنسا وانجلترا واسرائيل فى سنة ١٩٥٦ .

استعراض اليوم كان يعبر عن انتصار حقيقى لجيشنا فى اكتوبر ١٩٧٣ . أما استعراضات ديسمبر ١٩٥٦ ، فكانت تعبر عن الانتصار الزائف ، الذى حوله أولو الامر فينا ، الى أسطورة غنى لها المطربون والمطربات وألف الكتاب كتبا عنها .. وعن أبعادها وبطولاتها .

وانتصار اكتوبر ٧٣ لم يكن سهلا .. فالحقيقة لم تكن ابدا سهلة . ولقد تحمل الرئيس السادات فى سبيل تحقيقها الكثير من النقد القاسى الجارح ، من أهل اليسار وأهل اليمين من داخل الحدود ومن خارجها .

ولكنه لم يفقد أعصابه .. لم يتهور . لم يسمح لاحـــد بأن يستدرجه لحرب لم ينته بعد من الاستعداد لمواجهتها .

احتفظ السادات بهدوء أعصابه وتحلى بالصبر ، وأصر على الصمت .. حتى فاجأ العالم كله بمعجزة العبور فى ٦ اكتوبر عام ١٩٧٣ .

وعندما ذهب السادات الى مجلس الشعب للاشتراك فى تكريم الضباط والجنود الابطال ، القى كلمة قصيرة فيها من التواضع ، أكثر مما فيها من فرحة الانتصار .. فيهـــا من الدعوة للســـلام ، أكثر مما فيها من نشوة العمل العظيم .

وهذا هو السادات .

وهذا هو الاحتفال الحقيقى ، بأول اعياد نصرنا .

* * *

● وهـــذا هو البطل الحقيقى .. ●

لم ابك على المشير احمد اسماعيل على . فالموت حق . وهذه هى ارادة الله .. ولن نستطيع أن نعيده بالبكاء الى الحياة مرة أخرى .

ولكننى أذكر أننى تألمت من اجله ، وقبل وفاته بعـــدة سنوات .

وقتها كان ــ رحمه الله ــ قائدا كبيراً ومرموقا . اختير ليشارك فى انقاذ ما يمكن انقاذه من العسكرية المصرية ، بعد هزيمة يونية الفادحة .

وتحمل أحمد اسماعيل جانبا من المسئولية الصعبة ، وبدأ من الصفر فى اعادة العسكرية السليمة الى عقول وأجسام أصابها الخوف ومزقها الوهن .

وفجأة تطالعنا الصحف بقرار اعفاء احمد اسماعيل من جميع مهامه العسكرية . وسارعت مراكز القوى ، فى محاولة منها للتطاول عليه ، تبريرا للقرار العجيب ، فقالت ان سبب الاعفاء يرجع الى اتاحة الفرصة للقيادات الشابة والمثقفة ، فى الجيش ، لتولى المناصب القيادية فى القوات المسلحة .

وقالوا أن المشير كان مسئولا عن نجاح رجال الكوماندوز الاسرائيليين فى اختطاف جهاز الرادار المصرى والعودة به الى اسرائيل ، بواسطة الهيليوكوبتر ، لانه لم يعزز الحراسة على هذا الجهاز السرى .

وابتعد احمد اسماعيل على ، عن ضباطه وجنوده .

ولكنه أبدا لم يبتعد بفكره عن الهدف الوحيد الذى كرس له حياته كلها وهو : تحرير أرض مصر .

ولم يكن وحده الذى يتألم . تألم من أجله جميع الذين عرفوه وتتلمذوا على يديه ، وآمنوا بوطنيته ، وباخلاصه لبلده .

وكان الرئيس أنور السادات فى مقدمة هؤلاء .

كان السادات يعرف من هو احمد اسماعيل .. وكان يقدر فداحة الخسارة التى لحقت بالجيش بسبب أبعاده عنه .

وعندما تولى أنور السادات رياسة الجمهورية ، بدأ فى تصحيح جرائم من سبقه . فاختار أحمد اسماعيل لمنصب مدير المخابرات العامة . ثم اسند اليه وزارة الحربية بعد اعفاء الفريق اول محمد أحمد صادق .

كان السادات يثق فى أحمد اسماعيل بلا حدود .

وتحققت آمال السادات .. وتمت المعجزة التى هزت الدنيا ، وعبرت قوات أحمد اسماعيل القناة وحطمت خط بارليف .

الرجل الذى خطط ونفذ هذه المعجزة ، تآمرت عليه مراكز القوى ذات يوم وأبعدته عن الجيش ، وحاولت أن تلطخ سمعته العسكرية .

يومها كان علينا أن نحزن ونتألم من اجل القائد أحمد اسماعيل .

فقد تآمروا عليه ، ولم يسمحوا له بالدفاع عن نفسه ، وحتى لو سمحوا لرفض هو أن يتكلم . فالقائد الشجاع ، يتحمل دائما ضربات الجبناء .

ثم مات المشير احمد اسماعيل بعد أن حقق لمصر ما تمناه لها

مات .. وسيبقى دائما أنشودة تتردد فوق شفاه الاجيال القادمة .

أما الذين حاولوا قتله حيا ، فقد ابتعدوا ، وضاعوا ، وسقطوا من حساب التاريخ !

* * *

● وهذه جريمة بطل .. ! ●

كان ملازما أول طيارا عندما أشترك فى معركة جوية ، فى الخمسينات ، وأسقط مقاتلة اسرائيلية فوق رمال سيناء .

وكرمته الدولة ، ومنحته نجمة الشرف .

ثم اشترك — بعد هزيمة ٦٧ — فى معركة جوية مخيفة ، وأسقط قاذفة اسرائيلية .. واقيمت له حفلات التكريم فى كل مكان .

الصحافة كتبت عنه . والحكومة منحته مئات الجنيهات مكافأة له على شجاعته .. والجيش منحه ارفع الاوسمة تقديرا لبطولته ، وتسابق قادته لتدليله ، وتحقيق أمنياته .

ولكن الطيار « على ماسخ » ، رفض هذا كله .

كان يريد شيئا واحدا يعذبه ، ويقلق نومه ، ويحرمه من متعة الحياة ذاتها . كان يريد ان يغسل العار الذى لحق

بالجيش ، وزلزل الامة ، وحطم العقول والقلوب فى كل مكان كان يريد أن يحارب وأن يشارك فى طرد القوات الاسرائيلية التى احتلت سيناء ، ووقفت عند حافة قناة السويس .

وكان يؤلم المقدم طيار على ماسـخ ، ان كل ما يراه من حوله ، يؤكد أن مراكز القوى فى واد ، وآمال الشعب فى واد آخر . الشعب والجيش يريدان الانتقام وطـرد العـدو الاسرائيلى ، ومراكز القوى تكتفى بكـلام يبدده الهـواء ، وبتهديدات فارغة يسخر منها الصـديق قبل ان يتجاهلها العدو .

ثم جاء من يزف لعلى ماسخ بشرى موافقة عملاق مراكز لقوى على استقباله فى منزله ، والترحيب به وتكريمه .. إفرح على ماسخ .. واعتبر هذه المناسبة بمثابة فرصـة لعمر ليقول للعملاق رايه بصراحة فيما يشعر به ويتألم له .

واثناء الحفل ، طلب على ماسخ الاذن بالكلام . وقال رايه بصراحة اذهلت جميع الحاضرين .

قال على ماسخ ــ بحسن نية وبحماس الوطنى الغيـور على شرف بلاده ــ أن دولة تريد الحرب يجب أن تعمل فعلا من أجل الحرب .. ولكن الـذى يراه حاليا لا يمت بصلة لاستعادت الحرب . فالجيش لا يملك اسـلحة وطائرات يحارب بها .

وكأنه نطق كفرا .

وعندما انتهى حفل الاستقبال ، لم يذهب على ماسخ الى منزله وأولاده ، وانما اقتادوه الى السجن الحربى .. وهناك وجد فى انتظاره مدير المخابرات العسكرية ــ اللواء محمد احمد صادق ــ الذى انهال عليه بالتهم والشتائم والتجريح .

والقوا به داخل غرفة صغيرة ، لايدخلها الضوء ولا الهواء .

وبعد شهور ، اخرجوه من الغرفة الخانقة ، ليقف أمـام محكمة عسكرية بتهمة التآمر على امن الدولة ، والعيب فى ذات مراكز القوى ، والسخرية من سياسة دولة صديقة كبرى .

وطالبت النيابة براس البطل على ماسخ . او على الاقل بسجنه بالاشغال الشاقة المؤبدة .

ولم يقتنع رئيس المحكمة بأدلة الاتهام الواهية .. ولكنه — فى نفس الوقت — لم يستطع أن يحكم بالبراءة . فاختار الحل الوسط ، وحكم على على ماسخ بالسجن لمدة ٣ سنوات .

وهكذا ...

فقدت القوات الجوية بطلا من خيرة ابطالها .

وفقدت البلاد أملا من آمالها .

وفقدت خزانة الشعب عشرات الآلاف من الجنيهات التى صرفتها من اجل تعليم وتدريب الطيار على ماسخ .

حدث هذا كله بسبب عبارة واحدة قالها على ماسخ ، واعتبرتها مراكز القوى تحقيرا لها ، ومساسا بالهالة الزائفة التى أحاطت بحكمها وتصرفاتها .

وعندما انتهت سنوات السجن الثلاث ، أمرت مراكز القوى بعدم الافراج عن البطل الطيار . واستمر سجنه فى السجن الحربى . لا أحد يعرف متى يفرج عنه ، ولا أحد يستطيع أن يسأل لماذا لم يفرج عنه .

وكان يمكن أن يبقى على ماسخ فى زنزانته بالسجن الحربى الى آخر يوم فى حياته ، لولا قضاء الله الذى خلص البلاد من مراكز القوى الى الابد ، وتولى الرئيس أنور السادات رياسة الجمهورية .

وكان على ماسخ من أوائل الابرياء الذين أفرج عنهم السادات . فقد كان على علم بحكايته . وببرائته . وبوطنيته وقد تدخل أكثر من مرة من أجل الافراج عنه ، ولكن مراكز القوى رفضت وساطته .

ولم يفرج أنور السادات عن على ماسخ فقط ، وانما أمر باعادته فورا الى القوات الجوية ومساواته مع زملاء دفعته الذين تخطوه فى الترقية خلال فترة سجنه .

وعاد البطل على ماسخ الى نور الحرية .

* * *

سنوات الخوف

- تحرروا من الخـــوف
- سقطت ديكتاتورية الرأى الواحد
- حرية الشعب فى الاختيــــار
- فى انتظار رالف نادر المصرى

● تحرروا من الخوف ●

نحن فى حاجة الى عشرات الكتب بأقلام جميع الذين اشتركوا أو ساهموا فى الحكم ٠ لقد كان فى تقدير مراكز القوى أن تخصص شخص واحد لكتابة تاريخ مصر الحديث ، حتى يمكن تشويه هذا التاريخ ، وتزويره ، وتلفيقه لحسابهم٠

ولحسن حظ مصر أن هذا الهدف لم يتحقق ٠ والحرية التى نتمتع بها الآن لن تسمح أبدا لاية جهة — مهما بلغت قوتها أو سيطرتها — أن تقصر كتابة التاريخ على شخص واحد ٠

والمطلوب الآن آن يتحرر البعض من الخوف ، وأن يكتبوا وينشروا ما عرفوه ، ورأوه ، وسمعوه ، خلال الفترة التى اقتربوا فيها من مراكز المسئولية ، ومن مكاتب كبار المسئولين ٠

فمثلا ٠٠

نحن فى انتظار كتاب لاحد كبار المسئولين السابقين ، والذى تولى أخطر المناصب وأثقل المسئوليات حتى سنة ١٩٦٣ ٠ ثم فجأة أبعد عن القيادة وعزل من جميع مناصبه ٠ وحددت اقامته ٠

حدث هذا بلا قرار رسمى وبلا محاكمة وبلا سبب معروف ٠

ومن حق الشعب الآن — فى عهد الحرية — أن يقال له بلسان وقلم هذا المسئول ، عن أسباب هذا كله ٠ وهل حقيقة اعترض على توريط الجيش المصرى فى مغامرة حرب اليمن ، التى امتصت آلاف الشهداء من ضباطنا وجنودنا ، وأذابت رصيدنا من اليمن فوق جبال اليمن الساخنة ؟

ونحن فى لهفة لكتاب مسئول سابق آخر أشتهر بعصاه

السحرية ، فى بداية الثورة ، بسبب المشروعات الشعبية والعمرانية التى أشرف عليها ونفذها · وفجأة أختفى عن الأنظار · وأسدل الستار أمامه وحوله ·

مطلوب منه اليوم أن يقول لنا لماذا منع من الكلام ؟ وما هو دوره ورأيه فى كل ما رآه ، وسمعه ، وشارك فيه ، واعترض عليه ؟

ومطلوب من مسئول سابق ثالث ، أن يكتب لنا قصته · لقد لعب هذا المسئول دورا خطيرا ، فى تاريخ مصر الحديث · وشارك فى الحكم حتى يونية ١٩٦٧ ، ثم فجأة يختفى عن الأضواء · قيل انه قدم استقالته · وقيل ان السبب اقالة ·

وهناك من قال ان الروس هم الذين أصروا على ابعاده ـ بعد النكسة ـ مقابل اعادة تسليح الجيش المصرى ، باعتباره « رجل أمريكا » فى الحكومة ·

وهناك من يتهم مراكز القوى بانها هى التى تولت ابعاده حتى لا تزداد سطوته ، وتتسع دائرة أنصاره ·

فأين الحقيقة من هذا كله ؟

ويهمنا أن نقرأ كتابا لمسئول رابع ، أبعد عن المسئولية منذ بداية الثورة . ووصفه البعض بأنه الضابط الاحمر ، بسبب الماركسية التى يؤمن بها ، وتحمل الكثير فى سبيلها . من الذى أبعده عن الحكم ؟ ومن هو هذا المسئول الذى أعفاه من مناصبه القيادية . عقابا له على ميوله العقائدية وغير العقائديه ؟

كانت هذه عينات فقط ، من سلسلة الكتب التى ننتظر صدورها بفارغ صبر ، وبأقلام عشرات الأسماء المعروفة والغير معروفة · الذين أبعدوا عن الحكم ، والذين شاركوا فيه من بعيد ·

ان هذه الكتب المنتظرة ، ليس الغرض منها محاكمة الماضى ، أو محاولة لتشويه تاريخ زيد أو عبيد ، وانما الهدف

منها هو تقديم الحقائق للجيل الحالى وللاجيال القادمة ، وبلا تشويه وبلا تزييف ٠

انني أتحدث هنا نيابة عن جيلى ، الذى تفتحت عينه وتنبه عقله على ثورة يوليه ١٩٥٢ . لقد التففنا حول قادة هذه الثورة ، عند قيامها ، ولم نزل بعد فى سن مبكرة ٠ ومن حقنا الآن أن نطالب بوضع نهاية لهذه البلبلة التى نسبح فيها ونبحث عبثا عن شاطىء للنجاة ٠

لقد تعرضنا ـ نحن الجيل الجديد للثورة ـ لأغرب عملية غسيل مخ فى تاريخ مصر ٠ لقد خدعتنا مراكز القوى عندما فصلتنا عن ما قبل ١٩٥٢ ، باعتبار ان هذا الماضى كان وهما وسرابا وخرابا وفسادا ٠ ولم تسمح لنا مراكز القوى الا بالاطلاع على ما كانت تكتبه وتملأ به كتبنا الدراسية ٠

ان البعض ينادى باعادة كتابة التاريخ ٠ ومن المستحيل أن يكتب التاريخ بدون مساعدة من الذين اشتركوا أو راقبوا صنع هذا التاريخ ٠

ومهمة المؤرخ سوف تسهل كثيرا عندما يجد تحت يده مئات الكتب ، وآلاف الوثائق ، وملايين الأحداث ، ليختار منها ، ويحقق فيها ، ويقارن فيما بينها ٠

ولن نخشى أن يحاول البعض خداعنا ، بتزوير الحقائق ، لأن البعض الآخر سوف يمدنا . قطعا ، بالوثائق التى تكشف هذا التزوير ٠

● سقطت ديكتاتورية الرأى الواحد ●

نحن فى حاجة عاجلة الى هيئة ـ غير حكومية ـ تتولى متابعة اتجاهات الرأى العام فى مصر ورفعها أولا بأول الى الحاكم ٠

ان لدينا أغلبية صـــامتة ، ولكنها غير مؤثرة حتى الآن • فصوتها الحقيقى لا يصل الى مكاتب المسئولين ، أو ربما يصل ناقصا ، أو حتى مشوها •

فى جميـــع دول العالم المتحضر ، تنتشر مثل هذه المكاتب المتخصصه فى استطلاع راى المواطنين فى كل مشـــكلة عامة تطرا ، وعند مواجهه ايه سياسة جديدة تطرح • مهما كانت المشكلة نافهة ، ومهما كانت السياسة واضحه •

ومصر هى أحوج دول العالم لمن يسأل شعبها عن رأيه فى مشاكله ، ومدى تصوره لنجاح أو فشل سياسة حكامه •

لو أن أحد مكاتب استطلاع الرأى ، قام بسـؤال الاغلبية الصامتة المصرية ، فيما يجرى لحاضرها وما تتمناه لمستقبلها ، فمن المؤكد اننا سنفاجأ بآراء لم تكن تخطر على بال المسئولين ، ولسارعوا بتغيير الحاضر ، وخططوا للمستقبل على ضوء وجهة نظر الشعب الجديدة •

كم أتمنى أن تسأل الاغلبية الصامتة ، عن رأيها فى تقييم سلبيات وايجابيات سنوات النكســة ، وما قبلها ، بعيدا عن تشنجات البلهاء ، وأكاذيب العملاء ، وأضاليل البلغاء •

كم أتمنى أن يسـمح للشـــعب باعلان رأيه فى مشروعات الوحـــدة التى لم تتحقق حتى الآن ، مع حكومات الدول التى تشتمنا علنا ، وتعتذر لنا سرا •

كم أتمنى أن تقول الاغلبية الصامتة رأيها فى كيفية حـــل أزمة الشرق الاوسط ، التى امتصت خيراتها وأســالت دماء شبابها ، وانتهكت حدودها ، واحتلت أرضـــها ، فى الوقت الذى ازداد فيه ثراء الدول العربية الاخرى التى لم تحارب ولم تساهم فى دعم المعركة •

كم أتمنى أن يقول شعب مصر رأيه فى هذه الحرب المستمرة منذ سنة ١٩٤٨ وحتى الان ، بيننا وبين اسرائيل ، لا من أجل استرداد الارض المصرية ، وانما لاسترداد آراضى الاشـــقاء العرب ومنهم من يملأ أعمدة صحف بيروت وطرابلس بالتشائم

والتجريح والتشــنيع ٠٠ ضــد مصر وشــعبها ، وحكومتها ، ورئيسها ٠

كم أتمنى أن يسمح لأغلبية الشعب المصرى ، بابداء رأيها فى سياسة بلادها الخارجية ، لتحدد لحكومتها الدول الصديقة التى يجب التقارب منها ، والدول الغير صــديقة التى يجب الاحتراس منها ٠ ان رأى الاغلبية الصامتة ، هو الذى سيضع حدا لهذا التناحر بين قلة صــارخة تنادى : « نحن وأمريكا ، وبعدنا الطوفان » ، وقلة اخرى أعنف صراخا تقــول : « نحن وروسيا ، أو الموت الزؤام » ٠

أريد أن تسمع الحكومة رأى الأغلبية الصــامتة فى اقتراح تطوير الاتحاد الاشتراكى ، وقيام الأحزاب السياسية ، فالذين قالوا رأيهم ــ بأعلى صوت ــ فى هذا الاقتراح لا يمثلون ــ رغم كثرتهم ــ الاغلبية العظمى من الشــعب التى لم تتكلم ، ولم يسمع صوتها ٠

أن للأغلبية الصامتة من يصــورها ويمثلها تحت مجلس الشعب ٠ ولكن عند التعرض للمشاكل الهامة جدا ، والحيوية جدا ، فان الصورة لا تغنى أبدا عن الأصل ٠

لقد عشنا طويلا ، ولم يسمح ســوى لفرد واحد ــ ومعه شلته المحدودة العدد ــ بالأمر والنهى فى كل صغيرة وكبيرة فى حياة الشعب المصرى ٠

ولقد آن الاوان لشعب مصر ، ليرفع صــوته ، ويناقش ، ويرفض ، ويقبل ، ويعترض ، ويقرر ٠

ان عهــد الاقطــاع الفكرى ، والديكتاتورية فى اتخــاذ القرارات ، قد انتهى بــلا رجعــة !

● حرية الشعب في الاختيار ●

ليس مهما السلاح الذى سنحصل عليه من فرنسا · الأهم من هذا السلاح ، هو المعنى الذى يرمز اليه ·

نحن لسنا ضد الدول الشيوعية · ولا ضد علاقات الصداقة مع دول أوربا الشرقيـــة · بل على العكس نحن ندين بالكثير لهذا المعسكر ، الذى ساعدنا فى أزماتنا ، ووقف الى جانبنا فى معاركنا ·

فلولا صداقتنا مع العالم الشيوعى ، لما حصلنا على الاسلحة من تشيكوسلوفاكيا فى الخمسينات ومن الاتحاد السوفيتى فى الستينات وأوائل السبعينات ·

ولـــكن ··

ان النافذة التى فتحناها على الشرق ، منعت عنـــا الهواء القادم من الغرب ·

عشنا السنوات الطويلة الماضية فى شبه حرب مستمرة ، باردة حينا وساخنة حينا آخر ، ضـــد العالم الغربى · العالم الذى اتهمناه بالاستعمار مرة . وبالامبريالية آلاف المرات ·

وحقيقة اننا عانينا ، من بعض دول هذا المعسكر ، الكثير من الآلام ··

عانينا من الاستعمار الفرنسى ، والاستعمار البريطانى ·

وعشنا تحت نير الاحتلال عشرات السنوات ، كانت فيهـــا بلادنا كالبقرة الحلوب للمحتل ، لا لأصحابها ·

ولكن هذه الفترة المخجلة فى حياتنا ، قد انتهت منذ زمن طويل ، وأصبحنا دولة حرة ومستقلة يحكمها أبناء مصر ·

كما أن المستعمرات الفرنسية والبريطانية بدأت تتقلص فى جميع أنحاء العالم بصفة عامة ، وفى منطقتنا العربية بصفة خصة ٠

ووضح منذ فترة طويلة ، ان عواصم أوربا الغربية تريد أن تقيم علاقات طبيعية وطيبة مع العواصم العربية ، وبعد أن انحلت عقدة المستعمر ، وتلاشى مركب نقص المحتل ٠

ورفض أولو الأمر فينا ـ أيام مراكز القوى السابقة ـ مصافحة اليد الممدودة ، وبدء علاقات جديدة بيننا وبين العالم الغربى ٠

وحاولوا اجبارنا على كراهية كل ما هو من الغرب ، ورفض كل ما يأتينا منه ٠

وتطوعت أجهزة الاعلام ـ وقتذاك ـ لتعلن ، بكل بساطة ، أن المجتمعات الغربية تعيش حاليا فى حالة انحلال مزمن ، سيؤدى بها حتما الى الانهيار ، والفساد والكساد ٠

وأسرفنا فى اطلاق الصفات والنعوت للشعوب الغربية ٠٠

اتهمناها بالرجعية المتعفنة ٠ وبالاستعمار البغيض ٠ وبالامبريالية الجديدة !

كل ابتكار جديد يعلن عنه فى العالم الغربى ، كنا نستخف به ونسخر منه ، ونؤكد أن أصحابنا فى العالم الشرقى لديهم أحسن وأفضل منه مليون مرة !

اذا أعلن عن سلاح غربى جديد ، وصفه الخبراء بانه أقوى سلاح ظهر حتى الآن ، بادرنا بطمأنة قلوبنا ، والاصرار على أن المخازن الشرقية ممتلئة بأسلحة سرية ، يبدو أمامها السلاح الغربى الجديد أشبه بلعبة الطفل !

أى نجاح علمى يحققه الغرب ، كنا نمنع نشره فى صحفنا ، واذا اضطررنا للنشر ، فلا بأس بثلاثة سطور على الاكثر ، وفى قاع صفحة داخلية !

وأى نجاح علمى يحققه الشرق ، حتى ولو جاء هذا النجاح

متأخرا ومتواضعا ، فأن حملة دعاية وتهليل تبدأ من أجلهفوق صفحات صحفنا الأولى ، ولعدة أيام متصلة !

وحرمنا من الافلام الغربية العالمية ، لانها ـ كما قالوا لنا ـ تؤثر على النشء ، وضد الاخلاق ، وضد المثل العليا !

وجاءت فترة اقتصر فيهـــا التليفزيون المصرى على عرض الافلام الشيوعية وحدها !

واســتمرت سنوات الغيبوبة طويلة وثقيلة ، الى أن أعادنا أنور السادات الى وعينا مرة أخرى • فتح لنا الابواب لننطلق منها الى مشارق الارض ومغاربها !

ومد لنا جسور التعامل والتعاون مع شـــعوب وحكومات الكتلة الغربية التى أسـقطناها من حســاباتنا طوال الفترة الماضية •

وليس سرا ما حققته هذه السياسة الجديدة من مكاسب لمصر وخسائر لاسرائيل •

ويكفي فقط أن نذكر هنا أن فرنسا كانت الدولة الوحيدة التى تعتمد عليها اسرائيل فى تزويدها بالاسلحة والطائرات خلال حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ ، ثم أصبحت فرنســـا هى الدولة الوحيدة التى لا تســـتطيع اسرائيل ان تشترى منها السلاح • ليس هذا فقط بل ونجحت مصر أخيرا في عقد صفقة أسلحة فرنسية لأول مرة فى تاريخ العلاقات بين البلدين •

وليس هذا معنـاه اننا ســنبدأ مرحلة عـداء وكراهيـة ـ جديدة ـ تجاه الكتلة الشرقية الشيوعية • وانما معناه اننا نريد أن نزيد من عدد الدول الصـــديقة ، وأن نزيد من عدد الاسواق التى نتعامل معها •

كنا فى الماضى لا نجد سوى متجر واحد يبيع لنا كل شيء ، ويشترى منا كل شيء •

لم يكن مسموحا لنا بدخول المتاجر الاخرى لنشترى منهـا الاحسن ، ولم يكن من الممكن أن نبيع انتاجنا الا للمتجر الواحد الذى أوقفنا تعاملنا عليه وحده •

وقد تغير الان هذا الوضع · وأصبح أمامنا أكثر من محل · الأول في الشرق والآخر في الغرب ·

ومن حقنا الان أن نتجول داخل المتجرين .. نعاين البضاعة هنا وهناك ، ونختار منها الاحسن ، والامتن ، والارخص .

البائع الذى يتعبنا نتركه ، ونمضى بعيدا عنه .

والبائع الذى يريحنا نتردد عليه ، ونعتمد عليه .

اذا فعلنا هذا مرة ، فمن المؤكد أن البائع الاول سوف يغير من معاملته لنا على الفور . سيصبح أكثر تعاونا ، وأقل جشعا ، واحرص على مصالحنا .

هكذا تقول الف باء التجارة .

اذا أختفت المنافسة ، ازداد البائع الأوحد قوة ، وجشعا ، وازداد المشترى ضعفا وحرجا .

واذا عادت المنافسة ، واذا تعددت المحلات التجارية ، فان المشترى هو الذى يصبح الاقوى .

وقد أصبحنا الان اقوياء .

● فى انتظار رالف نادر المصرى ●

ونحن فى حاجة — أيضا — الى رالف نادر مصرى .

فى حاجة الى مثل هذا المواطن الامريكي — من أصل عربى لبنانى — الذى ندر نفسه للدفاع عن المستهلك الامريكى ضد اية محاولة لاستغلاله ، وامام أى خطر يتهدده .

نريد مثل هذا المواطن فى بلادنا لينتقم لنا من رئيس شركة المياه الغازية الذى يبيع لنا الصراصير داخل زجاجات .

نريده ليحاسب وزير الاسكان والتعمير الذى ترك لجان تحديد الايجارات تعمل لحساب اصحاب العمارات ، وضد السكان .

نريده ليستجوب وزير التموين عن الجمعيات التعاونية ــ التى تنتسب الى وزارته ــ وتبيع لنا الفراخ العفنة ، والاسماك غير طازجة ، والزيت غير نقى ، والصابون الذى يلهب الجلد ، والسكر الاسود اللون .

نريد رالف نادر مصرى يقيم الدنيا ولا يقعدها ضد شركة الادوية التى تبيع فيتامينات بلا فيتامينات . وحقنا بها شوائب وادوية فقدت صلاحيتها وفعاليتها .

نريده ليحاكم المصنع الذى يبيع ثلاجة لا تبرد .. وجهاز راديو لاينطق . ودراجة لاتجرى .. وبوتاجاز لا يشتغل .

نريد مثل هذا المواطن ، فهو اصلح لنا من ألف جهاز مراقبة واسرع من نواب مجلس الشعب .. وأفضل من مليون هيئة رقابة صناعية .

فرالف نادر الامريكى رفض أن يخون المستهلك الامريكى الذى يدافع عن مصالحه ..

الشخص الذى نريده لن يكون موظفا يتقاضى راتبه من جهة حكومية فيخاف من قبضتها . ولن يخضع لاغراء الرشوة .. ولن يخاف على وظيفته .

فرالف نادر الامريكى لا يعمل لحساب اية جهة .. انه يعمل لحساب جميع المواطنين .. ووضع نفسه فى خدمة المستهلك الامريكى وحده .

وحدث أن اكتشف عيبا خطيرا فى تصميم السيارة الانيقة من طراز « كورفير » التى تنتجها مصانع شيفروليه ، التابعة لشركة جنرال موتورز ، وهى اكبر شركة انتاج سيارات فى العالم .

وبسؤال المختصين عن هذا العيب ، اكدوا أن هناك خطرا على حياة ركاب هذه السيارة . واطلق عليها رالف نادر اسم « التابوت المتحرك » . وطاف الولايات المتحدة ــ ولاية بعد ولاية ــ ناصحا الشعب بعدم شراء هذا الموديل

من سيارات شيفروليه ، حفاظا على حياتهم .

واخذ المواطنون بنصيحة المدافع عن حياتهم ، ضد استغلال الشركات والمصانع والمصالح . وتخلص من كان يملك مثل هذه السيارة ، منها على الفور . وباعوها بأبخس الاثمان .. وتضامنوا لرفع دعوى قضائية ضد شركة جنرال موتورز ، يطالبونها بالتعويض الضخم والمناسب .. وحاولت شركة جنرال موتورز أن تخنق القضية بأى ثمن .

وعرضت الشركة مليونا من الدولارات على رالف نادر ، ليرجع عن اتهامه لسياراتها .. ورفض رالف نادر قبول هذه الرشوة الضخمة .

ولم يكتف بالرفض ، وانما أعلن عنها فى مؤتمر صحفى ، فسبب الكثير من الحرج لرئيس مجلس ادارة الشركة .

واضطرت جنرال موتورز الى الاعتراف بالعيب الخطير ، وسحبت جميع سياراتها المباعة ودفعت أثمانها لأصحابها بالكامل .. كما أوقفت ــ نهائيا ــ انتاج السيارة « كورفير » مما تسبب فى خسارة الشركة عشرات الملايين من الدولارات .

كم نحن فى حاجة الى مثل هذا المواطن العظيم ، الذى يدافع عنا ضد المضايقات المتكررة التى نعانى منها يوميا ، عندما نأكل ، أو نشرب ، أو نمرض ، أو نلعب ..

فأين أنت يارالف نادر المصرى ؟

سنوات الهبش

- الموظفـــون العباقرة
- كبـــار لصوص الدولة

● الموظفـون العبـاقرة ●

على النيل ، ارتفعت عمارة شاهقة .. عمـارة جديدة تضاف الى عشرات العمارات التى ارتفعت طوابقها خلال السنوات الاخيرة الماضية وتم بيع جميع شققها ، بأسعار تدخل فى دائرة اللامعقول .

الشقة المكونة من ٤ غرف وصالة بلغ ثمنها ٣٠ الف جنيه نقدا وعدا .

واذا أضيفت غرفة خامسة ، فان الثمن يزداد بشكل خرافى لا يمكن تصديقه بسهولة او باقتناع .

واتيحت لى فرصة القاء نظرة على أسماء المواطنين الذين اشتروا شقق العمارة الشاهقة .

وكنت أتوقع أن اقرا اسماء رنانة ، اشتهرت منذ الازل بالفخفخة ، وسبق اتهامها بالثراء الفاحش ، وفرضوا على أصحابها تشكيلة متنوعة من الحراسات .

كنت اتوقع ان اجد اسماء شهيرة مثل اباظة ، وفرغلى ، والبدراوى ، ونور ، والجندى ، وسابا ، وحبشى ، والفقى ، وسراج الدين ، و .. و .. الى آخر أسماء العائلات التى كانت كبيرة يوما ما .

ولكنى فوجئت بأسماء غير معروفة .. أسماء عادية جدا . تسمعها فى كل مكان ولا تستوقفك للاهتمام بأصحابها . أسماء مكررة فى كل شارع ، وكل حارة ، وكل عطفة . أسماء من عينة « عبد الباسط » ، و «عبد الجبار» و «عبد الهادى» .

وتنظر الى خانة المهنة ، فتزداد دهشتك وحيرتك والمك .

موظفون فى الدرجة الأولى . وآخرون يتعثرون بين الدرجة الرابعة والخامسة .

ومرتب الموظف فى مصر معروف ، مهما قفز فانه من الضعف بحيث يستحيل عليه ان يمكن صاحبه من شراء « عشة » فى حى المطرية ، لا « شقة » على النيل .

واقرارات الضرائب التى يقدمها الموظف — الذى تعاقد على شراء الشقة — لم يذكر فيها ابدا أى شىء عن الثروة التى هبطت على صاحبنا من السماء فجأة وبدون سابق انذار أو تمهيد .

ولم تخطر الجهات المسئولة عن ملايين الجنيهات التى ورثها الموظف أباه أو زوجته أو أحد أولاده ، عن قريب يقيم فى السعودية أو فى البرازيل أو فى استراليا ، منذ زمن بعيد .

واندية القمار فى بلادنا — الملحقة بالفنادق الكبرى — لا يسمح للمصريين بدخولها وبالتالى لا يستطيع الموظف — الذى دفع ٣٠ ألف جنيه ليشترى شقة — أن يزعم انه ربح هذا المبلغ على مائدة الروليت أو الباكاراه .

والسنوات الطويلة الماضية التى تم فيها تحويل مجتمعنا الرأسمالى الاقطاعى الانتهازى ، كما أسماه البعض ، الى المجتمع الاشتراكى التعاونى ، كما أسماه نفس هذا البعض الذى تختفى فيه الطبقات ويصبح الجميع سواسية ، يستحيل بعدها أن يتمكن البعض من استغلال الغير ، والاثراء على حساب الشعب ، وتحقيق ثروة طائلة فى لمح البصر .

والسؤال الان الذى لابد أن يتردد على كل لسان هو :

— كيف حدث هذا ؟

والاجابة معروفة ، واضحة ، ومؤلمة فى نفس الوقت .

والاكثر ايلاما هو أن اجهزة الدولة لا تتحرك .. القانون لا يطبق . الرقابة على الكسب الحرام والربح غير المشروع معدومة تماما الا عندما يقدم مواطن جائع على اختلاس ١٤ قرشا ، كما قرأنا أخيرا فى الصحف .

أما البهوات الكبار ، الذين بلغوا من الذكاء حدا جعلهم

يسرقون وينهبون « عينى عينك » ، ورغم ذلك لا يحاسبهم أحد ، ولا تطولهم يد القانون .

موظف حكومى ، كيف أمكنه أن يشترى شقة فاخرة ؟

كيف استطاعت زوجته أن تمتلك عزبة ؟

كيف تمكن ابنه الاكبر من الاشراف على محطة لانتاج الدواجن ، وبيع انتاجها أولا بأول للوزارة التى يعمل بها أبوه ؟

كيف تخلصت الاسرة كلها من مأساة الحشر داخل الاتوبيسات ، وأصبحوا يتنقلون فى سياراتهم الخاصة آخر طراز وآخر موديل ؟

مرة أخرى يعرف الجميع الاجابات الصحيحة عن كل سؤال من هذه الاسئلة .

ولكن هناك سؤال آخر احتاروا جميعا فى معرفة جوابه ، وهو كيف أمكن للموظف الذى يتقاضى مائة جنيه فى الشهر ، تخصم منها الضرائب والتأمينات ، ومتزوج ولديه أطفال ، ويصرف على والديه المعدمين فى القرية ، وعلى اخوته فى الجامعات والمدارس ، ورغم ذلك استطاع أن يدخر — بمعجزة خرافية — من هذا الدخل الرسمى والمحدود أكثر من ٣٠ ألف جنيه ، اشترى بها شقة على النيل ؟

حقا أن هذا الموظف يتمتع بعبقرية تحتاج الى دراسة !

وما اكثر العباقرة — من هذا الصنف — فى بلادنا !

● كبار لصوص الدولة ●

لا ادرى لماذا نبالغ دائما فى الترخيب والتهليل بالوزارة الجديدة .

والذى يراجع الصحف التى صدرت فى السنوات الماضية لابد أن يصدم بالاتهامات الكثيرة التى تعودنا أن نودع بها كل

وزارة ذاهبة ، وبالآمال العريضة التى نستقبل بها كل وزارة قادمة .

هذا الكلام الكثير جدا ، ادخل الناس داخل حلقة مفرغة ؛ ودارت بهم فى متاهات لا أول لها ولا آخر .
وقد مل الشعب هذا كله .
مل ما يقال له عن المعجـــزات التى ستحققها له الوزارة الجديدة ، ولم يعد يصدق التصريحات الجذابة التى يتسابق كل وزير جديد على توزيعها ونشرها ذات اليمين وذات اليسار فور توليه الوزارة .

فالايام تمضى ، والأحلام لاتصدق ، والوعود لا تتحقق .
وعندما يقال للشعب أن الوزارة القديمة هى السبب فى عدم تحقيق الامال ، وأن سلبيات عهد الوزارة السابقة أكثر بكثير من الايجابيات ، فان هذا الاتهام لم يعد له صدى الان .

ولم يعد الشعب يهتم بتلك الاتهامات التقليدية . . ليس حبا فى الوزارة ، ولا حرصا على بعض أعضائها ، وانما لان القانون لم يحترم أبدا ، ولم يطبق على كبار المقصرين .
سمعنا مئات المرات عن أخطاء الكبار التى بلغت مرتبة الجرائم .
وسمعنا عن مسئولين سرقوا أموال الشعب ، وتقاضوا عمولات ضخمة ، وحققوا ثروات طائلة ، ورغم ذلك لم يقدم أحدهم ــ حتى الان ــ الى القضاء ، ولم تطلهم قبضة القانون .

ولعلنا نذكر اليوم الذى نشرت فيه صحيفة « الاهرام » تفاصيل الجريمة التى ارتكبها على صبرى ــ وكان يشغل وقتها منصب نائب رئيس الجمهورية ــ عندما استغل نفوذه وهرب بضائع ثمينة ، أحضرها من الخارج ، ولم يدفع عنها الرسوم الجمركية .
فقد أرسل عربتى نقل ، حتى رصيف الميناء ، وحملتا الطرود الكبيرة والثقيلة ، من سجاجيد فاخرة واثاث ثمين ، وما خفى كان أعظم وأثمن ، ثم مرقت السيارتان من باب الجمرك كما تمرق السكين الحامية فى قطعة الزبد .

حدث هذا فى وقت منعت فيه الدولة استيراد الكماليات من الخارج .. وشددت اللوائح والقوانين حتى لا يسمح بالافراج عن أى شيء وصل الى الدائرة الجمركية ، الا بعد تقديم أذن استيراده أولا ، وبعد دفع الرسوم الجمركية الباهظة عليه ، ثانيا .

ولكن السيد نائب رئيس الجمهورية السابق ، لم يهتم بأولا ولا بثانيا .

فهو لم يحترم القانون أبدا . ولكنه احترم فقط رغباته وشهواته وأطماع أعوانه وبعض أقاربه .

والذى حدث ، يوم نشر هذهالفضيحة فى صحيفة «الاهرام» كان بمثابة دهشة أصابتنا بالذهول .. ليس بسببفجيعتنا فى أخلاق على صبرى ، وانما لنشرها فى الصفحة الاولى ولاول مرة منذ زمن بعيد . فقد تعودنا على ان يبعد الاشخاص الذين اختلفوا مع الحاكم ، فى هدوء ، وبلا كلمة هجاء أو ثناء واحدة .

أما نشر فضيحة نائب رئيس الجمهورية ، وعلنا ، فهذا هو الغريب ، والجديد ، والمذهل .

وبدأنا نعلق ، ونؤكد ، ماشاء لنا خيالنا وأحلامنا .

توقعنا أن على صبرى ، ذاهب لا محالة .

وتوقعنا أن يبعد عن جميع مناصبه الخطيرة التى كان يشغلها ، بعد أن تبين أنه غير أمين عليها .

وتوقعنا ان يقدم الى المحاكمة ، وأن يحكم عليه بالسجن وبالغرامة .

و .. و .. و .. .

ولكن سرعان ما خابت آمالنا .

كل ما حدث لعلى صبرى ، هو انه اعتكف فى منزله ، احتجاجا على التشهير به — لغرض فى نفس يعقوب — فى الصحف .

واستمر الاعتكاف عدة اسابيع .

ثم هدأت ثائرة على صبرى ، وعاد الى مكتبه ، والى سلطاته ، والى سطوته ، والى نفوذه ، كأقوى ما يكون هذا النفوذ .. الى أن وضع الرئيس أنور السادات نهاية لاسطورته فى ١٥ مايو ١٩٧١ .

ومنذ فضيحة على صبرى ، وتمثيلية نشرها فى «الاهرام» والناس تؤمن بأن القانون لا يطبق الا على صغار اللصوص . أما كبارهم فان القانون يتجاهلهم ، ويتعامى عنهم .
والا كيف يسمح لعلى صبرى بالعودة الى مكتبه ، بعد أن ثبت ارتكابه هذه الجريمة ؟

وكيف سمحوا له بتولى مصالح الجماهير ، والحكم بينهم بالعدل ، وهو أول الذين طعنوا العدالة بالخناجر والسكاكين ؟
وبدأ الناس يعلقون ، ويجتهدون فى البحث عن السبب الحقيقى وراء نشر فضيحة على صبرى ، بعد أن تبين لهم أن ابعاده أو محاكمته ، لم تخطر ابدا على بال الذى أمر بنشر الفضيحة .

قال البعض أن السبب يرجع الى أن على صبرى ، قال كلاما فى موسكو لم يكن من اللائق أن يقوله . وعندما عاد ، تقرر معاقبته عن طريق التشهير به وتصغيره أمام الناس وأمام موسكو ، فى صورة اللص ، مهرب البضائع .

وقال البعض أن السبب يعود الى أن نفوذ على صبرى ، بدأ يقلق باقى مراكز القوى . فاستغلوا حادثا عاديا جدا — بالنسبة لهم — وهو التهرب عن دفع الرسوم الجمركية فشهروا به على صفحات الجرائد ، كأنذار .. ولاقناعه بالتواضع ، والتراجع عما يطمع فى تحقيقه .
وقالوا كلاما كثيرا آخر لتبرير نشر فضيحة على صبرى .

ولكن الاهم مما قالوه ، هو أن الشعب لم يعد يصدق مراكز القوى ، ولم يعد يتحمس لنوبات احترام القانون التى كانت تصيبها بين الحين والحين .
واستمر لصوص الدولة الكبار .. يسرقون وينشلون وينهبون كما يحلو لهم .
ولم تمتد اليهم أبدا يد القانون الصارمة .

وكم أتمنى أن يغير ممدوح سالم ، رئيس الوزارة الجديدة ، هذه الصورة القاتمة جدا فى أذهان المواطنين .

ولن يتمكن ممدوح سالم من تحقيق هذا الا اذا حاسب كبار اللصوص الذين أوشكوا على الهرب من مسرح الجريمة بما حملوا من غنائم تقدر بملايين الجنيهات .

ان أبعاد هؤلاء اللصوص الكبار ، عن مناصبهم الرسمية والحكومية لا يكفى .. بل لعل هذا الابعاد هو أقصى ماتمنوه فالوظيفة الكبيرة لم تعد مغرية بالنسبة لهم .. كما أصبحت عبئا عليهم .. فهم فى حاجة الى التحرر منها ومن التزاماتها ، ليبدأوا فى استثمار الملايين التى حصلوا عليها — كعمولة ، أو رشوة ، أو سمسرة — فى مشروعات خاصة بهم فى داخل أو خارج الحدود .

لقد فاحت رائحة عشرات من كبار لصوص الدولة .

فاحت رائحة الذين تقاضوا عمولة عن صفقة طائرات .

وفاحت رائحة الذين اقتنصوا سمسرة صفقة أتوبيسات .

وفاحت رائحة الذين لهفوا رشوة لتسليك عملية مقاولات .

و .. و .. الى آخر القائمة الطويلة .

ولم يقبض على أحد من هؤلاء .. حتى الآن .

ولا أعرف ماذا ينتظر ممدوح سالم ، خاصة بعد ان استمع واستمعنا جميعا الى العمولات والسمسرة التى تقاضاها البعض ، وأشار اليها الرئيس أنور السادات فى أحد خطبه الاخيرة .

ماذا ينتظر ممدوح سالم أكثر من هذا الاتهام الرسمى الذى نطق به رئيس الجمهورية ،والذى يدور على السنة ملايين المواطنين ومنذ سنوات طويلة ماضية ؟

ان ثقتنا فى خبرة ممدوح سالم فى تعقب اللصوص والحرامية بلا حدود . فهو ضابط شرطة سابق ، يعرف كيف يكشف عن كبار لصوص الدولة ، ليسلمهم لقبضة القانون التى لن ترحمهم ابدا .

سنوات الهوان

- حملة القميص الواحـد
- صحافتنا تدهورت ·· وصحافتهم ازدهرت

● حملـــة القميص الواحد ●

لاأذكر اننا سمعنا أو قرأنا كلمة واحدة عن «الناصرية» ، قبل وفاة الرئيس الراحل جمال عبدالناصر • فقد كان رحمه الله وغفر له يكره أن ينسب اليه وحده قيام ثورة ٢٣ يوليـــو ١٩٥٢ •

•• هكذا أعلن أكثر من مرة •

•• وهكذا قرأنا فى الصحف ، وفى الكتب التى تعرضت لقيام الثورة •

فالمعروف أن عبد الناصرلم يكن وحده الذى خطط للثورة، ونفذها •• كان معه عشرات من الضباط الأحرار • منهم من ظهر ولمع لفترة • ثم اختفى وانطفا ، ومنهم من لم يظهر أبدا ولم يكشف عن الدور الذى قام به ـ حتىالآن ـ ومنهم أخيرا من نجح في الاحتفاظ بتوازنه فوق القمة ، وفشلت جميع المحاولات المستمرة ، لسحبه والهبوط به الى القاع •

الصـحف العربيـة هى وحدها التى كانت تكتب كلمـة «الناصرية» أثناء حياةجمال عبد الناصر • أما صحفناالمصرية، فانها لم تستخدم هذه الكلمة أبدا •• على قدر ماتمدنى به الذاكـرة •

ثم مات جمال عبد الناصر •

وبموته بدأت كلمات : «الناصرية» ، «ناصرى» ، «الفـكر الناصرى» ، «المنهج الناصرى» ، و «الأسلوب الناصرى» •• وغيرها من الكلمات المشـابهة تتردد فى مصر كما سبق وترددت فى بعض العواصم العربية • ولـكنها فى مصر اتخـذت لها اتجاها واضحا وغريبا فى نفس الوقت ••

فكل ماتحقق من ايجابيات ـ خلال السنوات الطويلة الماضية ـ نسبوه الى «الناصرية» . وكل مايدخل فى بند السلبيات ، أرجعوه الى «أعداء الناصرية» .

وتزداد الغرابة اذا تعرفنا على أصحاب تلك الشعارات، التى رفعوها اليوم ولعنوها بالامس القريب .

فالذين اختلف معهم عبد الناصر ، فى حياته ، واختلفوا معه .. كانوا أول من ارتدى قميص الناصرية بعد رحيله .

فكلنا نعرف ماذا فعل الشيوعيون فى عهد عبد الناصر ، وماذا فعل عبد الناصر بالشيوعيين ؟

ولا بأس من ذكر بعض معالم «التعايش الغريب» الذىعقد بين الحكم الناصرى ، والحزب الشيوعى المصرى .

منذالبداية ، وجمال عبدالناصرلايثق كثيرا فىالشيوعيين. وليس أدل على ذلك من الخلاف الذى حدث بينه وبين اثنينمن أعضاء مجلس قيادة الثورة ، هما خالد محيي الدين ويوسف صديق ، وانتهى بابعاد الاول عن جميع المسئوليات التى أسندت الى جميع أعضاء مجلس الثورة ، وبسجن الثانىفى السجن الحربى ولفترة طويلة .

فخالد محيي الدين ماركسى معروف . وهو لم يتنكر ابدا لهذه الماركسية بل على العكس فان تمسكه بها ، كان أهم أسباب ابعاده عن مراكز القيادة طوال السنوات الطويلة الماضية .

ويوسف صديق ، الذى لعب دورا خطيرا فى نجاح قيام ثورة ٢٣ يوليو ، تمسك هو الأخر بالماركسية . وتحمل فى سبيل رأيه ، ومبادئه ، الكثير من الاهوال داخل السجن الحربى . ثم خرج من السجن الى بيته .واختفى اسميوسف صديق ، الى أن مات أخيرا فكرمته الدولة ، وشيعت جثمانه بموكب مهيب اشترك فيه باقى أعضاء مجلس الثورة الذين مازالوا على قيد الحياة .

واذا كان جمال عبد الناصر ، لم يثق كثيرا فى الشيوعيين المصريين ، فان هؤلاء لم يتحمسوا بالتالى لحكم عبد الناصر •

وشهدت سنوات الثورة الاولى صراعا اشـــبه بلعبة الفأر والقط •

حاول الشيوعيون أن يتحركوا ، وأن يرفضوا الامر الواقع وان يقولوا للثورة : « نحن هنا » •

وحدثت سلبسلة من القلاقل ، والاضطرابات ، والمظاهرات بين صفوف العمال •

وجاء رد الفعل لهذا التحرك الماركسى ، عنيفا ، وحاسما •

قبض على المئـــات من الشـــيوعيين ، والماركســـيين ، والاشتراكيين •

وأثناء عمليـــات القبض الجماعى ، لم يفرق بين هذا الذى آمن بالماركســـية كفكر وثقافة فقط ، وذاك الذى اســـتغل الماركسية ليحاول فرضها على الغير بالقوة •

وامتلأت سجون البلاد بالماركسيين الشيوعيين •

وامتدت اقامتهم داخل السجون والمعتقلات ، بلا أجل محدد ولم يوجه الى أحدهم أى اتهام • ولم يحاكموا أمام أية محكمة• ولكنهم تعرضـــوا لانواع شتى من التعذيب الذى وصفه لى أحدهم ـ فيما بعد ـ بأنه يفقد الانسان آدميته ، وكرامته ، وكافة حقوقه •

منهم من سجن سنةواحدة • ومنهم من سجن ١٠ سنوات•

منهم من ضرب مرة واحدة ، ومنهم من تعرض للضرب ليل نهار ولسنوات متصلة •

حدث هذا في الوقت الذى كانت فيه مصر تخوض أعنف معاركها الاعلامية ضـــد الامبريالية الامريكية بصفة خاصة ، والعالم الرأسمالى بصفة عامة • وكانت العلاقات شبه مجمدة ومقطوعة مع أوروبا الغربية ، وجيدة جدا مع أوربا الشرقية •

وكثيرا ما وجه لقادة الكرملين الكثير من النقـد القاسى ، بسبب تغاضيهم عما يلاقيه الشيوعيون فى مصر من تعذيب داخل السجون والمعتقلات ٠

الحزب الشيوعى الفرنسى ، ناشـــد الحكومة السوفيتية ـ أكثر من مرة ـ التدخل لدى الحكومة المصرية لاقناعهـــا بالافراج عن الشيوعيين المصريين ومنحهم حرية الحركة وحرية الكلام ٠

والحزب الشـــيوعى الايطالى ، هاجم الحكومة السوفيتية ـ أكثر من مرة ـ لانها لم تحاول أبدا الضـغط على الحكومة المصرية لاجبارها على فك الحصار الذى طوقت به الحـركة الشيوعية فى مصر ٠

وفى جميع المؤتمرات التى اشتركت فيهـــا الاحـزاب الشـــيوعية لدول أوروبا الشرقية ، احتدم النقاش بسبب ما أسموه « بقضية الشيوعيين المصريين » ٠

ولم تتبخر هذه المحاولات كلها فى الهواء ٠

فقد تدخلت موســـكو ـ أكثـر من مرة ـ لدى الحكومة المصرية ، لاقناعها برفع يدها الثقيلة عن كاهل الشـــيوعيين المصريين ٠

ونجحت هذه المساعى الحميدة ، من جانب موسكو ، فى اعادة الآمال العريضة الى قلوب قادة الحركة الشيوعية فى مصر ٠

وكثيرا ما فوجىء الشـــعب المصرى ، بتعيين عشرات من الماركسيين الذين سبق اعتقالهم وتعذيبهم وتشريدهم ، فى مناصب هامة وقيادية وحساسة ٠

وجاءت فترة سلمت خلالها جميع المناصـــب القيادية فى أجهزة الاعلام الى عتاه الماركسيين ٠ كان الواحد منهم يخرج من باب المعتقل ، ليتوجه رأسا الى مكتبه الفخم الضخم داخل احدى الوزارات أو فى مؤسسة صحفية كبيرة ٠

كان منهم من لا وظيفة له ، ولا مال لديه ، ويعيش على مساعدات يقدمها اليه رفاق الكفاح ، وفجأة يعين فى وظيفة بدرجة مدير عام ، أو وكيل وزارة ، أو رئيس مجلس ادارة ، وبمرتب وبدلات تحسب بمئات الجنيهات فى الشهر ٠

وجاء وقت كان الشيوعى يفخر علنا بشرف انتسابه للماركسية ٠

فلم يعد يخاف من رجال المباحث الذين طالما أطاروا النوم من عينيه ، وبددوا الامن فى قلبه ٠

ولم يعد أحد يستطيع أن يهاجم المذهب الشيوعى ، أو ينتقد الماركسية . أو يقدم رأى الدين فى تعاليم الشيوعية .

ونجحوا فى ترديد نغمة تقول ان الشيوعية شىء ، والاشتراكية شىء آخر ٠ وتمادوا فى تفسيراتهم لدرجة انهم أعلنوا أن الاشتراكية والماركسية لا تتعارضان مع الأديان ٠ وأن المسلم يمكنه أن يحافظ على دينه ، وأن يؤمن بالماركسية فى نفس الوقت ٠

ورغم أن الشعب لم يقتنع أبدا بهذه التفسيرات المضللة ، الا أن أحدا لم يستطع أن يرفع صوته ويفضح هذا الضلال ويمنع تضليل الناس ٠

ولكن هذه الفترة ، لم تستمر طويلا ٠

فسرعان ما انتهت ٠ عندما تدهورت العلاقات بين القاهرة وموسكو ـ لسبب أو لآخر ـ وتبع ذلك تحرك سريع من جانب رجال المباحث وزوار الفجر ، فأنتزعوا الشيوعيين من مكاتبهم المكيفة الهواء ، ومن منازلهم الفاخرة ، والقوا بهم داخل السجون والمعتقلات مرة أخرى ٠

وهكذا ٠

ولم يتحمس الشيوعيون ابدأ لنظام الحكم الناصرى ٠

وما أكثر الاتهامات التى اتهموا بها نظام الحكم الثورى السابق ٠

اتهموه مرة بانه عميل الامبريالية الامريكية فى المنطقة ·

واتهموه مرة أخرى بأنه دمر جسور الصداقة مع الاتحاد السوفيتى ، لصالح المصالح الامريكية الاستعمارية ·

ولم يرحموا النظام السابق أثناء وبعد هزيمة يونية ١٩٦٧ ·

قالوا أن سوء الحكم هو السبب فى هذه الهزيمة · وان الاتحاد السوفييتى قدم لمصر أكثر بكثير مما قدمته الولايات المتحدة لاسرائيل ، وانهزمت مصر ·

وطالبوا بقلب نظام الحكم· واتهموه بالفساد · وبالعفونة·

وكلما طالب الشعب بالثأر والعمل على استرداد الاراضى المحتلة بقوة السلاح ، كلما هاجم الشيوعيون هذه الفكرة بكل حسم · فقد آمنوا ـ كما آمن الاتحاد السوفيتى ـ بأن الحرب لاتنهى الصراع · وأن الجيش المصرى لايمكنه أن يحقق نصرا على اسرائيل فى الوقت الحاضر · وان هناك خطوات يجب اتخاذها قبل اعلان الحرب ، أهمها اعادة تغيير الاوضاع الداخلية ، وتنظيمها ، وتخليصها من العناصر الرجعية ، والامبريالية ، والاستعمارية ·

أو بمعنى آخر ، أيد الشيوعيون استمرار مرحلة اللاحرب واللاسلم الى مالا نهاية ·

ثم مات عبد الناصر ·

وتولى أنور السادات مسئولية انتشال مصر من آلامها ، ومصائبها ، وهزائمها ·

وعندما بدأ السادات يخطط للمعركة القادمة ، ووجه برفض من جانب الاتحاد السوفيتى تبلور فى رفضه تزويد مصر باحتياجاتها من الاسلحة الحديثة والهجومية · وانعكس هذا بسرعة على ·

تصرفات انصار الاتحاد السوفيتى داخل مصر ·

وبدأوا حملة تشكيك فى جدية الاستعدادت العسكرية ·

وسخروا من اجراءات التقشف التى اتخذتها الدولة ، لصالح المجهود الحربى ٠

وثاروا ثورة عارمة عندما طلب الرئيس السادات سحب الخبراء السوفييت من مصر ٠ وأكدوا أن هذا الاجراء معناه أن السادات لن يحارب أبدا ٠ فالجيش لايستطيع أن يحارب بدون ارشاد وتوجيه الخبراء السوفييت ٠

وبادروا بارتداء قميص الناصرية ٠ وهو القميص الذى طالما مزقوه فى حياة عبد الناصر ٠

وتباكوا على عهد عبد الناصر ٠ وعلى قرارات عبد الناصر ٠ وعلى عناد عبد الناصر ٠ وعلى حرص عبد الناصر على صداقة الاتحاد السوفيتى ، وكراهيته للولايات المتحدة ٠

واتهموا أنور السادات بانه باع مصر للولايات المتحدة !

وبعد حرب أكتوبر ، التى أكدت مدى الصدق الذى زاول به أنور السادات مسئولياته كرئيس لمصر ، بدأ أخواننا هؤلاء فى حملات التشكيك فى كل شيء ٠ فشككوا فى الانتصار العسكرية المصرى الذى أشاد به خبراء العالم ٠ وشككوا فى محاولات السلام التى بدأها الرئيس السادات ، ووصفوها بانها محاولات استسلام ٠

وهاجموا الصداقة الجديدة بين مصر والولايات المتحدة ٠

وهاجموا دكتور هنرى كيسنجر ، ونددوا بسياسته التى رسمها من أجل تسوية أزمة الشرق الاوسط ٠

ثم هللوا لفشل سياسة « خطوة بخطوة » ٠ وفرحوا لفشل كيسنجر فى جولته الأخيرة ٠ وليس هذا الكلام يطلق هكذا بلا دليل ٠

فأمامنا عدد من الصحف ، التى تصدر فى بيروت ويكتب فيها صحفيون مصريون شيوعيون ٠ لقد ترك هؤلاء مصر ، وأقاموا فى بيرات سعيا وراء دينارات ليبيا ٠

وتقاضوا هذه الدينارات مقابل أن يشتموا بلادهم — مصر — يوليو لم تمت معه ٠

وأن يشككوا فى سياسة رئيسهم ·· أنور السادات ·

أحدهم ـ ابراهيم عامر ـ كتب فى صحيفة «السفير» التى تمولها ليبيا وتصدرفى بيروت ـ يؤكد أن الذى يستمع الى اذاعة القاهرة هذه الايام، لايفرق بين ماتقوله وماتذيعه اذاعة اسرائيل · هكذا بكل بساطة يتهم هذا الصحفى المصرى الماركسى ، الذى يتقاضى ١٠٠٠ دينار فى الشهر ، اذاعة بلاده بانها أصبحت اذاعة اسرائيلية ·

وآخر كتب فى مجلة « بيروت المساء » ـ وهى ليبية التمويل لبنانية الاقلام ـ يتطاول على مصر ـ التى أنبتته وربته وعلمته ـ وعلى رئيسها أنور السادات ويهاجم قرار اعادة فتح القناة ، ويؤكد ان هذا القرار معناه ان القضية قد نامت الى الأبد ·

والغريب ان هؤلاء ـ ممن أضيروا ماديا وعذبوا جسديا فى عهد عبد الناصر ـ قد أصبحوا الآخر ـ بفضل دينارات معمر بالقذافى ـ من الناصريين الذين نصبوا حلقة ذكر مستمرة حول ذكرى عبد الناصر ، وأمجاده وأعماله ·

وهكذا رأينا خليطا غريبا من حملة قميص عبد الناصر ·

لكل من يريد ان يطعن عهد السادات ، يحرص أولا عن أن يصنع قميص الناصرية ليرتديه فى المناسبات العامة ، ويخلعه فى الجلسات الخاصة ·

منهم اليسارى المتطرف جدا ، ومنهم اليمينى المتطرف جدا ·

منهم من أضير ماديا ونفسيا وجسديا ، ومنهم من قفز من طبقة أصحاب الملاليم الى طبقة اصحاب الملايين فى عهد عبد الناصر ·

الكل يغنى على ليلاه · الكل يخطط لما يتمناه · والكل يتمسح فى الناصرية ·

لقد مات عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٧٠ · ولكن ثورة

لقد مات أحد أبطالها . ولكن باقى الابطال لايزالون على قيد الحياة .

مات جمال عبد الناصر .. كما مات من قبله جمال سالم وصلاح سالم ، وعبد الحكيم عامر ، وكما مات من بعده يوسف صديق .. فهل توقفت المسيرة بموتهم ؟

أبدا .

انها مستمرة ، وباقية ، ويقودها أنور السادات ومعه الملايين من الذين آمنوا بالثورة والتفوا حولها .
ان الاكتفاء بكلمة « الناصرية » يعنى محاولة لالغاء الدور العظيم الذى قام به جميع الذين رسموا وخططوا ونفذوا جنبا الى جنب مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وحتى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .

أن ارجاع جهد ، وعمل ، وعرق ، وفكر العشرات والمئات ، والالآف ، والملايين .. الى شخص واحد ، مهما بلغت عبقرية هذا الشخص الواحد .. يعنى أننا نلغى ببساطة شديدة مفهوم « الديمقراطية » فى عهد عبد الناصر ، ونستبدل به مفهوم « الديكتاتورية » بمعناها المعروف .

فهل يسعد الناصريين أن نصف عبد الناصر .. بالدكتاتورية ؟

● صحافتنا تدهورت .. وصحافتهم ازدهرت ●

فى اجتماعه بالصحفيين ، قال لنا المهندس سيد مرعى انه لاينام الليل من شدة الغيظ بسبب ماتنشره بعض الصحف فى البلاد العربية ، من اتهامات باطلة ، وافتراءات كاذبة ، على الصحف التى تهاجمنا !

وأضاف رئيس مجلس الشـــعب أنه يتألم أكثر عندما يطالع الصحف المصرية فى اليوم التالى فلا يقرأ فيها من يرد على الصحف التى تهاجمنا !

واختتم سيد مرعى حديثه ـ حول هذه النقطة ـ فتمنى أن يعود لصحافة مصر سابق مجدها وهيبتها ·

وليس المهندس سيد مرعى وحده الذى يؤلمه ويثير أعصابه مايكتب هذه الايام ضد مصر وضد رئيسها فى بعض صحف بيروت وطرابلس ·

أن الصحفيين المصريين هم أكثر الناس حزنا وألما وحسرة بسبب ماآلت اليه صحافتهم خلال السنوات الطويلة الماضية·

كانت الصحافة المصرية هى المدرسة العليا ، علما ، وفنـا وخلقا ، وخبرة فى الشرق الاوسط · ثم أصبحت بفضــل عباقرة الماضى ، مجرد مدرسة ابتدائية من الدرجة العاشرة !

كمموها ! كسروا أقلامها ! قتلوا المواهب ! خنقوا الابتكار وأصبحت الصحافة المصرية كما ارادوا أن تكون : بوقا لمـا يردده هذا المسئول ! وسلاحا فى يد هذا الكبير ! وآلة نفاق تهلل للزعيم ! وماكينة تزوير فى خدمة العظيم !

ومن المدهش والمؤلم أن الذين قتلوا الصحافة المصرية ، هم أنفسهم الذين ساهموا فى خلق صحافة مزدهرة خارج حدود مصر !

كانت القاهرة هى كعبة هواة الصحافة فى العالم العربى ·

وكانت الصحف والمجلات التى تصدر فى مصر ، فى أيدى جماعة من الصحفيين الشوام ·

« الأهرام » تملكه أسرة تقلا · ودار « الهلال » أصحابها آل زيدان ·

والصحف المصرية مائة فى المائة ، كانت تزدحم هى الاخرى بالصحفيين والفنيين والاداريين الشوام ·

واستمر الوضع على هذا الحال ، الى أن تنبه الجيل الجديد من الصحفيين المصريين الى أهمية هذه الصناعة ، والى ضرورة أن تصدر الصحف بأيدى مصرية ، وبأقلام مصرية ٠ وظهرت مجموعة من الصحف والمجلات المصرية ،أشهرها « المصرى » ، و « روز اليوسف » ، و « أخبار اليوم » ، و « آخر ساعة » ٠

ثم قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ٠

ووضع منذ البداية ، أن هناك من لايرضى عن حرية الصحافة ، ومن يزعجه النقد الذى تنشره الصحف ٠

كان البعض شديد الحساسية تجاه أية كلمة تكتب ضده أو ضد عمله ٠ أو ضد الجهة التى يشرف عليها ٠

وكان البعض لايثق أبدا فى الصحافة ، ولا فى معظم اقلامها القديمة والمعروفة ٠ باعتبار أن هذه الاقلام سبق أن هللت للماضى ، وأيدت الفساد ، وباعت نفسها للأحزاب ، وبالتالى فمن الصعب جدا الآن الاطمئنان الى اخلاص تلك الاقلام ، أو الثقة فى أصحابها ٠والدليل على عدم ثقة الثورة ـ عند قيامها ـ فى الصحف والاقلام المصرية ، أن مجلس قيادة الثورة قرر اصدار صحيفة تعبر عن الثورة ، فصدرت « الجمهورية » وكان صاحب امتياز اصدارها هو الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ٠

وتولى أنور السادات رياسة تحرير « الجمهورية » بجانب مهامه الأخرى كعضو مجلس قيادة الثورة ٠

ولحسن الحظ أن أنور السادات كان قد سبق له العمل الصحفى ، قبل قيام الثورة بسنوات طويلة ٠ وكان يعمل محررا فى مجلة « روز اليوسف » ٠ وعمل فى « المصور » ٠ ومارس جميع تخصصات العمل الصحفى ٠ عمل مخبرا صحفيا ٠ وكاتبا سياسيا ٠ وترجم القصص عن الانجليزية والألمانية والفارسية ٠

وهناك من الضباط الاحرار الذين لم يحترفوا الصحافة من

قبل ـ كما احترفها أنور السادات ـ ولكنهم عملوا بالصحافة وتولوا مراكزها الاولى فى الصحف والمجلات التى أصدرتها الثورة فى سنواتها الأولى ·

رأينا خالد محى الدين يتولى مسـئولية أصدار صحيفة « المساء » ·

ورأينا ثروت عكاشة يتولى رياسة تحرير مجلة « التحرير »

ورأينا وحيد رمضان يتولى اصدار مجلة « الثورة » ·

ورأينا أمين شاكر يتولى رياسةتحرير «بناء الوطن» ·

وتولى المرحوم صلاح سالم مسئولية دار الشعب ، وأصدر صحيفة «الشعب» ثم انضمت هذه الصحيفة الىدارالتحرير. واندمجت فى صحيفة « الجمهورية » ، وتولى صلاح سالم رياسة تحرير « الجمهورية » ·

والقائمة طويلة ، بعد أن انتشر الضباط فى مكاتب دور الصحف والاحلام والاذاعة · وبدأنا نقرأ لكمال رفعت·وأحمد حمروش · وكمال الدين الحناوى · وعبد العزيز صادق · ومصطفى المستكاوى · والى باقى الأسماء التى لم تعمل بالصحافة قبل الثورة · ولم ينشر لاقلامها أى شىء من قبل ·

وبجانب هؤلاء الضباط ، الذين لمعوا فى أجهزة الاعلام التى تولوا قيادتها ، لمع بعض الصحفيين المدنيين ، الذين نجحوا فى التقرب من قيادة الثورة · ووثقت فيهم هذه القيادة ، وساندتهم ، وساعدتهم فى الصعود الى القمة ·

وكانت القاهرة ـ كما قلت ـ تمتلىء بالصحفيين اللبنانيين ·

وكانوا خليطا من الصحفيين ·

منهم الاكفاء ، ومنهم غير الأكفاء ·

منهم من ثقفتهم المعاهد والجامعات ، ومنهم من ثقف نفسه بنفسه ·

منهم الذى احترف الصحافة ، لانها المهنة الوحيدة التى قبلته ، ومنهم من عمل بالصحافة لانها المهنة الوحيدة التى عشقها واحبها ..

منهم الذى يشرق وجهه بالذكاء ، والدهاء ، ومنهم الخامل الكسول ، الباحث عن لقمة العيش .

ورغم هذا الخليط ، وهذا الاختلاف فى نوعيات الصحفيين العرب الذين عملوا فى مصر فى بداية ثورة ٢٣ يوليو ، فأنهم جميعا اتفقوا على أن مستقبل الصحافة لم يعد فى مصر ، ولا فى القاهرة .

وأن الصحافة المصرية ـ التى كانت أقوى وأهم صحافة فى المنطقة العربية ـ سوف تتنازل قريبا عن هذه المكانة ، لصحافة أخرى تخلق فى عاصمة عربية غير القاهرة .

وقتها فرضت الرقابة على الصحف المصرية .

وصدرت قرارات استثنائية ، استهدفت تكميم حرية الصحافة والصحفيين المصريين .

وقبض على عدد من كبار الصحفيين ، ونشر أسماء الذين كانوا يتقاضون المصروفات السرية ـ قبل قيام الثورة ـ بهدف تشويه صورتهم فى عيون وأذهان القرآء .

ثم صدرت قرارات بتنظيم الصحافة ، ونقل ملكيتها الى الدولة . الى الشعب .

عندئذ حزم الصحفيون العرب حقائبهم ، استعدادا للعودة الى بلادهم . فلاعيش لهم بعد اليوم فى صحافة مصر .

البعض تقاضى مكافأته عن عمله فى السنوات الماضية ، وترك مصر عائدا الى بلاده .. أما البعض الآخر فكان اكثر ذكاء ، وأكثر طموحا . فقد وجد أن الذين تسببوا فى خنق الصحافة المصرية ، هم أقدر الناس على ازدهار صحافة أخرى فى خارج حدود مصر .

وقد كان ..

واحاط بعض أذكياء الصحفيين العرب ـ غير المصريين طبعا ـ بأولى الامر فينا وأقنوعهم أن العالم العربى لن يهتم بكلامهم ، وبأفكارهم ، وبمبادئهم الثورية الجديدة ، اذا نشرت فى الصحف المصرية وحدها . فالعالم كله يعلم الآن أن الصحافة المصرية أصبحت مقيدة ، ولسان حال السلطة ، ولا يسمح لأقلامها بالنقد ، أو بالمعارضة . وبالتالى فان أى كلام ينشر فى الصحف المصرية ، لن يؤثر فى القارىء العربى فى خارج مصر .

والحل !

قدمه أذكياء الصحافة العرب ، ويتلخص فى قيام القاهرة بتمويل انشاء عدد من الصحف والمجلات التى تصدر فى عاصمة عربية غير القاهرة .. وتتولى هذه الصحف تبنى آراء ، وفكر ، ومبادىء ، القيادة المصرية !

وكانت بيروت هى العاصمة العربية ، والوحيدة ، التى يسمح نظامها بقيام صحف تمولها جهات وحكومات أجنبية !

ووافقت القاهرة على هذه الفكرة التى قدمها أذكياء الصحافة اللبنانية . !

وصدرت الاوامر بالتنفيذ .

وتولى وزير الارشاد مهمة التخطيط لعملية انشاء وتمويل الصحف الجديدة !

وتولت السفارة المصرية فى بيروت مسئولية « ضابط الاتصال » بين القاهرة من جانب ، وبين أذكياء لبنان ، من جانب آخر !

وبسرعة البرق ارتفعت فى أهم أحياء العاصمة اللبنانية ، طوابق دور صحف جديدة ، يملكها عدد من صغار الصحفيين اللبنانيين ، الذين لم يسمع عنهم أحد شيئاً من قبل !

وصدرت عن هذه الدور ، العديد من الصـــحف اليومية الصباحية ، والمسائية ، والمجـلات الاسـبوعية ، والكتب الشهرية ، والنشرات غير الدورية !

الطباعة فاخرة ٠

الاخراج ممتاز ٠

الذكاء والدهاء ، واضحان فى كل سطر !

وأفسـحت هـذه الصـحف والمجلات صفحاتها للتهليل والتمجيد فى القيادة المصرية ٠

أخطاء القاهرة ،تحولت فوق هذه الصحف الى بطولات خارقة

الهزائم التى لحقت بسياستنا العربية والعالمية ، صـورها أذكياء بيروت فى صحفهم ، كانتصارات أشـــبه بمعجزات الرسل والأنبياء !

وكلما اسرفت السفارة المصرية فى تمويل أصحاب هـــذه الصحف الجديدة ، كلما اشتد حماســـها وتهليلها للقيادة المصرية ودورها الاسطورى فى رخاء البشرية جمعاء !

أما اذا غلت القاهرة يدها قليـلا ، أو تأخـر المسـئول فى السفارة عن « التمويل » ، فوجئنا بنفس هذه الصـــحف ، وبنفس الأقلام ، تصب حملاتهاولعناتها على مصر ،وتتهم قادتها بالكذب والتضليل والتلفيق ٠

ولا تتوقف هذه الحملات ـ المفاجئـــة ـ الا اذا تداركت القاهرة الموقف وعاقبت المسئول عن تأخير وصول «الاعتمادات» المقررة الى أصحاب الصحف الصديقة والعميلة فى بيروت٠

ولم يقنع اذكياء الصحافة اللبنانية بالاموال المصرية وحدها٠

أرادوا أن يلعبوا نفس اللعبة ، مع حكومات عربية عديدة٠ ففى هذه الفترة كانت القاهرة على خلاف مع معظم حكـومات وانظمة العالم العربى ، فى المشرق والمغرب معا ٠

وكانت الصحف التى تمولها القاهـــرة فى بيروت ، تقف

بجانب وجهة النظر المصرية ، وتهاجم حكومات الدول العربية الأخرى التى تعاديها الحكومة المصرية • وفوجئت هذه الدول ـ مثل الأردن والسعودية والعراق وغيرها ـ بحملات عنيفة وبلا مناسبة ، تقوم بها بعض الصحف اللبنانية ، ضدها !

ولم يكن من الصعب على حكومات هذه الدول معرفة سر هذه الحملات • كما لم يكن من الصعب معرفة الذين يهمهم نشر هذه الحملات وهذا الهجوم ضدها في الصحف اللبنانية •

كما لم يكن من الصعب أبدا معرفة الطريق الى وقف هذه الحملات فورا !

وتم لقاء بين أصحاب تلك الصحف ، ورجال سفارات الدول العربية التى تتعرض للهجوم والتجريح والتشنيع •

وتم الاتفاق بسرعة •

تتوقف الصحف عن الهجوم ، وتكتب مديحا في حكومات وأنظمة هذه الدول ، مقابل أن تدفع الأخيرة ما كانت تدفعه القاهرة !

وبالطبع كان أصحاب تلك الصحف يبالغون فى الرقم الذى زعموا ان القاهرة تدفعه لهم بانتظام !

وتوافق السفارات على أن تدفع لهم المبالغ المطلوبة مقابل وقف الحكومات ضدها ، وأن تضاعف هذه المبالغ مقابل أن تكتب هذه الصحف لتهاجم القيادة المصرية !

وكثيرا ما فوجىء القارىء بانقلابات في سياسة الصحيفة التى يقرأها • فمرة يقرأ هجوما عنيفا ضد السعودية ، وتهلهلا للقاهرة •

وفى اليوم التالى ـ مباشرة ـ يقرأ هجوما عنيفا ضدها فى سياسة صحيفته •

وأصبحت الحكاية . نكته يضحك لها القارىء •

فعندما يقرأ هجوما على مصر يعلق قائلا :

ـ لقد تأخرت السفارة المصرية فى الدفع !

وعندما يقرأ مدحا فى السعودية يعلق بقوله :

ـ السعوديون أكثر كرما من المصريين !

وفى اليوم الثالث تعود الصورة السابقة • الهجوم يوجه ضد السعودية • والتهليل يكون من نصيب مصر •

وبعد فترة ، لم يعد القارىء يصدم بما يراه من انقلابات وعندما يطالع هجوما عنيفا ضد العراق ، يعقب قائلا :

ـ أن الحكومة العراقية بخيلة هذه الأيام !

وعندما يعود التهليل للحكومة المصرية ، يضحك القارىء ويقول :

ـ لقد وصلت اعتمادات سخية من القاهرة !

وهكذا ••

وعشنا فترة غريبة من حياتنا • شعبنا يعانى من الضيق ، والفقر ، والحاجة ، ومصانعنا متوقفة لعدم وجـود اعتمادات لشراء قطع غيار بالعملات الصعبة ، وفى نفس الوقت تتدفق أموالنا على خزائن بعض أذكياء الصحفيين اللبنانيين •

والحمد لله أن هذه المرحلة قد انتهت الآن •

أنهاها الرئيس أنور السادات ، وفور توليه مهام الحكـم فى البـلاد •

أوقف خط الاموال الطائر بين القاهرة وبيروت •

فجن جنون أصحاب تلك الصحف • وبدأوا يهاجمون مصر وقائدها وسياستها ، على أمل أن يبادر السادات باستئناف التمويل مرة أخرى ، كما كانت العادة فى الماضى •

ان كلمة واحدة من انور السادات ، قادرة على قطع هــذه الألسنة التي تشتمنا الآن في بيروت •

كلمة واحدة منه يعود بعدها التمويل ، وملء جيــــوب أصحاب الصحف التى تشتمنا •

ولكن هذه الكلمة لن يقولها أبدا •

ان السادات يفضل ان تصرف أموال مصر ، داخل حدود مصر ، ومن أجل رفاهية شعبها • يفضل أن يشترى للشعب طعامه ، وللجيش سلاحه بدلا من أن يشترى نفاقا رخيصــا لشخصه ، ينشر فوق أعمدة الصحف •

ان أنور السادات يعمر بلاده بعد أن خربها غيره •

والتعمير يحتاج الى كل مليم وكل قرش وكــل جنيه فى جيوبنــا •

وليس لدينا المزيد لنشترى به قلم هذا الكاتب ، أو نفاق تلك الصحيفة •

سنوات العار

- عار الهزيمة
- عار التهجير

اعادة الملاحة عبر قناة السويس ، أسعد الشعب المصرى بصفة عامة ، وسكان منطقة القناة ، بصفة خاصة .
فالقرار يعتبر شهادة ميلاد جديدة لأكثر من مليون مواطن ، ذاقوا من ألوان الذل ، والهوان ، والحرمان ، مالم يذقه غيرهم من باقى سكان الجمهورية .

فسكان القناة هم وحدهم الذين دفعوا ثمن المناورة العسكرية والسياسة الفاشلة التى أقدمنا عليها فى يونيو ١٩٦٧

لقد أراد أولو الأمر فينا — وقتذاك — أن يضحكوا على الدقون . وأن يحققوا نصرا سياسيا ، عن طريق البكش العسكرى .

ولكن المحاولة فشلت .
والجيش المصرى انهزم .
والكرامة المصرية أهينت .
ومراكز القوى لم تعدم رميا بالرصاص . ولم تترك الحكم — وكان هو أضعف الايمان — واستمرت تحكم البلاد بالحديد والنار . واستمرت تخدع وتضلل ، كما تعودت وعودتنا طوال سنوات حكمها السابقة .

كانت المناورة الغبية بمثابة فرصة العمر للعدو الاسرائيلى . فاستغلها أسوأ استغلال . وقتل عشرات الآلاف من ضباطنا وجنودنا الأبرياء ، ودمر مدننا وقرانا ، وأغلق قناتنا ، وحول سكان منطقة القناة الى شعب من العراة ، والجوعى ، والمتشردين .

ومنذ ٥ يونيو ٦٧ وشعب منطقة القناة ينفذ الحكم الذى صدر ضده بلا جريمة ارتكبها . أخرجوه من بلاده . وشتتوه

فى أقاصى الصعيد . ووزعوه على وسط الدلتا . وأبعدوه عن العمران . ومنعوا تجمعاته فى مكان واحد ، حتى يبددوا صرخته فى الخلاء ، ويكتموا أنينه داخل جوفه .

عاش سكان القناة عيشة تنفر منها الحيوانات المستأنسة.
والأمثلة كثيرة وصارخة ..
عائلة بور سعيدية تنتسب الى كبيرها الحاج متولى . عاش حياته كلها فى بور سعيد معززا مكرما . كان يملك قاربا بمحرك ــ لانش ــ يمتلىء بالبضائع الشرقية ، التى يدور بها حول البواخر الراسية فى ميناء بور سعيد ، ويعرضها على ركابها الذين ينظرون اليه من أسطح الباخرة ، ويفاصلون فى الأسعار ويختارون ما يناسبهم ذوقا وثمنا .

ويستمر الحاج متولى يطوف بقاربه داخل ميناء بور سعيد طوال ساعات النهار ، وجانبا من الليل ثم يعود الى اسرته ، جيوبه ممتلئة بالعملات الأجنبية التى حصل عليها مقابل البضائع الشرقية التى باعها لركاب البواخر .

معه عملات فضية ، وورقية .
معه دولارات ، وجنيهات استرلينية ، وماركات ، وفرنكات وليرات ، وباقى العملات المختلفة الأخرى .
أخذها معه الى منزله ليذهب بها فى الصباح الباكر الى البنك ، ويحولها الى عملة مصرية محلية وبالسعر الرسمى .
كان الحاج متولى يكسب الكثير ، ويصرف الكثير .
اشترى عمارة . وجميع أولاده وبناته فى المدارس الابتدائية والثانوية .

الحياة بالنسبة له ولأفرادأسرته ، ضاحكة ، هانئة ، ومريحة.
فالمنزل مزود بكافة الكماليات . من الثلاجة ، والبوتجاز ، والراديو ، والتليفزيون ، وآلة التسجيل ، والتليفون .

ولم يكن يملك رصيدا فى البنوك . فهو يصرف الكثير الذى يكسبه على بيته وعلى راحة أهله .

وكان يثق فى الغد . ويثق أكثر فى مابعد الغد .
فالقناة مفتوحة . والميناء ممتلئة بالبواخر . والتجارة

رائجة . فلماذا يخاف ؟ ولماذا يحوش ؟ انه منطق غالبية سكان منطقة القناة بصفة عامة ، وسكان مدينة بور سعيد بصـــفة خاصة .
فحياتهم ارتبطت بالبحر ، وبالميناء ، وبالبواخر عــابرة القناة ليل نهار .

ونعود لقصة الحاج متولى وأسرته ..

فى صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ ، استيقظ من نومه متأخرا على غير عادته . فهو يشـــكو من وعكة صحية ألمت به فى الليلة الماضية .

وصحا الحاج متولى على صوت صياح وتصفيق وتهليل . فقد بدأت الحرب ضـــد اسرائيل ، وقالت الاذاعة ان قواتنا تتقدم من حدود اسرائيل .

وصـــفق ، وهلل ، الحاج متولى مع المصفقين والمهللين . فالفرحة كبيرة . والنصر وشيك . وأمضى الحاج متولى يومه كله بين أولاده يستمتع معهم الى ما تقوله محطات الاذاعات المختلفة عن سير المعارك الضارية بين قواتنا المسلحة ، وقوات العدو الاسرائيلى .

وامسك مدحت ــ ابنه الأصغر ــ بورقة وقلم ليسجل عدد الطائرات الاسرائيلية التى أسقطناها ساعة بساعة .
وكان عدد الطائرات المعادية التى سقطت ، كبيرا ويدعو الى الفخر والى الدهشة فى نفس الوقت . فقد اقترب العدد من المائة طائرة وخلال ساعات معدودة .

وبدأ الحاج متولى يتقمص شخصية المحلل العســكرى ، ويفسر لأولاده ما غمض عنهم فى نشرات الأخبـــار المتعاقبة . فأكد لهم ان النصر أصبح حليفنا . وقد تأكدت هزيمة اسرائيل بالفعل . وأصبح الطريق الى تل أبيب مفتوحا ، وســـهلا ، وممهدا .
لم يفكر الحاج متولى فى ان عمله فى الميناء ســوف يتوقف لفترة بسبب هذه الحرب . ولم يشغل باله بان معنى توقفه عن العمل هو اختفاء النقود من جيبه ويده .

كانت الفرحة بالنصر أكبر من الأكل والشرب ومن الحياة ذاتها ..

واستمع الحاج متولى الى صوت المذيع المصرى يجلجل . ويسخر من قادة اسرائيل ، ويتوعد موشى ديان ، وينذر ليفى أشكول ، ويهدد اسحق رابين ، ويلعن موردخاى هود قائد السلاح الجوى الاسرائيلى المغرور .

ثم اراد الحاج متولى أن يستمع الى ماتقوله اذاعة اسرائيل الناطقة بالعربية . وهى من المحطات الاذاعية التى تسمع فى منطقة القناة بوضوح كامل .

ففوجىء الحاج متولى باذاعة اسرائيل تزف لسكانها بشرى تحطيم جميع الطائرات والمطارات المصرية فى ساعات الصباح الأولى .

ولم يصدق الرجل ما سمعه . وكالعادة لعن آباء وأجداد مذيعى اذاعة اسرائيل ، وأعاد مؤشر الراديو الى محطة صوت العرب . فوجدها كعادتها منذ الصباح الباكر ، تذيع الأغانى الوطنية ، والأناشيد الحماسية ، والكلمات النارية ، لتأكيد فرحة النصر الكبيرة فى قلوب مائة مليون عربى فى المنطقة. ومرت الأيام ..

ويصدم الحاج متولى ـ كما صدم العالم كله ـ بحقيقة المأساة . فقد سقط قناع الكذب ، والتضليل ، والتزييف ، والضحك على الدقون ، واتضح ان الطائرات الاسرائيلية قد أغارت على جميع مطارتنا فى وقت واحد ، فدمرتها ، ونسفت جميع الطائرات الرابضة فوقها .

واتضح ان جيشنا المصرى البرىء ، يواجه حاليا فوق رمال سيناء الملتهبة ، أكبر هزيمة عرفها التاريخ القديم والحديث .

وتبين ان ضباطنا وجنودنا يقتلون بالآلاف ، وان جثثهم ملقاة فوق الرمال ، وتسلط عليها عدسات تصوير جاءت فى طائرات هليكوبتر اسرائيلية ، لتمثل الصحافة العالمية ، فى تسجيل هذه الهزيمة القاسية التى لحقت بالجيش المصرى ،وبالسياسة المصرية ، وبالقيادة المصرية العليا .

ولم يعد يصدق الحاج متولى ماتقوله اذاعات القاهرة .

ولم يعد يتحمس للكلمات النارية الفارغة التى يرددها مذيع صوت العرب بصوته الجهورى . فكل ماسمعه ، ويسمعه من هذه الاذاعات هو مجرد كذب . وكذب . وكذب .

وأدار مؤشر الراديو كالمجنون ليستمع الى اذاعة اسرائيل. والى اذاعة لندن . فهاله ماسمعه ، عن مأساة الجيش ، وفضيحة القيادة .

وفوجىء بأن القوات الاسرائيلية قد احتلت غزة ، بكاملها .

ثم صعق عندما عرف ان القوات الاسرائيلية تواصل زحفها فى اتجاه الضفة الشرقية لقناة السويس .

وكاد أن يفقد عقله عندما جاء ابن عمه عوض ليخبره بأنه رأى بعينيه الجنود الاسرائيليين يستحمون فى قناة السويس بالقرب من الاسماعيلية .

عندئذ انهار كل شىء أمام الحاج متولى .

انهار الحلم الجميل الذى خدرته به محطات اذاعة القاهرة، وصحفها ، وأقلام كبار كتابها ، الذين هيأوه نفسيا — منذ عدة أسابيع — بالنصر القريب على اسرائيل ، وأدخلوه فى متاهات عسكرية حول « الضربة الأولى » ، ومن الذى يجب أن يبدأها، ومن الذى عليه أن يصدها ثم يمتصها ثم يردها بأعنف منها .

وانتظر الحاج متولى تفسيرا لكل ماحدث . أو لبعض ما حدث .

وجاء التفسير وراء التفسير .
ولكن تلك التفسيرات كلها لم تكن أبدا مقنعة .

كاتب أراد أن يهون من فداحة الكارثة فقال ان الولايات المتحدة الأمريكية أرسلت قواتها وطائراتها لمساعدة اسرائيل وضرب مصر من قاعدة هويلس فى ليبيا .
ثم عاد نفس هذا الكاتب ليزعم ان المأساة تكمن فى

ان القيــادة المصرية توقعت أن تأتى الضربة الاسرائيليــة من الشرق ، ففوجئت بها تنقض عليها من الغرب .

ولم يصدق أحد كلمة واحدة من هذه السلسلة المتصلة من الأكاذيب .

ثم انشغل الشعب المصرى فيما أسموه بمعجزة ٩و١٠ يونيو
لقد نشطت مراكز القوى التى كانت تسيطر وقتها على الاتحاد الاشتراكى ، وأحبكت تمثيلية ساذجة فرضوها على الشــعب الغارق فى أحزانه ، وأوهامه وآلامه .

وخرجت المظاهــرات المنظمة ، والمعدة مقدما من التنظيم السرى للاتحاد الاشتراكى ، لتطوف الشــــوارع ، وتنادى بالاستمرار .

.. كأن الشعب قد نسى آلاف الجنود والضباط الذين بترت أطرافهم ، وتشوهت جثثهم ، فوق رمال ســيناء ، ولم يعد يشغل بال الأمة سوى استمرار الحكم ، واســتمرار النظام الذى لولاه لما تمرغت وجوهنا فى وحل الهزيمة ، وعارها .

.. ونجحــت التمثيلية المــدبرة ، ووافقت القيــادة على الاستمرار فى حكم البلاد ، وتعهدت من تلقاء نفسها ودون أن يطلب منها أحد ، أن تبدأ سياسة التغيير .

.. وعمت الفرحة البلاد .

.. ورقص نائب محترم عشرة بلدى تحت قبة البرلـــان ، وطيرت وكالات الأنباء صورته الراقصة ، التى نشرتها مجلة بارى ماتش — الفرنسية — على صـــــفحة كاملة فى نفس الأسبوع وعلقت عليها بقولها — اننا لا نفهم كيف تهزم دولة ، كما هزمت مصر ثم يرقص شعبها فى الشوارع ، وتحت قبة البرلمان .

وبدأت الحكومة على الفور فى تنفيذ ما وعدت به ، وهــو التغيير . وكان من الواضح ان شعار التغيير ، كان يقصد به تغيير الصورة القاتمة واليائســـة التى عمت القلوب وأعمت العيون فى كل مكان .

كل هذا كان يمزق نفسية الحاج متولى . كان حزينا على بلاده . حزينا على جيشه . ثم أصبح حزينا على حاله . حزينا على بيته . وحزينا على مستقبله ومستقبل أولاده الصغار . لقد أغلقت القناة .

توقفت الحياة تماما فى ميناء بور سعيد . لم تعد تدخلها البواخر القادمة من البحر المتوسط . ولم تعد تغادرها البواخر القادمة من البحر الأحمر . أما البواخر التى تصادف — لسوء حظها وحظ أصحابها — وجودها فى الميناء وعبر قناة السويس بعد يوم ٥ يونية ، فقد صدر الحكم ضدها بالبقاء كما هى . والى أجل غير مسمى .

ماذا سيفعل الآن الحاج متولى ؟

بل ماذا سيفعله مليون مواطن يعيشون فى منطقة القناة . السيئة الحظ . ؟

كانت منطقة القناة هى الواجهة الجميلة ، والنظيفة ، لشعب مصر أمام عيون الملايين من ركاب السفن عابرة القناة . والمدن جميلة . الشوارع نظيفة . الخدمات كاملة . المواصلات سهلة . العمل متوفر لكل متعطل . الخير وفير . والسكان يضحكون ويتمتعون بحياتهم كما يحلو لهم . كان من النادر جدا أن تعثر على عابر طريق يسير حافى القدمين .

حتى الجلابية ، ندر وجودها بين سكان منطقة القناة .

وعندما تسير فى شوارع المدينة ، لن تهاجم بجيش من المتسولين ، كما تواجه الآن فى معظم شوارع العاصمة والاسكندرية . فالتسول فى منطقة قناة السويس لم يكن موجودا أو معروفا أو معتادا .

وقد تغيرت هذه الصورة المضيئة ، فى أعقاب سوء الحظ الذى حل بها وبسكانها . ففى سنة ١٩٥٦ تعرضت البلاد لهجمة اجرامية من جانب الثالوث الاستعمارى : فرنسا

وانجلترا واسرائيل . وتركز الهجوم على منطقة القناة وحدها . كانوا يريدون احتلال المنطقة والسيطرة على قناة السويس التى أممها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، فأطار صواب دول الغرب وعلى رأسها فرنسا وانجلترا .

دمرت بور سعيد ، واحتلت بقوات فرنسية وانجليزية .

واحتلت اسرائيل سيناء . وكان الطريق مفتوحا أمامها حتى قناة السويس .

وكان يمكن أن يتدهــور الموقف أكثر من ذلك بكثير . لولا كفاح الشعب المصرى ، ولولا تدخل العالم كله ــ وعلى رأسه الولايات المتحدة والاتحاد الســوفيتى ــ وادانوا العدوان ، وأجبروا الثالوث الاستعمارى على الانسحاب .

وانسحبت فرنسا وانجلترا من بور سعيد .

وانسحبت اسرائيل من غزة وسيناء ، ولكنها حصلت على حق المرور الى أيلات عبر الخليج ولم يعرف عنه الشــــعب المصرى أى شىء ، الا قبيل حرب ٥ يونية ١٩٦٧ .

وبدأ تعمير المنطقة من جديد .

ولحسن الحظ ان مئات الملايين من الجنيهات انهالت علينا من الدول الكريمة ، لمساعدتنا فى تعمير منطقة قناة السويس .

وأعيد افتتاح قناة السويس . وجاءت البواخر والناقلات لتعبر القناة من شمالها ومن جنوبها . وتنفس السكان نسيم الحرية ، مرة أخرى وبعد شهور من الخوف ، والضــياع ، والتشتت هنا وهنــاك .

ومرت سنوات هادئة ، وهانئة .

ولكنها كانت ســنوات قليلة جدا . ففى ٥ يونيو ١٩٦٧ ، عاد الخراب الى المنطقة كأعنف مما كان .

تهدمت الســويس عن آخرها . وتحولت بور توفيق الى أطــــلال .

نســفت الاســماعيلية ، والقنطرة غرب بعد أن أحتلت القنطرة شرق .

وأصيبت بور سعيد ببعض الدمار المادى ، ولكن الدمــار الاقتصادى والاجتماعى كان أبشع مما يمكن احتماله أوتصوره.

فالبيوت يمكن اعادة بنائها مرة أخرى . والقناة يمكن فتحها. وعجلة الحياة يمكن أن تدور مرة ثانية .

ولكـــــن ..

الذى كان يزلزل نفوس المليون مواطن ، انهم لايعرفون متى تبدأ عمليات التعمير ، والتطهير ، والتشغيل ؟

فالهزيمة قاسية جدا . عنيفة جــدا .

واسرائيل أعلنت انها لن تنسحب أبدا الى سابق حدودها قبل حرب ٥ يونيو .

والقناة لن تفتح ، الا اذا انسحبت اسرائيل . أى انها لن تفتح أبدا ، اذا أصرت اسرائيل على البقاء عند الضـــــفة الشرقية للقنــــاة .

وليت الأمر وقف عند هزيمة ٥ يونيو فقط . وانما الحرب مازالت مستمرة . ويوما بعد يوم تغير القاذفات الاسرائيلية ، فتــدمر ، وتنسف ، وتقتل ، وتشــوه .. كما يتراءى لها من المدن والقرى والبشر .

وجاء الوقت الذىخيم فيه اليأس فوق منطقة القناة .
أصبحت المنطقة مأوى للخراب ، والدمار ، والعار .

وصــدرات الاوامر العليا بضرورة تهجير ســكان المنطقة . فالمعركة مستمرة . لا يعرف أحد متى تنتهى . وآثار العدوان عالقة . ولا يمكن لأحد أن يزيلها فى يوم ولا حتى فى سنة .

وبدأت عمليات تهجير ســــــكان مدن وقرى منطقة قناة الســـــويس .

وبدأ معها عار التهجير .

● عار التهجير ●

عقد الحاج متولى اجتماعا عائليا محدودا ، ضم زوجته وابنه الاكبر ، وابنته الوسطى . وفى هذا الاجتماع تقرر مبدأ ترك بور سعيد ، بصفة مؤقتة ، والاقامة فى احدى المدن البعيدة عن قبضة المحتل الاسرائيلى ، والتى لاتغير فوقها قاذفاته ومقاتلاته وحاملات قنابله زنة الألف رطل .

الزوجة اختارت أقاصى الصعيد . فهناك يقيم أهلها .

والزوج اختار الاسكندرية . فهناك الميناء . وهناك البواخر . ولعل وعسى يمكنه أن يعمل فى الاسكندرية كما كان يعمل فى بور سعيد .

واختار الابن والابنة مدينة القاهرة . فهناك سحر العاصمة وهناك المعاهد العليا والجامعات التى تنتظرهما فى السنوات القليلة القادمة .

وكالعادة تنازل الأب ، ووافق على طلب زوجته .

وكالعادة — أيضا — تنازلت الأم عن حقها ، ورضيت بما أراده الأولاد .

وتقررت الهجرة الى العاصمة .

ولم يكن فى جيب الحاج متولى الكثير الذى يكفى اقامته واقامة الأسرة فى القاهرة أكثر من شهر أو شهرين .

ولم يكن يخطر على بال أحد ان الهجرة ستزيد على أسابيع قليلة ، يعودون بعدها الى بور سعيد ، كما سبق وحدث أثناء حرب السويس سنة ١٩٥٦ .

وسافرت أسرة الحاج متولى الى القاهرة .

وقتها أصدرت الحكومة ــ مشكورة ــ قانونا بتمكين أى مهجر من منطقة القناة ، من الاقامة فى الشقة التى وضع يده عليها . ولايمكن لأية قوة أن تطرده منها .

وبسهولة عثر الحاج متولى على شقة صغيرة فى وسط البلد ، وفى عقار تملكه احدى شركات التأمين ، وهى من شركات القطاع العام . وصاحب الشقة كان يريد أن يتركها . بسبب نقله الى وظيفة أخرى فى مدينة الاسكندرية . وهو لا يريد أن يترك الشقة بدون أن يأخذ خلو رجل من المستأجر الجديد . ولكن المستأجر الجديد يوافق على أن يدفع الخلو ، بشرط أن توافق الشركة ــ صاحبة العقار ــ على تغيير عقد الايجار باسمه . والشركة لا يمكنها أن تغير العقد ، لان القانون يحظر على شركات القطاع العام تأجير شققها الخالية بغير طريق القرعة ، أو بقرار من لجنة المحافظة ، ووفقا لأولويات محددة ومعروفة .

ولهذا السبب وجد الحاج متولى أكثر من شقة تحت تصرفه ، وفى القطاع العام بصفة خاصة . فالمهجر هو الوحيد الذى يمكنه أن يستأجر شقة ملك القطاع العام ولا يستطيع أحد أن يخرجه منها .

ودفع الحاج متولى خمسمائة جنيه « خلو رجل » لشقة صغيرة فى وسط البلد ايجارها الشهرى ٦ جنيهات ونصف فقط .

وأقامت أسرة الحاج متولى فى القاهرة ، وكأنهم يمضون أجازة الصيف .. قبل عودتهم مرة أخرى الى بور سعيد .

وبالفعل ، هدأت الحالة العسكرية . أو لعلها تجمدت بمعنى أدق .

وانشغلت البلاد بالاصلاح الداخلى ، وباعادة بناء الجيش من الصفر ، وبمحاكمة رجال المشير عبد الحكيم عامر ، بتهمة التآمر على أمن وسلامة الدولة .

وعادت الحياة الطبيعية الى القاهرة والاسكندرية .

دور اللهو والسينما عادت تعمل كما كانت قبل الحرب . والاذاعة والتليفزيون بدأت تذيع الأغانى وتعرض الأفلام الضاحكة ، ولم يبرد بعد دماء الشهداء فوق رمال سيناء الملتهبة .

وقيل ردا على ذلك ، ان الدكتور عبد المنعم القيسونى قد سئل عما فعلته بريطانيا — وكان يدرس فيها فى شبابه — خلال الحرب العالمية الثانية . فقال الدكتور القيسونى ان بريطانيا كانت تعيش عيشتها الطبيعية ، وفى نفس الوقت كانت تحارب ، وتقاتل ، حتى تمكنت من هزيمة الألمان .

واعجبت مراكز القوى بهذا الرد الذى قاله الدكتور عبد المنعم القيسونى .

وتقرر أن تعيش البلاد عيشة طبيعية ، جنبا الى جنب مع الاستعدادات العسكرية لرفع وازالة آثار العدوان .

وما أسرعنا فى رفع الشعارات ..

وما انشطنا فى التغنى بهذه الشعارات ..

وسمعنا من يهتف ويغنى بكلمات حماسية تقول « يد تبنى ويد تقاتل » .

ثم أعلنا اننا نمر الآن بمرحلة أسماها حكيم الزمان « بمرحلة الصمود » .

ثم انتقلنا من « مرحلة الصمود » ، لنبدأ « مرحلة الردع » .

وأصبحت مرحلة الردع تعرف باسم « حرب الاستنزاف » .

واندلعت عند القناة أبشع حرب عرفتها مصر .

كانت الطائرات الاسرائيلية تغير على مدننا وقرانا ومواقعنا العسكرية ، ليل نهار ، وتفرغ قنابلها — زنة ٥٠٠ و ١٠٠٠ رطل — لتحول المنطقة الى قطعة حامية من جهنم .

وليست تحت يدى الأرقام الرسمية لعدد قتلانا وجرحانا خلال حرب الاستنزاف ..

ولكن من المؤكد ان العدد لا يقل عن عدد قتلانا وجرحانا خلال حرب الأيام الستة من شهر يونيو ١٩٦٧ ، ان لم يزد بكثير .

كانت الحرب مشتعلة عند القناة ، وداخل الأعماق ، واذاعات القاهرة مستمرة فى اذاعة أغنيات عاطفية لأم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وشادية .

كانت المنازل تتهدم ، وأجساد الجنود فى الخنادق تتطاير ، والتليفزيون المصرى يقدم مسرحيات فكاهية ، وأفلاماهزلية ، واستعراضات غنائية .

حتى نشرات الأخبار ، كانت ــ فى البداية ــ تكتفى باذاعة أنباء المعارك اليومية فى جملتين . بنفس الألفاظ . وبنفس الكلمات ، من عينة :

« تصدت مدفعيتنا للطائرات المغيرة ، فأجبرتها على الهرب شرقا . »

أو « أسقطنا اليوم طائرة معادية ، وهربت باقى الطائرات غربا ، بعد أن تخلصت من ذخيرتها بعيدا عن العمران . »

ثم لم تذع أية أخبار عن معارك الاستنزاف لا فى نشرات الاذاعة ، ولا حتى فى صفحات الصحف الأولى .

ومن المؤكد أن الملايين من الشعب المصرى ، خارج منطقة القناة تصوروا ان الحرب قد انتهت . فهى لم تبدأ أبدا بالنسبة لهم .

منازلهم سليمة . مدارس أولادهم باقية . ايرادهم الشهرى لم يمس . الاذاعة تغنى . والتليفزيون يرقص . والصحف تنشر مسابقات الكلمات المتقاطعة .

فأين هى هذه الحرب التى يتحدثون عنها ؟ أو التى كانوا يتحدثون عنها منذ فترة ؟ وتبخرت الجنيهات من جيب ويد الحاج متولى .

ومرة أخرى عقد الرجل اجتماعه العائلى التقليدى ، الذى

تقرر فيه العودة الى بور سعيد . فقد أكدت المعلومات ، التى وصلت من المدينة رأسا ، ان كل شىء هادىء هناك . فحرب الاستنزاف لم تتعرض طويلا لمدينة بور سعيد . وانها تتركز خارج بور سعيد ، ووسط الدلتا ، ومشارف الصعيد .

وبالفعل عادت أسرة الحاج متولى الى بور سعيد . بعد أن تنازلت الأسرة عن الشـــــقة الى أحد المهجرين من مدينة الســـــويس .

عاد الحاج متولى ، ليقيم فى مدينة أصـــبحت بلا روح ولا طعم . فبور سعيد بلا ميناء ، كالسمك بلا ماء .

وتصور الحاج متولى انه يستطيع أن يعيش من دخل بيته فى شارع الحميدى بحى العرب . فهناك ٦ شـــقق فى هـــذا البيت ، وايراده لايقل عن ٢٥ جنيها . ولـكن فوجىء الحـاج متولى بالسكان يعتذرون عن دفع الايجـــار . فهم لا يملكون هذا المبلغ . انهم مثله كانوا يعملون فى الميناء أو يسترزقون — يوما بيوم — من البحر . والآن انقطـع هـذا الرزق بانقطـاع وصول البواخر الى بور سعيد . وقد تولت الدولة مشكورة صرف مرتب شهرى لكل أسرة لا يقل عن جنيه واحد ولا يزيد على ١٠ جنيهات للأسرة الكبيرة العدد .

ولم يعرف ماذا يفعـــل الحاج متولى . انه يقدر ظـــروف سكان منزله . ولكنه فى نفس الوقت يريد أن يعيش هو الآخر . فنصحوه بطلب النجدة من وزارة الشئون . التى وافقت — مشـــكورة — على تعويض الحاج وصرف ربع ايراد البيت ، كسلفة لحين ازالة آثار العدوان .

ومرت أيام ، وأسابيع ، وشهور ..

كلها خمول ، وكسل ، وقلق ، وغضب ، وقرف . وملل

ولم تنجح سياسة التنويم التى اتبعهـا مراكز القـوى ، بهدف حصر آثار العدوان داخل منطقة القناة وحدها .. فسرعان ماتنبه باقى الشعب الى المأساة التى يعيشها الشعب كله ، والى الأكذوبة الفارغة التى تدبرها أجهزة الاعلام المكممة .

وانتقل الغضب ، والقرف ، الى سكان مصر ٠

وبدأ طلبة الجامعات والمعاهد العليا ، يتحركون ، وينفعلون، ويتظاهرون ٠

ارتفعت لأول مرة أصوات في الجامعات تطالب بهدم التماثيل التى صنعها البعض ليعبدها الشعب ٠

وبعد الطلبة ، تحرك العمال ٠

أما الذين لم يتحركوا ، عن خوف ، أو عن رغبة فى الابتعاد عن الشر ، فقد أيدوا حركات الطلبة والعمال ، بقلوبهم ٠ وكان هذا هو أضعف الايمان ٠

يومها فوجئت مراكز القوى بهذه الثورة ٠

حاولوا أن يقبضوا على بعض الطلبة ، وبعض العمال، وتوجه اليهم نفس التهم التقليدية ٠٠٠

ولكن المحاولة فشلت ٠

فالحركة أخطر مما تصورت مراكز القوى ٠

والسخط أوسع مما قدرت أجهزة الامن ٠

وسرت نغمة بين جموع الشعب العريضة ، تقول أن الحكومة في واد والمعركة في واد آخر ٠ فلا هناك أمل فى حل عسكرى، ولا بارقة من نور للحل السياسى ٠

وبسرعة ، بدأ حكيم الزمان يفلسف الموقف ، من اجل امتصاص السخط العام ٠ فقال ان مصر لن تقبل بعد اليوم حالة اللاحرب ، واللاسلم ٠

٠٠٠ ولكنه لم يقل لنا ماذا سيفعل ؟

٠٠ واكتفت مراكز القوى باصدار أمرها ـ المنشور فى الصحف والمذاع فى نشرات الاخبار ـ بتهجير جميع سكان

بورسعيد ، ماعدا بعض الموظفين الذين لايمكن الاستغناء عنهم فى المدينة ٠

٠٠ وكان على صبرى هو صاحب هذا الاقتراح ٠ فمن رأيه أن من الصعب اقناع الطلبة والعمال ـ وباقى الشعب ـ بجدية الحكومة فى استخدام القوة ، ان عاجلا أو آجلا ، مع استمرار بقاء سكان بورسعيد فى مدينتهم ٠ أما اذا أصدرنا القرار بتهجيرهم جميعا ، واخلاء المدينة خلال أيام قليلة ، فان هذا سيؤكد للشعب والعالم كله ، عزم الحكومة على الحرب ٠وقوبل قرار على صبرى بالترحيب ، والتهليل ، والتأييد٠٠

وتلقى شعب بورسعيد القرار، بوجوم ، وحزن ، واستسلام٠ لقد تعرضوا لأبشع مظاهر الظلم ٠ وذاقوا ألوانا عديدة من العذاب ٠ فلابأس بمزيد من الظلم ٠ ولا ضرر بمزيد من العذاب ٠

ولكنهم تأكدوا ان رحلة التهجير ستطول هذه المرة ٠ فالحرب التى أشاع عملاء مراكز القوى فى التنظيم السياسى ، وعيونها فى التنظيم السرى ، عن قرب نشوبها ٠٠ لا وجود لاستعداداتها٠ ولم يكن هناك من يملك تكاليف شحن قطع الأثاث، والملابس وأدوات المطبخ ، الى معسكرات التهجير التى خصصت لكل أسرة ٠

الحكومة تولت ـ مشكورة ـ تخصيص عدد من سيارات النقل ، لنقل السكان وحقائبهم ثم بالمجان ٠ الحاج متولى، رفض أن يحشر بين المحشورين داخل عربة النقل ٠ وفضل أن يذهب الى خارج بورسعيد على حسابه الخاص ٠

عرض بيته للبيع ٠ لم يجد من يدفع له الثمن الذى طلبه٠ البيت كان ثمنه منذ سنوات نحو ٣ آلاف جنيه ، ولكن الثمن الذى عرضه عليه أحد المواطنين من أبناء دمياط كان فى حدود ١٠٠٠ جنيه لا غير ٠

وباع الحاج متولى بيته ٠ ورأسماله الوحيد ٠

وسافر بأسرته ـ على حسابه ـ الى مدينة المنصورة هذه

المرة • فالقاهرة لم تعد تتسع لامثـاله ، ممن لا عمل له ، ولا مورد رزق ثابت •

وقنعت الاسرة بغرفة واحدة في بدروم أحد المنازل القديمة، وبايجار يلتهم المعونة الشهرية التي تصرفها له وزارةالشئون الاجتماعية •

وبسرعة تبخرت مئات الجنيهـات القليـلة ، وصرفت عـلى الضروريات وحدها •

وكان لابد من التخلص من الكماليات • فباع الحاج متـولى جهاز التليفزيون بحجة أن الشاشة قديمة ،ولابد من تغييرها، وثمن الشاشة يمكن للأسرة أن تشترى به طعامها لعدة أيام• ثم باع السجادة العجمى التى اشتراها الحاج متولى لزوجته من أحد البحارة الهنود منذ عشر سنوات • فأرضية البدروم من الاسمنت الذى تتسرب منه المياه العفنة ، مما تهدد السـجادة بالتآكل والتحلل •

ثم باع جهاز التسجيل الصغير الذى أهداه لابنه ، وكان‌قد اشتراه من أحد معارفه في السوق الحرة بمحلات سيمون‌آرزت المؤممة • فالجهاز فى حاجة الى‌أشرطة • والاشرطة غيرموجودة• فقد استهلكت ، وتقطعت أثناء النقل والشحن والترحا •

ثم باع الاسورة الذهب في يد زوجته • اتضح أن المنطقة تمتلىء باللصوص • وقيل ان لصوص المنصـورة يستخدمون السكين فى انتزاع الاساور من الايدى • فخافت الزوجة على يدها وأسرعت بالتخلص من الاسورة وبيعها ، قبل ان يهجم اللصوص عليها •

ثم باع الدولاب الكبير ، الذى يزحم الغـرفة الضيقة التى تنام فيها الاسرة كلها •

ثم باع السرير • أكد الحاج متـولى ان السوس قد اخترق خشب السرير ، واصـبح يهـدده بالانهيـار وكان رأيه ان الحـل الوحيد هو التخلـص من السرير لبائع الروبابيكيا فى أسرع وقت •

وفوجئت أسرة الحاج متولى ، انها اصبحت على الحديدة . وانها تنام على البلاطة . وفوجئت أكثر عندما عجزت عن دفع ايجار شـقة البدروم المكونة من غرفة واحـدة وحمام ضيق ، ومطبخ أضيق من الحمام .

وكان يمكن للحاج متولى أن يبقى فى هذه الشقة ، فالقانون يحميه ، وتبرعات الاتحاد الاشتراكى ، ووزارة الشئون ،وأهل البر والخير ، كانت كفيلة بتسديد الايجـار . ولـكن الاسرة رفضت أن «تنكشف» أمام سكان العمـارة ، وسـكان الحى ، وتتحول الى أسرة من المتسولين .

وانتهى تفكير الحاج متولى ، الى ترك مدينة المنصورة . والاقامة فى دمياط أو رأس البر داخل أحـد المعسكرات المخصصـة للمهجرين . فهناك لن تشعر الاسرة بالحرج ، ولا تتهـددها الفضيحة . الجميع داخل المعسكر يمرون بنفس الظـروف . وأسرة الحاج متولى لن تكون الاسرة المتسولة وحدها . ستكون بين مئات من الأسر التى تعيش على القروش القليلة التى تتصدق بها الدولة عليها فى أول كل شهر .

وعندما وصلت الاسرة ، المتعبة المرهقة ، الى المعسـكر كاد يغمى على بنات الحاج متولى .

سميرة ــ الابنة الوسطى ــ شهقت عندما علمت أن أسرتها ستقيم فى غرفة واحدة مشتركة مع عائلة اخرى .

وليلى ــ الابنة الصغرى ــ بكت بحـرقة عندما اقتربت من دورة المياه المخصصة لعشرات الاسر .

أما فوزى ــ الابن الاكبر ــ فقد افزعه أن «تنكشف» أخواته البنات أمام عيون الرجال والشبان الذين يقيمون ليل نهار فى نفس المكان .

وحبست الام دموعها ، عندما وضعت قدمها لأول مرة داخل العنبر المشترك الذى كتب عليها أن تقيم فيه ، بعد أن أقامت طوال سنوات عمرها الماضية ، معززة ومكرمة ، داخـل شـقة خاصة ، نظيفة . ومستقلة .

الاب وحده هو الذى كان يبتعد بتفكيره عن تفكير زوجتـــه وأولاده ٠

كان يقلقه المصير الذى انتهى اليه ٠

ان هذا المعسكر يفكره بمعسكر اللاجئين الفلسطينيين الذى رآه يوما أثناء زيارته لقطاع غزة ٠ وقتها بكى بحرقة شديدة من أجل هؤلاء اللاجئين المصريين ٠

والمستحيل الذى رآه فى قطاع غزة ـ منذ سنوات ـ أصبح حقيقة أليمة فرض عليه ـ وعلى مئات الآلاف غيره ـ ان يتجرعوا مرارتها وآلامها وأهوالها ٠

ومرت الايام ، لتزيد من الآلام اكثر وأكثر ٠

وكان الفراغ قاتلا بالنسبة للشباب الذى ملأ اليأس قلبه ، وأظلم عقله ٠

وبدأ فوزى ـ الابن الاكبر للحاج متولى ـ يتكلم مع غيره من شباب المعسكر داخل حلقة صغيرة ارتاحت فوق رمال الشاطىء القـــريب ٠

كان فوزى أكثرهم حماسا ، وأكثرهم انفعالا واكثرهم ثورة ٠٠ وسرعان من جاء يحـــذر الحـــاج متـــولى بأن ابنه فـــوزى فوزى يعرض نفسه للخطر بسبب الكلام الذى يقوله لغيره من شبان المعسكر ٠ وكيف أن أحد جواسيس التنظيم السرى ـ وما أكثرهم فى داخل هذه التجمعات السكانية ـ قد أعد تقـــريرا طويلا عن تحركات فوزى ، وعن تطلعاته ، وعن المبادىء التى يدعو بها للثورة على الاوضاع القائمة ٠ وخاف الحاج متولى على ابنه الاكبر ، وأحب أولاده الى قلبه ٠

وخاف فوزى على والده ، لما سببه له من قلق أضافه الى باقى همومه الثقيلة ٠٠ ولم يعد فوزى يتكلم مع أصحابه فى القضايا المصيرية التى تمزق قلوبهم وعقولهم ليل نهار ٠ ليس خوفا من جواسيس التنظيم السرى ، وعيون رجال التنظيم السياسى ٠ وانما شفقة بأبيه ٠

حتى جاء اليوم الذى سافر فيه فوزى الى القاهرة ليلتحق بكلية الآداب بجامعة عين شمس ·

وجاء فوزى لزيارتى بمكتبى فى «أخبار اليوم» ·

وقص على قصته من أولها ، ولكنه لم يصل الى نهايتها ·فلا نهاية لها وقتذاك ·

لم يكن يعرف ماذا سيحدث له أو لأسرته أو لمئات الآلاف من أسر منطقة القناة ·

.. كأن التاريخ قد توقف بالنسبة لمليون مواطن مصرى !
.. كأن الدنيا قد توقفت عن الدوران وعن الحركة وعن الحياة ذاتها !

حدثني فوزى عن عشرات القروش القليلة التى تكرمت بها مراكز القوى ـ وكأنها تدفع مما ورثته عن الآباء والاجداد ـ لكل أسرة مهجرة فى معسكرات اللاجئين ! واصبح هم كل رب أسرة أن يختار المعجزة التى يستطيع بها أن يوزع تلك القروش على بنود الاكل والشرب واللبس والعلاج والتعليم والمواصلات والسفريات !

روى لى نماذج لأسر كريمة تعودت الآن ـ لأول مرة ـ على الحرمان ، وتلوت بطونها من الجوع ، وتقيم اقامة كاملة ومشتركة مع عشرات الاسر الاخرى داخل عنابر من الصفيح ، أشبه بعنابر معسكرات الاعتقال التى سمعنا عنها فى ألمانيا النازية !

وعدد لى المآسى التى شاهدها ·والفضائح التى استمع اليها· والجرائم التى ارتكبت فى حق المهجرين ·

وكان الذى يفقده البقية الباقية من اعصابه ، وهدوء تفكيره، ان هذا الصراخ الذى يمزق صمت الخلاء ويعلو على صوت أمواج البحر ، لم يؤثر أبدا فى قلوب مراكز القوى التى كانت تحكم البلاد وقتذاك !

كانت هذه المراكز مشغولة ـ فى القاهرة ـ ببناء أمجادها

الشخصية ! ومشغولة أكثر بتسجيل انتصارات حناجرها ، ومعاركها التى خاضتها فوق أعمدة الصحف !

لقد نجحت مراكز القوى الغاشمة ـ لاأعادها الله أبدا ـ فى عزل مئات الآلاف من المواطنين المصريين ، عن باقى الشعب!

وعاش سكان القاهرة والاسكندرية وباقى المدن الرئيسية، وهم لايعرفون هول العذاب الذى يتعرض له أبناء القناة!

واستمرت سنوات الضياع ،والعار ، طويلة مريرة ،بالنسبة للمهجرين ٠ وهانئة هادئة بالنسبة لمراكز القوى !

فالهزيمة لحقت بالشعب وحده ٠ ولكنها لم تمس حياة الحكام !

استمروا يسكنون القصور ٠ ويأكلون أفخر الطعام ٠ ويهربون أموال الشعب الى سويسرا ٠ ويركبون الكاديلاك ويصطافون فى استراحاتهم الفاخرة ٠ ويحصلون على مخصصات خالية ٠ بلا رقيب يراقب ٠ او محاسب يحاسب !

كانوا يتصرفون كأعضاء قيادة منتصرة ، لا كأعضاء عصابة تسببت فى اكبر هزيمة عرفها التاريخ !

لقد أسقطت مراكز القوى من حسابها ، مشاكل مليون مواطن !

كما سبق أن أسقطت من تفكيرها آلاف الملايين من الجنيهات، التى ضاعت علينا بسبب استمرار اغلاق قناة السويس !

وكما سبق أن أسقطت من ضميرها الخراب الذى لحق بمدن وقرى منطقة القناة ، فحولها الى مأوى للاشباح ، بعد أن كانت الواجهة النظيفة والمضيئة للشعب المصرى ، أمام الملايين من ركاب السفن عابرة القناة ٠

ونحمد الله أن القناة أعيد افتتاحها ، بقرار الرئيس أنور السادات ٠

فهذا القرار سيساهم فى سرعة اعادة البسمة الى الشفاه التى تصلبت وتحجرت من هول ماتعرضت له ، خلال سنوات العار التى أسماها البعض سنوات النكسة !

سنوات الحراسة

- الاشتراكية التى نبعت من واقعنا
- عمارة وسط القاهرة ثمنها ١٤٠٠ جنيه
- فضائح العم الكبير !
- الذين استولوا على شقق الحراسة

● الاشتراكية التى نبعت من واقعنا ! ●

فى سنة ١٩٦١ أعلنا تحول المجتمع المصرى من مجتمع اقطاعى متعفن ـ كما وصفه البعض وقتذاك ـ الى مجتمع العدل ، والمساواة ، والكرامة ٠

وقالوا ان هذا المجتمع المثالى لن يتحقق الا بالاشتراكية ٠

وهناك تعريفات كثيرة ، علمية ، للمذهب الاشتراكى ٠ ويهمنى قبل أن أتعرض للاشتراكية المصرية ، أن أستعرض هنا ما اتفق عليه عالميا لتفسير كلمة الاشتراكية ٠

ومن الكتب القيمة والحديثة ، التى بحثت فى الاشتراكية ، كتاب الأستاذ محمد عبد الله عنان ، بعنوان « المذاهب الاجتماعية الحديثة » ٠

كتب الاستاذ محمد عنان فصلا كاملا عن الاشتراكية العالمية ، أستأذنه فى نشر بعض ما جاء فيه من تعريفات ، علمية ، ودقيقة ، وواضحة ٠

يقول الاستاذ عنان :

ترمى الاشتراكية الى تحقيق قسط من المساواة الاقتصادية والاجتماعية بين الافراد الذين يتألف منهم المجتمع ، مسترشدة فى غاياتها ووسائلها بالتطور التاريخى للماضى ، والظروف الاقتصادية للحاضر ٠ وقد بدأت المثل الاشتراكية تجول بذهن الانسان منذ أقدم العصور ٠ فنجد فى جمهورية أفلاطون لمحة من المثل الاشتراكية الخيالية ٠ ونجدها أيضا ماثلة فى نظريات كثير من الفلاسفة والكتاب المتقدمين ٠ وقد عالجها السير توماس مور منذ أوائل القرن السادس عشر فى كتابه الشهير ٠

ولكن الاشتراكية الحديثة مذهب علمي اقتصـــادى ، وهي ترجع مشاريعها الهدامة ومناهجها الانشــــائية ، الى أسس اقتصادية واجتماعية ، وتدرس تطورات المجتمع بالاستناد الى وقائع التاريخ وحقائق الاقتصـــاد • فتعرض لنا كيف بدأ المجتمع في غمار التوحش ، ثم تطور الى الهمجية ، واستحال بعد ذلك الى الرق ثم الى الاقطاع ، واستقر اليوم في ظل النظم الرأسمالية ، وكيف نشأت الملكية الشخصـــية فوق أنقاض الشيوعية ، فنشأت بذلك علائق جديدة بين الافراد ، وقامت نظم اقتصادية واجتماعية جديدة •

تقول الاشتراكية ، ان نظام الملكية الخاصة القائم ، انما هو نتيجة الاعتداء الشخصي ، وتغلب الجماعات القوية على الجماعات الضعيفة وسيطرتها بذلك على وسائل الانتاج • وأن قيـــام الملكية الخاصة أدى الى تضارب حاد بين مصالح الافراد • بين الغنى والفقير • بين القـوى والضـعيف • القـوى بثروته ، والضعيف بحرمانه • وأن هذا النضال بين الافراد قد استحال بمضي الزمن الى نضـــال بين الطوائف • وأن طبقة الملاك لكي تحتفظ بثروتها ومصـــالحها ، قد لجأت الى قوتهـــا الاقتصـــادية في وضـــع نظم اجتماعية تلائمها • وجعلت من الملكية الخاصة أساسا للسلطة السياسية • ومن ثم استأثرت بالحكم والتشريع • وحشدت القوات المسلحة لفرض ارادتهـــا على المجتمع • وهذا في نظر الاشتراكيين هو أصـــل الدولة السياسى • فهم يقولون ان النظم الاجتماعية القائمة ، أنشئت لصالح الطبقة الحاكمة ، وغدت الدولة سلاحا في يدها تؤيد به سياستها الاقتصادية ، وتفرض ارادتها على الطبقات المحكومة • ومن ثم كانت مهمة الحكومة من قيام الملكيـــة الفردية ، هي أن ترعى مصالح الخاصة من الملاك والقادرين ، بدلا من أن ترعى مصالح الطبقات كلها •

وتشرح النظرية الاشـــتراكية تطور الدولة والمجتمع منـذ العصور الوسطى ، فتقول لنا ، ان الملوكية لبثت عصورا ومن ورائها الاستقراطية وملاك الارض ، يستعملون الدولة لتأييد سلطانهم ونظمهم ، بارهاق القوى المنتجة واخضاعها لمشيئتهم

ثم أخذت طبقة أصحاب الاموال تنمو على كر العصور ، وتناوىء الملوكية والاستقراطية • وتنتزع زمام القوى الاقتصادية شيئا فشيئا • فلما اشتد ساعدها ـ أى ساعد الرأسمالية ـ مالت على الملوكية المضمحلة فحطمتها • وسحقت نظم الاقطاع • ومزقت الطبقات الممتازة • واستولت على مقاليد الحكم • واستأثرت كسابقتها بالسلطات السياسية ، والسيادة الاقتصادية • واستخدمت قوى الدولة لفرض ارادتها على الطبقات العاملة •

وتنعت الاشتراكية نظمنا الحالية التى نعيش فى ظلها ، بالنظم الرأسمالية • وتصفها بانها نظم ايثار وتحكم • أعنى تحكم الاقلية الغنية فى مصاير الاغلبية البائسة المحرومة • وهذا الايثار والتحكم هو الذى تقصده الاشتراكية بالهدم والمحو • فهى تريد محو الملكية الخاصة فى وسائل الانتاج وثرواته • اذ هى فى نظرها وسيلة لسيادة طبقة الممولين • واستعبادها لطبقات الكافة أو الطبقات العاملة •

هذا هو جانب الهدم فى الدعوة الاشتراكية ، يكاد يجمع عليه أئمتها ودعاتها • والهدم دائما أيسر من البناء • أما الجانب الانشائى فيثير بين الاشتراكيين انفسهم كثيرا من ضروب الخلاف السياسى والاجتماعى • بل ان هذا الجدل يتناول تعريف الاشتراكية وغاياتها • ومن ثم كان من الصعب علينا ان نقدم للاشتراكية تعريفا دقيقا موحدا • بيد انها عرفت فى بعض مؤتمراتها الرسمية بما يأتى :

« هى الاتفاق والعمل الدولى بين العمال • وتنظيم الكتلة العاملة ـ أى العمال ـ سياسيا واقتصاديا ، الى حزب طائفى يعمل لانتزاع السلطة ، وتوحيد وسائل الانتاج والمقايضة ـ أى جعلها عامة ومشتركة ـ أو بعبارة أخرى تحويل المجتمع الرأسمالى الى مجتمع اشتراكى أو شيوعى » •

أما عن غايات الاشتراكية ، فان جميع المذاهب والمدارس الاشتراكية على اختلاف نزعاتها ترمى الى تحقيق الامور التالية :

١ ــ المساواة الاقتصادية بين جميع الافراد بلا تمييز فى القوميــة أو الجنس أو السن • ويقـولون فى ذلك ان أنواع الحرية التى تمنحها معظم الدساتير الحالية ، كلها الفاظ خيالية لانها لم تقترن بالمساواة الاقتصادية •

٢ ــ محو اســتغلال الفرد أو الجماعة أو الدولة للفرد • ولا يتحقق أى نوع من الحرية أو المساواة دون تحقيق هــذا الشرط • لان العامل الاجير فى مجتمع أساسه « نظام الاجور » يبقى دائما تحت رحمة مخدومه ســواء أكان هذا المخدوم هو الفرد أو الجماعة أو الدولة • ومهما قلت ساعات العمل وزيدت أنصبة الربح •

٣ ــ توحيد ملكية الارض ــ أو بعبارة اخرى الغاء الملكية الفردية ــ بما عليها وما فيها من كنوز وثروات • ويدخل فى ذلك الابنية والمصــانع وآلات الانتاج • ويقولون فى ذلك أن الاستعباد السياسى والاخلاقى والفكر الذى ساد الشعوب فى العهد الاخير ، أساسه نظام الملكية الفردية •

٤ ــ منح الحق لكل انسان بلا تمييز فى القومية أو الجنس أو السن أن يستخدم كل وسائل الانتاج العلمية والفنية • وأن ينتفع بجميع الانظمه الاجتماعية ، وان يشترك فى جميع أعمال المجتمع •

٥ ــ تنظيم التعليم المجانى العام • وعول المجتمع للضعيف والمريض والشيخ •

٦ ــ غاية الغايات فى الاشــتراكية هى قيــام الدولة الاشتراكية ذاتها ، وهى التى تنضوى تحتها وتؤدى الى قيامها جميع الاغراض المتقدمة • ويترتب على قيام الدولة الاشتراكية أن تتحول ادارة المجهود الحربى والانتاج الفــردية الى ادارة موحدة ، وتصبح الدولة هى المالكة الوحيدة لجميــع الثروات ووسائل الانتاج وجميع المرافق الاقتصادية الاخرى ، وهى التى تتولى استثمارها فتدلل المصانع والمناجم والمزارع ووســائل المواصلات والنقل ، وتشرف على تربية الفــرد ومده بســائر حاجاته •

وقد اختلف أئمة المذهب الاشتراكي بالنسبة للوسائل التى يجب الالتجاء اليها لتحقيق الغايات الاشتراكية · فيرى بعضهم أن يلجأ فى ذلك الى طريق التطور · ويرى البعض الأخر أن يلجأ الى طريق الثورة · والاولى وسيلة المصلحين ومن نحا نحوهم كالفابيين وحزب العمال الانجليزى ، وخلاصتها انه يمكن الوصول الى اعادة تنظيم المجتمع على الاسس الاشتراكية بالتعاون السلمى بين الكتلة العاملة والطبقات الاخرى · أو بعبارة اخرى من طريق النظم البرلمانية والكفاح الحزبى · وهذه هى الطريقة الغالبة فى بريطانيا · وتوصف أحيانا بالطريقة التجريبية · وهى تجرى بطريق الادارة والتشريع وتطبيق ما تثبت صلاحيته لتنظيم العلائق الاجتماعية بصور توافق عليها أغلبية المجتمع · ويمكن أن تزدهر هذه الطريقة فى ظل الديمقراطية الصحيحة ·

وأما طريق الثورة فهى نظرية ماركس وتلاميذه · وهى النظرية التى شرحها فى البيان الشيوعى فى سنة ١٨٤٨ · وخلاصتها أن المثل الاشتراكية لا تتحقق الا بثورة الكتلة العاملة على طبقة البورجوازى ـ أصحاب الاموال ـ وانتزاع السلطة من يدها وتحطيمها بالعنف والقوة ·

وينتقد مستر مكدونالد طريق الثورة لا من حيث عنفه وتطرفه فقط ، ولكن من حيث نتائجه أيضا · ذلك أن الاشتراكية ترمى الى أن تتغلغل فى كل جوانب المجتمع · وأن يشمل التغيير عملية انتاج الثروات · وهذا ما لا يتحقق بالعنف الذى قد يقف عند تحقيق المظاهر السطحية وحدها ·

ويحسن هنا أن نفرق بين الاشتراكية والشيوعية · فالاشتراكية ترمى فى النهاية ـ حقيقة ـ الى الشيوع · ولكن توجد ثمة فرق من الناحية العملية · فالشيوعية ترى أن جميع الثروات الاجتماعية مجموع يستهلك الفرد منه بقدر ما يسد جميع حاجاته · وليس فقط بقدر ما يناسب خدماته · على أن هذا الحق فى الاستهلاك يتوقف عند الشيوعيين على واجب الانتاج والعمل · فمن لا يعمل لا يأكل ، على حد قولهم الشهير · هذه هى النظرية الشيوعية فى توزيع ثمرات

الانتاج ، وهى ما تعبر عنها بقولهم « من كل طبقا لكفايته ، ولكل طبقا لحاجته » ٠

أما الاشتراكية فتتفق مع الشيوعية في وجوب انشاء المجموع العام من الثروات ٠ ولكنها تخالفها في طريقة التوزيع ٠ فتسمح لكل فرد من الثمرات العامة بما يناسب عمله وجهوده ، لا بما يناسب حاجته ٠ واذن فقاعدة التوزيع عند الاشتراكيين هى الايراد الشخصى ، وعند الشيوعيين هى الحق البشرى فى الحياة ٠

وتحيط الاشتراكية قاعدتها بضمانين : الاول هو أن يكون الايراد الشخصى كافيا للانفاق على معيار لائق من العيش ٠ والثانى هو أن يمثل الخدمات التى أديت فقط ولا يمثل المقدرة على استغلال الغير ٠ أما الشيوعية فلا تعتبر سوى المقدار الذى يلزم لسد حاجات الفرد ٠ ولا تقيد الاستهلاك الا بالناحية التى ينصرف اليها ٠

كانت هذه هى الاشتراكية ، كما عرفها العالم ٠

ورغم هذه التعريفات العلمية ، التى أخذت بها جميع الدول الاشتراكية الاخرى ، الا اننا لم نلتفت اليها ٠

فمرة نعلن ان اشتراكيتنا تختلف عن اشتراكية الدول الشيوعية !

ومرة ثانية نؤكد ان اشتراكيتنا لا علاقة لها باشتراكية الدول الغربية !

فالاشتراكية الشيوعية لاتؤمن بالله ، ولا بالسماء ٠ ونحن كدولة اسلامية فأن اشتراكيتنا تؤمن بلله وبالأديان السماوية، وبالرسل وبالانبياء ٠

كما أن الاشتراكية الغربية ، لاتتفق مع أهدافنا وأحلامنا ٠

فالاشتراكية الغربية ، لا تتفق مع أهدافنا وأحلامنا ٠

ومرة ثالثة نقول اننا احرار فى اختيار الاشتراكيةالتى تناسبنا ٠ فنحن نختلف عن الببغاء ، ولا نردد كل ما يقال لنا ٠ وانما نحن ندرس كل كلمة ٠ ونفكر فى كل لفظ ٠ ونملك حق اختيار المذهب الذى يناسبنا ، ويتفق مع مبادئنا ،

ويتواكب مع تراثنا ، وديننا ، وتاريخنا • كلمات • مجرد كلمات جميلة • براقة • مسلية • قلناها آلاف المرات • استمعنا اليها ملايين المرات •

وبدأنا نطبق الاسلوب الذى توصلت اليه مراكز القوى ، لتحول به مجتمعنا الرأسمالى المتعفن الى المجتمع الانسانى ، الاشتراكى ، التعاونى • الذى لا يقلد المجتمعات الاخرى • لان تجربتنا ـ كما زعموا طويلا ـ نابعة من واقعنا ، وماضينا ، ومستقبلنا •

وكانت الحراسة ، هى السلاح الذى بدأنا به تحويل المجتمع ••

ومن سخرية القدر ، أن مراكز القوى كثيرا ما تبجحت وأعلنت فى كل مناسبة ، وبلا مناسبة ، ان التحول الاشتراكى لم يتم بالثورة المسلحة • وان نقطة دم واحدة لم ترق بسبب هذا التحول • والواقع ان هذا الكلام ، يبعد كثيرا عن الحقيقة ••

فقد نسى هؤلاء ـ أو على الأصح تناسوا ـ أن نظام الحراسات الذى أخذوا به ، كان أبتر من السلاح الابيض ، وأكثر تنكيلا وتشويها وتعذيبا من سجون محاكم التفتيش •

وهناك آلاف القصص التى يمكن أن تروى فضائح ، ومآسى تطبيق نظام الحراسات •

● عمارة وسط القاهرة ثمنها ١٤٠٠ جنيه ! ●

ونكتفى هنا بذكر بعض الامثلة :

فوجىء الاستاذ المرحوم حسين الجندى ـ وزير الاوقاف الاسبق ووكيل مجلس الشيوخ ـ بفرض الحراسة عليه وعلى ابنه وبناته •

أخذوا منهم الارض الزراعية · وانتزعوا ملكية منزلهم فى شارع القصر العينى ·

منعوهم من السـفر · وحرموهم من التواجد فى الاماكن العامة والاندية ·

وسلبوا منهم كافة حقوقهم السياسية ·

لم يحقق معهم فى جريمة ارتكبهـا أحدهم · ولم يقبض عليهم · ولم يسمح لهم بالسؤال عن سبب فرض الحراسـة عليهم · فقانون الحراسة لا يعطى الحق للشخص الذى فرضت عليه الحراسـة أن يسـأل أو أن يحتج أو أن يرفع أمره الى القضاء ·

لم تكن هناك محكمة يمكنها أن تفصل فى قضايا الحراسة · فالحراسة لا تتلقى أوامرها الا من جهة عليا ، لا سلطان لاحد على تصرفاتها وقراراتها ·

وأسلمت أسرة الاستاذ حسين الجندى أمرها لله ··

ولكن المهزلة لم تنته ·

فوجىء الرجل الشيخ بمن يدخل عليه فى صباح أحد أيام سنة ١٩٦٤ ، فى منزله الذى يملكه بشـارع قصر العينى ، ويطلب منه أن يغادر المنزل لمدة يومين ، بحجة أنه يريد تقييم قيمة المنقولات فى المنزل ، تمهيدا لتعويضه عنها فيما بعد ·

ورفض حسين الجندى أن يغادر منزله · خاصـة وان قانون الحراسة كان يسمح لمن طبق عليه القانون أن يقيم فى منزله هو وأولاده من بعده ·

وذهب حسين الجندى ومندوب الحراسة الى قسم البوليس · وهناك أخذ التعهد اللازم على مندوب الحراسة ، باعادة المنزل ـ المكون من ٣ طوابق وعلى أرض مسـاحتها ٨٠٠ متر مربع خلال يومين فقط ، ينتهى خلالها من عملية تسـجيل وتقييم مفروشات المنزل ·

ولكن اليومين أصبحا سنوات ··

ولم يسترد حسين الجندى منزله ٠

ثم مات متحسرا على هذا الظلم الذى تعرض له بلا جريمة ارتكبها وبلا ذنب جناه ٠

وفوجيء أولاد وزير الاوقاف الاسبق ، بأن الحراسة قد باعت المنزل والارض الى مؤسسة صحفية آلت ملكيتها هى الاخرى الى الدولة ٠ وقامت هذه المؤسسة بهدم البيت وأقامت مكانه الدار الجديدة ـ والحالية ـ لمؤسسة روز اليوسف الصحفية ٠

وفقد أولا المرحوم حسين الجندى ، الامل فى استرداد البيت ، والارض ٠٠

الى أن تولى الرئيس أنور السادات حكم مصر ، وأصدر قراره التاريخى بالغاء الحراسات ، واعادة الاموال والعمارات والاراضى الزراعية الى اصحابها مرة خرى ٠

وعندما ذهب أولاد حسين الجندى الى الحراسة لاسترداد أموالهم الضائعة ، فوجئوا بالحارس العام يطلب منهم التوقيع على ايصال باستلام مبلغ ١٤٠٠ جنيه كتعويض عن البيت الذى كان ثمة وقت فرض الحراسة لايقل عن ٥٠ ألف جنيه ٠

وعندما احتج أولاد المرحوم ، فوجئوا بالحارس العام يقدم لهم ما يثبت ان الحراسة باعت بيتهم الى مؤسسة روز اليوسف بألف وأربعمائة جنيه مصرى فقط لاغير ٠ وبالتالى فان الحراسة ملزمة برد هذا المبلغ الذى باعت به العقار فقط ٠

وبالطبع رفض ورثة وزير الاوقاف الاسبق ، قبول هذا المبلغ الزهيد ٠

ورفعوا أمرهم الى القضاء ٠

كانت هذه مجرد قصة واحدة من بين آلاف القصص ، ذكرتها كدليل على فوضى الحراسات التى ترك أمر فرضها ، للحاقد ، والمعقد نفسيا ، وللص ، وللانتهازى ٠٠ وما كان أكثرهم وقتذاك !

● فضائح العم الكبير ! ●

وهناك صورة أخرى ، أكثر ايلاما واجراما ..

أحد الاشخاص ، لم تكن له أية قوة سوى انه عم أحد كبار مراكز القوى . وبسبب هذه العلاقة العائلية ، أصبح هذا الشخص الاقل من العادى ، علما من أعلام النصب والاحتيال والهبش فى القاهرة والاسكندرية .

كانت البلاد مقيدة بمجموعة من القوانين . فالاستيراد ممنوع . والتصدير محرم على الافراد . ولكن العم الكبير هذا استطاع أن يحتال على هذه القوانين كلها . الذى يريد أن يحصل على اذن استيراد ، يتصل بالعم الكبير ليحصل له على هذا الاذن فى ٢٤ ساعة مقابل نسبة مئوية فى الارباح تقدر قيمتها فيما بعد بآلاف الجنيهات .

وكون العم الكبير ثروة طائلة ، من وراء اذون الاستيراد التى حصل عليها باسماء بعض الاذكياء ..

وليس هذا موضوع اهتمامنا الان ..

ولكن المهم ، ان العم الكبير وجد فى نظام الحراسات فرصة عمره ، ليضاعف ثروته عدة مرات فى اليوم الواحد .

واتبع العم الكبير أسلوبا سهلا ، ومضمونا للغاية ..

كان ـ بحكم اتصالاته وقرابته ـ يستطيع أن يعرف مقدما بعض اسماء قائمة الذين ستفرض عليهم الحراسة فى الايام القليلة القادمة .

وعلى الفور يسارع بالاتصال بهؤلاء المواطنين ، ويكشف لهم

عما سينزل بهم من مصائب خلال الساعات والايام القادمة ·

وتصـــوروا منظر هذا المواطن الذى يأتى له من يقول ان الحراسة قد فرضت عليه وعلى أولاده ، وان اعلانها وتطبيقها مسألة ساعات قليلة ؟

لقد تعود العم الكبير على هذه المواقف ، من كثرة تعرضه لها ·

وكان يتدخل فى اللحظة المناســبة ، ليقترح على المواطن اليائس ، البائس ، أن يبيـــــع له عزبته ـ اذا كان يمتلك عزبة ـ أو عمــارته ـ اذا كان يمتلك عمــارة ـ أو حتى محله التجارى ·اذا كان تاجرا ·

ويوافق المواطن البائس ، اليائس ، على اقتراح العم الكبير بلا تردد · ويقبل المبلغ المعروض عليه بلا تفكير · فالعمــــارة أو العزبة أو الشركة ، ضائعة ضائعة · وأى مليم يأتى ثمنـا لها الان هو مكسب عظيم بلا شك ·

وهكذا أصبح العم الكبير من أصحاب العمارات ، والعزب والشركات ، فى جميع انحاء الجمهورية المصرية ، بلا تعب ، وبلا مجهود ، وبلا سبب ســـوى انه عم أحد مراكز القوى ، وبحكم هذه الصلة القوية ، اســـــتطاع أن يقتحم الابواب ، ويختلس النظـــر الى الاوراق السرية فوق المكاتب ، ليلتقط اسماء من ساء حظهم وتقرر فرض الحراسة عليهم ·

وكان يمكن ان يستمر العم الكبير فى عملياته ، وصفقاته ، الى ما لا نهاية ، ودون أن يكشف أمره ، لولا أن الطمع قد اعماه عن الحرص ·

فقد أعجب العم الكبير بعمارة أنيقة ، وجميلة فى وسـط مدينة الاسكندرية · ورفض صاحبها بيعها ·

فما كان من العم الـكبير الا أن ذهب الى مـكتب صــاحب العمارة ، وهمس فى أذنه قائلا :

ـ «كنت اليوم أتناول الغذاء فيمنزل ابنأخي • وبالصدفة وقعت عيني على اسمك ضمن قائمه الحراسة المنتظر اعلانها في الاسبوع القادم » •

وكان أن يغمى على الرجل !

فالمصيبة كبيرة ، لا تحتمل •

وانهار • وبكى • وتصلبت أطرافه •

ثم هدأ عندما قال له العم الكبير انه يستطيع ان يعطيه ٥ آلاف جنيه الان ، مقابل أن يبيع له عمارته ، كما انه سيسهل له خروجه من مصر الى ليبيا ، حيث يمكنه ان يواصل أعماله هناك كمقاول عمارات •

ووافق الرجل • وكاد ان يقبل يد العم الكبير الكريم ، الرحيم •

ثم يبيع العمارة التي يزيد ثمنها على المائة ألف جنيه •

وسافر صاحبها الى ليبيا ، وقبل ساعات من الموعد الذى حدده العم الكبير لفرض الحراسة • وكان يمكن ان ينتهي كل شيء عند هذا الحد ، لولا أن المواطن الهارب في ليبيا لم يقرأ اسمه ضمن قائمة الذين فرضت عليهم الحراسة ، كما سبق أن أكدله العم الكبير • وانتظر صدور القائمة التالية في الاسبوع القادم • ولم يجد اسمه في القائمة الجديدة أيضا • ولا في القوائم التي تعاقبت بعد ذلك !

عندئذ أيقن صاحبنا أن العم الكبير قد ضحك ونصب عليه !

وانه كان يطمع في عمارته ، فزعم انه قرأ اسمه في قائمة المنبوذين !

وصمم على الانتقام •

وأبرق بالقصة كاملة الى المسئولين ••

وكانت فضيحة اهتزت لها بعض مكاتب ومنازل شخصيات خطيرة فى الدولة !

وصدر الامر بالقبض على العم الكبير !

ونال ابن الاخ اعجاب ، وتكبير ، من جانب الذين سمعوا بالقصة • فالرجل الذى يحكم بالقبض وسجن عمه ، لابد أنه يؤمن بالقانون ، وبالعدالة ، وبحقوق الشعب •

وتدخل أولاد الحلال ، فوافق ابن الاخ ـ متضررا ـ على الافراج عن عمه ، بشرط ان تحدد اقامته داخل منزله ، وان يمنع من مزاولة عمليات النصب ، والهبش اياها •

والطريف والمحزن فى نفس الوقت ، ان شقيقا لاحد مراكز القوى ، اتبع نفس أسلوب العم الكبير لتحقيق ثروة طائلة فى لمح البصر •

•• ولا فائدة من تكرار العمليات التى قام بها هذا الاخ ، ولكن المهم فقط ان نذكر ان هذا الشخص أصبح من أثرياء مدينة الاسكندرية الان ، وانه يملك شبكة من المدارس الخاصة •

والسؤال الذى يجب أن يطرح الآن هو :

ـ « اذا كان هذا الشخص ، لم يستغل اسم شقيقه في تحقيق هذه الثروة ، فكيف بالله عليكم أيها السادة يمكن أن ينقلب المدرس الالزامى ليصبح صاحب مدارس خاصة حضانة ، وابتدائية ، واعدادية ، وثانوية ، ولو امتد العمر بمراكز القوى ، فربما افتتح جامعة أهلية أيضا ؟ »

وننتقل الى قصة أخرى ، تقدم لونا جديدا من ألوان استغلال نظام الحراسات • المفروض ان نظام الحراسات قد وضع لكى يلغى التفاوت الكبير بين المواطنين ، وبشرط عدم تضييق سبل الحياة أمام الذين فرضت عليهم الحراسة • بمعنى ان الدولة سوف تكفل له مستوى من المعيشة الكريمة •

٠٠ هكذا قالت لنا مراكز القوى آلاف المرا ت٠٠
٠٠ وهكـذا كتبت بعض الاقلام الصحفية ، التى هللت للحراسات ولرجالها ، ثم كتبوا الآن ضدها وضدهم ٠

وكم كانت الحقيقة غير هذا بالمرة ٠
والدليل ٠٠

استيقظ المواطن ابراهيم مينا مقار عند منتصف ليلة نام فيها مبكرا ، على دقات عنيفة على باب شقته بالدور الخامس من العقار الذى يملكه بشارع محمد مظهر بالزمالك ٠ أعلنه القادم بكارثة خضوع أمواله وأموال أولاده تحت الحراسة ٠
أخذوا منهم العمارة ٠ وألغوا بوالص التأمين ٠ وأبطلوا ملكية قطعة الارض التى يملكها على شاطىء مطروح ٠
وسأل ابراهيم مقار عن السبب فى اليوم التالى ، فنصحه أولاد الحلال بعدم السؤال والا ناله مالا يتمناه ٠
ثم جاء من يهـدده بالسـجن اذا لم يترك الشـقة التى يسكنها ٠ بحجة انها شقة كبيرة ، وانه لن يستطيع أن يصرف عليها بعد ان فرضت عليه الحراسة ٠ ولكن آل مقار تمسكوا بنص قانون الحراسة ، الذى يمنع تشردهم فى الشوارع ٠

وفشلت تهديدات الشخصية الكبيرة التى « حطت عينها » على الشقة ٠

وعاشت أسرة كانت تعيش فى بحبوحة العيش ، بدخـل يصلها من الحراسة العامة قيمته ٢٧ جنيها مصريا فقط لاغير ، يتسلمه ابراهيم مقار فى أول كل شهر ٠
أصيب الرجل بمجموعة من الامراض ٠٠
ولم يكن شابا ٠ فقد تجاوز الخمسين من العمر ٠ وبالتالى لم يكن من السهل أن يبحث له عن وظيفة ، يضاعف بهـا دخله ، ويصرف بها على اسرته التى لم تتعود عـلى الجوع ، ولا على الحاجة من قبل ٠

٠٠ وهنـاك آلاف من أمثـال ابراهيم مينا مقـار ، الذين اختارتهم مراكز القوى لتنتقم منهم ومن أولادهم بلا جريمـة ارتكبوها ٠ وبلا محاكمة ٠ وبلا قانون ٠

● عالم الحراسات ●

ان فرض الحراسة على أموال الافراد والهيئات ، ليس بدعة جديدة على الشعب المصرى • لقد عرف المصريون نظام الحراسات منذ سنوات بعيدة ، وقبل قيام ثورة ٢٣ يوليو • فما أكثر الفترات التى أعلنت فيها الاحكام العرفيـــة فى البلاد ، اما بسـبب الحروب • واما بســبب الخوف من الاضــطرابات الداخلية ، واما حرصا على المصلحة العامة •

عرفت مصر الحراسات أول ماعرفتها ســنة ١٩١٤ ، عندما أعلنت الحرب العالمية الاولى • فقد أصدر القائد البريطانى العام ، فى ٢٥ يناير ١٩٢٥ ، أمرا بفرض الحراسة على أموال الاعداء وممتلكاتهم الموجـودة فى مصر • واستمرت هـــذه الحراسة قائمة حتى نهاية الحرب العالمية الاولى •

وفى ١٤ ســبتمبر ١٩٣٩ ، صـدر الامر رقم ٦ بفرض الحراسة العامة على أموال رعايا الرايخ الالمانى • واستمرت هذه الحراسة تقوم بعملها ، الى أن أصدر الرئيس الســابق جمال عبـد الناصر القرار رقم ٧١١ الصــادر فى ٣١ يناير ١٩٦٢ بانهاء بعض تدابير الحراسة على أموال الرعايا الالمان • وذلك بالافراج عن أرصدة حسابات الاشخاص التى لا يزيد كل منها عن ٣٧٥ جنيها مصريا !

وفى ١٦ يونيو ١٩٣٩ فرضت الحراسة على أموال الايطاليين ثم رفعت الحراسة فى مارس ١٩٤٨ ، وعقــدت اتفاقية بين مصر وايطاليا فى ديسمبر ١٩٥٠ ، بشأن تسوية الديون والحقوق الايطالية •

وفى ٣٠ مايو ١٩٤٨ صدر الامر رقم ٢٦ بوضع نظـام

لادارة أموال المعتقلين والمراقبين ٠ وفى أوائل الخمسينات فرضت الحراسة على أموال جمعية الاخوان المسلمين ، وقادتها٠ ثم نشطت الجهة التى وكلت اليها مهمة فرض الحراسات على الجماعات والافراد ٠٠ فمع بداية سنة ١٩٥٦ ، وضح للبعض ان هناك فكرة لضرب الاثرياء ، والاغنياء ٠٠ وخاف هؤلاء على أموالهم ، وعلى أنفسهم ٠٠ فهربوا بجلدهم وبثرواتهم الى الخارج ٠ فصدر الامر العسكرى رقم ٤ لسنة ١٩٥٦ بفرض الحراسة على أموال هؤلاء الاشخاص والهيئات ٠٠ وصدرت عدة قرارات أخرى مشابهة ، على طول سنوات ١٩٥٨ ، و ١٩٥٩ ، و ١٩٦٠ ، و ١٩٦١ ٠ وكان القرار الاخير يحمل رقم ١١٧ لسنة ١٩٦١ والخاص بتأميم جميع البنوك وشركات التأمين فى مصر ٠ والقرار الذى تلاه ويحمل رقم ١١٨ الخاص بتخفيض مايمتلكه كل مساهم من أسهم الشركات المساهمة التى ينطبق عليها هذا القرار بنسبة ٥٠٪ وانتقال الملكية الى المؤسسة العامة التى يصدر قرار رئيس الجمهورية بتحديدها ٠ ثم القرار رقم ١١٩ الذى حدد مايمتلكه الشخص من أسهم الشركات بما لايزيد على ١٠ آلاف جنيه مصرى وتؤول الى الدولة ملكية الاسهم الزائدة ، مقابل سندات معادلة القيمة ، وعلى أساس أقفال آخر تعامل عليها فى البورصة ٠

● ماهى الحراسة ؟

الحراسة هى ان تضع السلطات ـ بمقتضى أوامر عسكرية أو قرارات جمهورية ـ يدها على أموال الاعداء ومن يبغون التأثير على الاتجاهات السياسية للدولة او زعزعة الاقتصاد القومى بها ٠

ويقول الاستاذ محسن صالح حسن أحد الباحثين فى شئون الحراسات فى البحث الذى وضعه عن « الحراسات على الاموال » ان الحراسة كانت تستند فى فرضها الى قانون الاحكام العرفية ولذلك كانت تسمى بالحراسة « العرفية » ٠٠ على الاموال ، ثم عدل التعريف الى حراسة « الطوارىء » ، عندما اصبحت تستند الى قانون الطوارىء رقم ١٦٢ لسنة ١٩٥٨ ،

ثم اطلق عليها اسم حراسة « الامن » التى فرضت تدابيرهـا في عام ١٩٦١ لتأمين المكاسب التي حققتها ثورة ٢٣ يوليو خشية ان تؤثر عليها عوامل الرجعية ٠٠ كما قالوا وقتذاك ٠

وعندما يصدر رئيس الجمهورية قرارا بفرض الحراسة على أى شخص ـ طبيعى أو معنوى ـ فانما يستند الى احكام قانون الطوارىء رقم ١٩٦٢ الصادر فى ٢٧ سبتمبر ١٩٥٨ ، والذى نصت مادته الرابعة على أن لرئيس الجمهورية سلطة اعتقـال الافراد ووضعهم تحت المراقبة أو الاستيلاء على منقول ٠٠ أو عقار ٠٠ أو بفرض الحراسة على الاموال والشركات والمؤسسات وذلك وفقا لما تقتضيه المصلحة العامة للبلاد !

ثم يتولى وزير الاقتصاد أو الوزير المختص ، مهمة تنفيذ أمر الحراسة واستكمال الاجراءات كتعيين حراس خاصين أو مندوبين ووضع الخطوط العريضة لاعمال الحراســـات ٠ أما الحراسة العامة نفسها ـ كجهاز ـ فليس لها أية سلطة وانما هى أداة تنفيذ لما يصدر اليهـــا من قرارات وأوامر بفرض الحراسة على اموال الافراد والشركات والمؤسسات طبقـــا للنظام ٠

ويمكن تلخيص وظيفة هيئة الحراسة العامة فى عـــــدة نقاط :

يتولى الحارس العام مباشرة جميع حقوق المشمولين بتدابير الحراسة باعتباره نائبا عنهم نيابة قانونية ٠

عدم قانونية مناقشة اسباب ومبررات فرض الحراســـة أو الغاء الاوامر والقرارات الصادرة بفرضها ٠

كيف يتم فرض الحراسة ؟

عندما يتم توقيع الامر الجمهورى بفرض الحراسة عـلى أى شخص ، يتم على الفور ابلاغ الحراسة العامة بهذا الامر وتقوم الحراسة ـ بدورها ـ باخطار البنـوك لتمتنع من جانبهـا عن التعامل مع هذا الشخص ٠ فتجمد أمواله لديها ٠ وتوقف التصرف فى أوراقه المالية المودعة فى البنوك ٠

ثم تشرع الحراسة فورا في جرد الاموال لمنع محاولة تهريبها ! وبجرد محتويات المنزل واثبات مايعثر عليه من نقود ومجوهرات وسندات وسبائك ذهبية • مع بيان مايوجد في الخزائن الحديدية •

ويقول محسن صالح ان مراجعة الاوراق والمكاتبات من شأنها كشف النقاب عن صلات قد يهم الامن العام الوقوف عليها ! أو عن تصرفات غير مشروعة كانت في بعض الحالات سببا في اخضاع تلك الأموال لتدابير الحراسة !

ورجال الحراسة يحرصون على توفير الامان في قلوب أصحاب المال عند تفتيشهم • فهم يقومون باجراءاتهم في حضور أصحاب الشأن أو من ينوب عنهم • ويتم الجرد في جو هادىء لا اذلال فيه أو عنف •• فرجل الحراسة مكلف بتطبيق القانون •• والقانون لايعطيه حق اذلال الخاضع للحراسة أو اهانته •

المجوهرات والمسكوكات والسبائك الذهبية •• ماعدا الخاص منها باستعمال السيدات – تطوى في احراز باسماء اصحابها ثم تودع لدى البنك الاهلي المصرى •• البنك المركزى فيما بعد – في خزائن خاصة بادارة الحراسة العامة •

والاوراق المالية والاموال النقدية ، الاولى تسلم الى البنك الاهلي المصرى ليحتفظ بها على ذمة اصحابها في محفظة الاوراق المالية المودعة لديه باسم الحراسة ، والثانية تودع بحساب الحراسة الجارى المفتوح لدى البنك الاهلي المصرى ويفتح بالقيمة حسابا داخليا بدفاتر الحراسة باسم صاحبها .

تفرض الحراسة على الخزائن الخاصة المؤجرة من البنوك • ومن ناحية الحسابات المشتركة بين شخصين أو أكثر خضع أحدهما للحراسة ، فانه يتم التحفظ عليها كلها ، لحين اثبات نصيب كل شريك على حده – مدعما بالمستندات – وعندئذ يكتفى بتجميد نصيب الخاضع للحراسة •

الشيكات المسحوبة لامر الغير بتاريخ سابق على التحفظ ،

يمكن صرفها أما المسحوبة بعد القرار فلا يجوز صرفها بأى حال من الاحوال ·

وبالنسبة للخطوات التى تتبعها الحراسة العامة فى ادارتها للمؤسسات والهيئات فيمكن تلخيصها على النحو التالى :

يتسلم الحارس المنشأة · ثم تبدأ مرحلة الجرد بالاشتراك مع مندوب الضرائب وتشكيل اللجان اللازمة ·

ويتناول الجرد الخزانة ، والبنوك والاوراق المالية ، والبضائع ، والممتلكات ·· فتعمل كشوف تفصيلية بكافة الاصول الموجودة لدى المنشأة من أراض ومبان والات وسيارات واثاث وماكينات كاتبة وحاسبة وغيرها ·· فالارض توضح مساحتها · والالات يذكر نوعها · والسيارات توضح ارقامها وارقام « الموتور » و « الشاسيه » وطرازها وماركاتها والغرض من استعمالها · ثم يحصر عدد الموظفين واعداد كشف يوضح به وظيفة كل منهم وجنسيته وديانته وتاريخ التحاقه بالعمل وآخر مرتب أو اجر يتقاضاه · وتحصر كافة القضايا والمنازعات مع بيان ملخص لكل قضية وتاريخ الجلسات واسماء الخصوم · وبعد هذا كله يمنح أعضاء اللجان مكافأة نظير قيامهم بعمليات الجرد وتتحمل المؤسسة قيمة هذه المكافأة ·

ثم تبدأ المرحلة الثانية ·· عندما يباشر الحارس المهام الموكولة اليه · فيقدم تقريره الى الحراسة العامة عن حالة المنشأة وقت الاستلام وبيان مركزها المالى من واقع ارصدة الحسابات ونتيجة الجرد وآخر ميزانية معتمدة ·

مرحلة الاستثناءات :

وقرار الحراسة على الشخص يتضمن العديد من الاوامر التى يخضع لها هذا الشخص · ومعظم أحكام الحراسة التى فرضت فى مصر ، قديما وحديثا ، تجمع على حرمان الشخص الخاضع من اهليته فى مباشرة التصرفات القانونية والمعاملات التجارية · ويمنع من تنفيذ أى التزام مالى أو غير

مالى لمصلحته فضلا عن حرمانه من اهليته فى التقاضى . فلا يجوز ان يرفع دعوى مدنية أو تجارية أمام هيئة قضائية فى مصر . ويجب عليه ان يسلم الى الحارس الخاص جميع أمواله وممتلكاته .

ثم بدأت مرحلة الاستثناءات والتسهيلات .

فقد صدرت الاوامر بالسماح للخاضعين للحراسة بمباشرة اعمال الحياة اليومية التى لاغنى عنها والتى يستعملون فيها النفقة التى يصرفها لهم الحارس العام والتى يراعى فى تقديرها نوع المعيشة للمشمول بتدابير الحراسة دون ان يبلغ الامر حد التيسير المفرط . فالامر رقم ١٣٨ لسنة ١٩٦١ وضع ٥ آلاف جنيه كحد أعلى للمبالغ السنوية التى تنمح للحراسة، وهذا المبلغ يعتبر الحد الاعلى للمرتبات فى السنة فى الجمهورية .

ويؤكد أنصار نظام فرض الحراسة ، أهميته التى عادت بالخير الوفير على البلاد ، فيقولوا :

وضع للحراسة أرصدة وأموال بعض الشركات والافراد ممن خضعوا للحراسة لاتتفق تماما مع اتساع أعمال هؤلاء الافراد والشركات ، وتشعب العمليات التى يقيمون بها ، ووفرت الارباح التى آلت اليهم مما يشير الى تسرب هذه الاموال الى الخارج بطريقة أو باخرى (..) .

ووضح للحراسة حصة الاشخاص وعمولاتهم بالنسبة لبعض الصفقات التى تعقد فى الخارج ، سواء بطريقة النقد المتبادل ، كانت تبقى فى الخارج وتوضع لحسابهم فى البنوك الاوروبية . وهذا نوع من التحايل (..) .

ثبت ان بعض الاسر ـ حتى بعد تحديد الملكية الزراعية بما لاتزيد على ١٠٠ فدان ـ ظلت تمتلك مساحات شاسعة تسمح لها بممارسة سلطة اقطاعية (..)

لقد أثرى تجار المخدرات اثراء فاحشا بلاسبب مشروع . الامر الذى تستفيدمنه اسرائيل لانها تمارس زراعة وتجارة وتهريب المخدرات فى البلاد العربية ، حتى يصيبها الانحلال الهدام

فتقــرر عزل الرجعيين وأعداء الشــعب وتجار المخــدرات عن المجتمع والتصرف فى ممتلكاتهم الحرام (٠٠)

٠٠ كان هذا دفاع أنصار نظام الحراسات ، وعن تصورهم للمكاسب التي حققهـا النظام ، للشعب وللبــلاد وللمصـــالح العــام ٠

ولكن عندما قيل لهم ان هناك جرائم ارتكبت فى حق هذا الشعب ، عندما أفلست شركات كبيرة بمجرد فرض الحراسة عليها ، وعندما خسرت مؤسسات صناعية ناجحة ، بعـــد أن تولت الحراسة العامة ادارتها ، فان رجال الحراسة يسارعون بالرد المعد مقدما ويقولون :

● احيانا تتسلم الحراســة شركة من الشركات الكبيرة « الناجحة » ٠٠ وعند جردها والوقوف عـــلى مركزها المالى الحقيقى يفاجأ رجال الحراسة بان الشركة على هاوية الافلاس ! فالخصوم ـ أى الديون ـ أكثر من الاصــــول ـ أى ممتلكات الشركة ـ ومعنى هذا ان الحراسة مضطرة الى تصفية الشركة فورا ! ٠٠ فيحدد الوزير المختص موعد التصفية حتى يمكن الاعلان عنها لكل من يهمه أمرها من دائن ومدين ٠

● وبعض الشركات الخاضعة للحراسة يتبين انها تعتمد على ماتكسبه من أموال شهرا بعد شهر دون ان يكون لها رأس مال ثابت ٠٠ وان نشاط تلك الشركات لايتمشى مع الاهداف القومية للبلاد ٠ فللسيد وزير الاقتصاد ان يصـــدر قراره بتصفية اموال وموجودات تلك الشركات ! وهذا ما حـدث فعلا بالقرار رقم ٤١٤ لسنة ١٩٥٦ ، والخاص بتصفية شركتى الانباء العربية والانباء الفرنسية تصفية نهائية !

انتهى دفاع رجال الحراسة ٠٠

والقــلم مازال فى يد رجــال الحراســات ، ليكتبوا لنا به الاسلوب الذى ابتكروه لادارة الشركات والمؤسسات الخاضعة للحراسة ٠

فلم يكن من الممكن ـ على حد قولهم ـ أن تستمر الحراسة

العامة فى ادارة هذه الشركات والمؤسسات والعقارات كلها ، والى مالا نهاية ٠

ولذلك فقد تقرر ٠٠
بالنسبة لشركات التأمين : تكونت مجموعة من شركات التأمين المصرية لتقوم بشراء شركات التأمين الاجنبية بموجب العقد المحرر فى ١ ديسمبر ١٩٥٦ ٠

وبالنسبة للبنوك : تكونت لجنة مكونة من رئيس محكمة القاهرة رئيسا واثنين من مستشارى محكمة استئناف القاهرة ومندوب عن الحارس العام ومندوب عن الجهة المشترية ، وذلك لتقييم أصول والتزامات تلك البنوك قبل قيام البنوك المصرية بشراء اصول والتزامات البنوك الخاضعة للحراسة ٠

بالنسبة للشركات والمؤسسات : أعطى القرار الوزارى رقم ٣٨٦ لسنة ١٩٥٧ ، السلطة للحارس العام لبيع وتصفية بعض الشركات الخاضعة لاحكام الحراسة ٠ ويكون تقييم أصول والتزامات الشركات بمعرفة لجنةمكونة بنفس طريقة اختيار لجنة تقييم شركات التأمين والبنوك ٠ وهذه اللجنة كانت تختص بتحديد القيمة النهائية لاسهم رأس المال وغالبا مايكون سداد الثمن على أقساط تتناسب مع حالة الشركة المشترية ٠٠
بالنسبة للتعويضات والنفقات : للحارس العام سلطة أخذ أموال من الموضوعة تحت الحراسة ، مبالغ يحدد مقدارها لاعانة منكوبى الغارات الجوية ولمساعدة المعوزين الموجودين فى مصر من الرعايا الخاضعين للحراسة أو لاعمال البر أو معاهد التعليم التابعة لهم أو لتغطية بعض مصروفات الاعتقال ٠

بالنسبة للممتلكات القابلة المتلف : للحارس سلطة بيع الاموال القابلة للتلف أو التى تكون مصاريف المحافظة عليها باهظة ٠

بالنسبة للمساكن الخالية : المساكن الخالية فى العقارات الخاضعة للحراسة تعلن بها وزارة الشئون البلدية والقروية

لتتصرف فيها تبعا للقرار الوزارى رقم ١٦٠ لسنة ١٩٥٧ ، ثم تقرر اسناد عملية تأجير المساكن الخالية التابعة للحراسة الى وزارة الاسكان . ثم اصبح محافظ القاهرة هو المتصرف فى هذه الشقق ثم سحبت منه هذه السلطة وانتقلت الى السيد نائب رئيس الجمهورية ووزير الداخلية فى ذلك الوقت ثم تركت الان لشركات القطاع العام مالكة تلك العقارات على اساس بيعها ـ أى الشقق الخالية ـ بالمزاد عن طريق المناقصات .

● الذين استولوا على شقق الحراسة ! ●

فجأة وجدت هيئة الحراسة العامة نفسها ، مسئولة عن ادارة عدد هائل من العقارات السكنية التى آلت ملكيتها بعد اخضاع اصحابها لقوانين الحراسة بأنواعها المختلفة سواء

أكانت حراسة عرفية أم حراسة طوارئ أم حراسة أمن . معظم تلك العمارات باعتها الحراسة العامة الى شركات التأمين الحكومية وبأثمان شبه رمزية ، وبالتقسيط على آجال طويلة .

وما أكثر الشقق الخالية التى تميزت بها تلك العقارات الضخمة والانيقة . وحتى تضمن السلطات العدالة فى تأجير تلك الشقق الخالية ، صدرت القوانين الوزارية ، الواحد بعد الاخر ، التى تنظم عملية التأجير .

فالقرار رقم ٨٨٨ لسنة ١٩٦٥ والذى أصدره وزير الاسكان والمرافق جاء في مادته الثانية : يعلن عن العقارات الخالية بعقارات الحكومة والتركات الشاغرة وشركات التأمين والعقارات المملوكة للاجانب الخاضعين للحراسة ، بوسائل فعالة بلوحات الاعلان بالوزارة والادارة العامة لاملاك الحكومة والجهات المعنية وعلى العقار الكائن به المكان الخالى

المعلن عنه · ويذكر في الاعلان كافة البيانات عن الشقة وذلك في اليوم العاشر من كل شهر ولمدة ١١ يوما ويتحدد اخر موعد لوصول الخطابات فى اليوم الحادى والعشرين من الشهر نفسه ·

والمادة الخامسة تقول : تكون أولوية الانتفاع بالوحدات السكنية الخالية وفقا للترتيب الآتى :

● سكان المنازل التى اخليت أو تقرر اخلاؤها بقرار من السلطة المختصة بسبب الهدم أو للتداخل بمشروعات عامة أو لاغراض الدفاع ·

● القادمون من الخارج أو اعضاء الهيئات الدولية وهيئات التمثيل السياسى والقنصلى العربى والاجنبى وأعضاء البعثات بأنواعها ·

● موظفو الحكومة ومؤسسات وهيئات القطاع العام المنقولون حديثا الى البلد الموجود به السكن المعلن عنه ·

● اعضاء مجلس الامة من غير محافظتى القاهرة والجيزة بالنسبة الى مدينة القاهرة ·

● الاشخاص الذين ينوون الزواج ·

● المرضى الذين تستدعى حالتهم الصحية انتقالهم الى المسكن المعلن عنه ·

ويتم المفاضلة بين مقدمى الطلبات من كل فئة من الفئات السابقة اذا تساوت حالاتهم بطريق القرعة بعد اخطار المتقدمين للحضور فى يوم اجراء القرعة ·

والمادة رقم ١٣ مكرر ـ وهى المادة الاخيرة ـ تقول : « يجوز لظروف خاصة الاستثناء من احكام هذا القرار فى حدود ١٠٪ من عدد الوحدات الخالية وذلك بقرار من وزير الاسكان وبعد أخذ رأى اللجنة التى يصدر الوزير قرارا بتشكيلها للفصل فى الطلبات التى تقدم وفقا لاحكام هذا القرار · »

والغريب ان ٧٥٪ من الطلبات التى كانت تصل الى وزارة الاسكان ـ فى هذا الوقت ـ كان اصحابها من اصحاب الاولوية الاولى للفوز بالشقق الحالية ٠٠ فهم من سكان المنازل التى اخليت أو التى تقرر اخلاؤها بقرار من السلطات المختصة ٠ والاعجب من هذا ان واحدا من هؤلاء لم يسعده الحظ فى الفوز بشقة من شقق الحراسة أو شركات التأمين ! لماذا ؟ ٠

شرح أحد المسئولين فى وزارة الاسكان السبب فقال بكل ثقة ووضوح : أنت تعلم ان ٩٩ ٪ من المنازل التى اخليت كان السبب الاول يرجع الى انها منازل آيلة للسقوط وفى أحياء شعبية والايجار فيها لايتعدى بضع عشرات من القروش ، فمعظمها من المنازل والعمارات الضخمة وفى أرقى الاحياء وايجار الشقة الواحدة لايقل عن مرتب ساكن المنزل المتهدم لمدة سنة كاملة ! فكيف نعطى هذا المواطن الذى يبحث عن غرفة فوق السطوح ، شقة فاخرة مكونة من ٥ أو ٦ غرف فى عمارة ضخمة بالزمالك أو بجاردن سيتى ؟ اننا فى هذه الحالة نستبعده من أولوية الانتفاع بالشقة الحالية ونقدم عليه من يليه ، ومن يقدر على دفع نفقات الشقة الجديدة ٠

وعندما قلت للمسئول : ولماذا اعطيتم الاولوية لسكان المنازل التى تقرر اخلاؤها اذن ٠

قال : لان هناك عمارات كبيرة يتقرر هدمها أو اخلاء شققها من سكانها للتداخل بمشروعات عامة أو لاغراض الدفاع ٠ وهناك تعطى لهم الاولوية فى شقق الحراسة ٠

وبالنسبة للقادم من الخارج ـ عضو هيئة دولية أو هيئة دبلوماسية من مصريين واجانب ـ فان القرار قد اعطاه أولوية للانتفاع بالشقق الحالية ٠ ولكن هذه الاولوية تثير الكثير من الجدل والنقاش :

د ٠ على لطفى : أستاذ الاقتصاد بجامعة عين شمس ٠ أمضى سنوات طويلة فى سويسرا من أجل الحصول على درجة الدكتوراه من جامعة لوزان ، ثم عاد الى القاهرة وبحث عن

شقة من شقق القطاع العام أو الحراسة دون جدوى . واخيرا وبعد أكثر من سنتين استطاع ان يعثر على شـــقة في عمارة قطاع خاص وبعد ان فقد الامل فى امكان تمتعه بأولوية القادم من بره .

د . سامح عبد الله : حاصل عـــلى دكتوراه فى جراحـــة الاعصاب من الولايات المتحدة قال لى انه لم يترك اعلان عـــن شقة فى القطاع العام الا وتقدم ليشغلها ، وفى كل مرة يفاجأ بحصول غيره عليها برغم ان غيره هذا لم يتهدم منزله الاول ولم يصل من الخارج وانما اعطيت له اولوية بحجة انه عريس وعلى وشك الزواج ! ويضحك د . سامح هـــو يقول لى لقد « أخذ الشقة لانه ينوى الزواج ولم آخذها برغم اننى متزوج فعلا وعندى ٣ أطفال .

والسيد سيد رشاد حسن : أمضى ٥ سنوات فى أوروبا للدراسة فى جامعاتها ثم عاد منذ سنة ١٩٦٥ ، وحفيت اقدامه للحصول على شقة من شقق القطاع العام لان شقق القطاع الخاص ـ وقتها ـ كانت تتطلب خلو رجل وصـــل الى ألف والفين من الجنيهات . ولكن عودته من الخارج لم تعطه ايـــة أولوية كما ان حالته المالية لا تمكنه من دفـــع خلو الرجـــل فاضطر الى السكن فى نهاية مصر الجديدة برغم ان عمله فى وسط القاهرة !

وعدد كبير من الذين التقيت بهم وجدتهم ثائرين عـــلى الاولوية التى منحها القرار رقم ٨٨٨ لاعضاء مجلس الامـــة ان الشقق التى تمنح لاعضاء مجلس الامة من شقق عمارات القطاع العام انما تشغل بالسكان طوال السنة وليس صحيحا انها تغلق لفترات طويلة جدا . وهذا الاعتراض يرد عليـــه بان المفروض ان يقيم عضـــو مجلس الامـــة فى دائرته وبين مرشحيه خلال الفترة التى لايعمل فيها مجلس الامة واحيانا يسافر العضو الى بلدته ولكنه يترك شقته لافراد اسرته أو اقاربه ممن لايمكنهم الحصول على شقة خالية .

اعضاء مجلس الامة ستنتهى مدة عضويتهم يوما ما . فهل

سيطلب منهم تسليم شقتهم باعتبار انتهاء عملهم بمجلس الامة واقامتهم الدائمة بقراهم ومدنهم الاصلية من جـديد ، أم ستترك لهم تلك الشقق • وفي هذه الحالة ، وعند انتخـاب الاعضاء الجدد لمجلس الامة الجـديد • أم سـتترك لهم تلك الشقق • هل سيمنح الاعضاء الجدد أولوية الحصول عـلى شقق خالية فى عمارات القطاع العام وشركات التأمين والحراسة هم أيضـا ؟

وكثر الحديث عن نص المادة ١٣ مكرر في القرار رقم ٨٨٨ والتى جاء فيها حق الوزير فى الاستثناء من قواعد القرار فى حدود ١٠٪ من عدد الوحدات الخالية • فعندما يشتد الطلب عـلى الشقق الخالية • وعندما توضع قواعد لتوزيع تلك الشـقق فان أى استثناء ـ مهما كانت اسبابه ـ فانه يؤلم الرأى العام ولا يجعله يتقبل بسهولة اسباب هذا الاستثناء •• مهمـا كانت جوهرية ••

وقد كان هذا الاستثناء سببا فى توزيع الشـقق بطرق خالفت القواعد التى حددها القرار الوزارى •• مما ادى الى الانحرافات التى هى سبب سخط وغضب وثورة آلاف الاسر التى عجزت عن العثور على شقق خالية ! •

والسؤال الآن :

– لمصلحة من فرضت الحراسة على آلاف المـواطنين ، ومن هو صـاحب المصـلحة الحقيقية في أن تنضم تلك العزب ، والعقارات ، الى أموال الدولة ؟

الطبيعى أن يصـبح الشعب هو صـاحب المصـلحة الاولى والوحيدة ، لقرارات الحراسة •

اننا نتمنى أن يثبت هذا •

ولكن هل هذا تم فعلا ؟

نتمنى أن يقال لنا كم عدد المواطنين ، الذين استفادوا من فرض الحراسـة على الاراضى الزراعية ، وكم عدد المواطنين

الذين حصلوا على شقق فى العمارات المصادرة ، والتى آلت ملكيتها الى شركات التأمين ؟

المفروض أن توزع الشقق الحالية ، على المواطنين بالقرعة ، وطبقا لأولويات محددة ، وبتصديق من لجنة تضم عددا كبيرا المسئولين فى كل محافظة ٠

كم مرة حصل هذا ؟

أليس من الغريب ان نجد اسماء لامعة ، ومعروفة ٠من بين الذين شملتهم « القرعة » والذين تنطبق عليهم شروط الأولوية ؟

وكيف حصل أمين شاكر على شقته الرائعة التى تطل على نادى الجزيرة ؟

وكيف اتيح لحافظ بدوى الحصول على الشقق الواسعة الرخيصة ، له ولبناته ؟

والفيللا الفاخرة فى شارع محمد مظهر ، كيف استطاع

الدكتور عبده سلام ـ وزير الصحة الاسبق ـ الحصول عليها بايجار رمزى يقل عن ايجار أصغر شقة فى أحقر بيت شعبى فى بولاق الدكرور ؟

والقائمة طويلة جدا ٠

ومهمة المحقق سهلة ٠

فالظاهرة غريبة ، وأنوارها كاشفة ، مبهرة ٠٠

والا فكيف يتصادف أن ٩٩ ٪ من المسئولين السابقين والحاليين ، يقيمون فى أكبر وأفخر شقق القاهرة وباقى المدن الرئيسية ، ويدفعون ايجارا لها يقل بكثير عن الايجارالذى يدفعه الموظف البسيط فى شقة من المستوى الاقتصادى أو المتوسط ؟

واذا تركنا الشقق ، فكيف نترك العزب ؟

كيف نترك ما يقال، عن المسئولين الذين استأجروا العزب والاطيان ـ من الحراسة العامة ـ بايجار رمزى ، أو اشتروها بثمن لا يصـــدقه عقل أكثر الناس تســامحا وحبا للناس ، وكرها للحقد ؟

الذى يريد أن يبحث ، ويحقق ، ويرفع شكوى الى المدعى العام الاشتراكي ، أو الى مجلس الشعب ، فكل ما يحتاجه هو زيارة الى ادارة الحراســة العامة ليعرف منها اسماء الذين استأجروا شقق العمارات التي آلت اليها ملكيتها ، وأسمـاء الذين اشتروا العزب الزراعية التى وضعت الحراســة يدها فوقها ٠

وكم من مفاجآت سـيجدها فى انتظاره عند مراجعة هذه الاسماء ٠

سيجد اسماء لشخصيات مسئولة ، أو كانت مسئولة فى يوم ما ٠

سـيجد ان الاسعار التى تم بها تسـوية الشقق والعقارات والاطيان ، أقل بكثير جدا عن الاسعار الحقيقية ، وعن القيمة الحقيقية لها ٠

ان سلبيات الحراسة العامة ، لا تنتهى ٠

وان من المؤكد أن الرئيس أنور الســادات لم يلغ نظام الحراسات ، الا لانه ثبت فشل هذا النظام ، وفاحت رائحته ، فى كل مكان !

سنوات الهروب

- الذين هربوا .. !
- .. والذين عادوا .. !

● الذين هربوا .. ●

عشنا فترة قاسية فى حياتنا . انقلبت فيها الأوضاع تماما. الجاهل أصبح خبيرا . والمتعلم اعتبروه جاهلا . المناصب الفنية قفز عليها واحتلها غير الفنيين . والوظائف القيادية استولى عليها أصحاب النفوذ ، وأقارب القادة ، وأصهار المحاسيب .

ورأينا العجب ..

البعض لم يتحمل ، واحترم نفسه ، وثقافته . وعلمه . وشهاداته ، وخبراته ، وقرر أن يترك البلد .. بلده . والبحث عن بلاد أخرى يمكنها أن تستفيد منه ، وأن يخدم أهلها .

وبدأت بذلك سنوات الهروب ..

هروب العلماء ، والخبراء ، والاساتذة ، والعباقرة .. من

مصر ، الى بلاد الله الاخرى . وفقدت البلاد خيرة شبابها المتعلم، المثقف .

وامتلأت المكاتب هنا ،بانصاف المتعلمين ، وانصاف الاميين، وانصاف الوطنيين .

وكانت الصورة قاتمة جدا فى سنوات الستينات .. او سنوات الهروب .

واذكر اننى ذهبت وقتها الى لقاء مع اللواء محمود الحمزاوى، مدير عام مصلحة الجوازات والجنسية وقتذاك ، فقال لى ان طلبات الهجرة المقدمة من الفنيين بدأت تتزايد سنة بعد اخرى. وفى عام ١٩٦٢ هاجر ٧٠٠ مواطن ، ثم تضاعف العدد وبلغ ١٦٥٢ فى سنة ١٩٦٣ ، وقفز الى ٢١٤٠ فى عام ١٩٦٤ ،

ووصل الى ٢٥١٠ فى سنة ١٩٦٦ ٠ وخلال الاشهر الاولى من سنة ١٩٦٧ بلغ عدد طلبات الهجرة من نفس فئة الفنيين العلميين يتقارب مع عد دطلبات عام ١٩٦٦ كله ٠

وكان السيد صلاح هدايت ـ نقيب العلميين حينئذ ـ أكثر دبلوماسية عندما برر أسباب هروب العلميين من مصر فقال :

ـ «اننا فى الجمهورية العربيةالمتحدة ـ هكذا كان اسم مصر ـ نتعرض لحرب خفية من الدول الكبرى ٠ فهى تحاول جذب علمائنا للهجرة اليها ٠ ان المواطن العلمى فى بلادنا يكلف الدولة مايقرب من ٣٠ ألف جنيه ، بالاضافة الى ١٥ عاما أمضاها فى المدارس والمعامل وذلك قبل أن يكو له أى انتاج مثمر ٠ »

وقف موظف الاستقبال فى السفارة الكندية بالقاهرة يستمع الى أحد المواطنين ٠

قال المواطن للموظف انه مهندس كبير يدعى احمد عوض عبد السلام ويطلب الهجرة الى كندا ٠ وأمسك الموظف بالطلب وألقى عليه نظرة طويلة ثم قال لطالب الهجرة :
ـ حسنا ٠٠ سوف نحدد لك موعد المقابلة الشخصية ونخطرك بها ٠

وفى الميعاد بالضبط يدخل المهندس غرفة الاستعلامات بالسفارة ٠٠ وتبدأ الاسئلة والاجوبة ٠٠ فالمهندس المصرى حاصل على درجة الدكتوراه فى الكهرباء من لندن ٠٠ ويعمل فى وظيفة مدير عام باحدى المؤسسات العامة ٠ متزوج وعنده بنت واحدة تدرس فى احدى المدارس الفرنسية الخاصة ٠٠ وزوجته حاصلة على ليسانس آداب قسم انجليزى وسبق لها العمل بالتدريس وبعد مضى بضعة دقائق رفع موظف السفارة الكندى رأسه عن الاوراق وقال للمهندس المصرى :

ـ حسنا ٠٠ سنخطرك بنتيجة المقابلة فيما بعد مع السلامة ٠
ثم جاءت النتيجة وكانت تحمل الرد بالرفض وبدون ابداء الاسباب مع رجاء عدم احراج السفارة أو سؤالها عن السبب

وعدم تقديم طلب التماس أو كارت توصية للنظر بعين العطف في الطلب القديم !

المهندس الحائر لايعرف جوابا عن أسئلته حتى هذه اللحظة ·· ولكننا نعرف الاجابة ·

ان ماحدث فيسفارة كندا يحدث أيضا فيسفارةاستراليا· وما لاقاه المهندس عوض عبد السلام في سفارة كندا سبق أن لاقاه المئات مثله لا من كندا وحدها وانما من سفارة استراليا أيضـــا ·

فالموظف مظلوم بتصرفاته ·· فهو يتلقى يوميا أكثر منمائة طلب هجرة ومن جميع الفئات والاعمار ·· والفترة الطـويلة التى يحتاجها كل طلب · نجدها معقولة جدا بالنســبة لآلاف الطلبات المكدسة فوق المكاتب تنتظر البحث والتمحيـص من المسئولين عن الهجرة ! والرفض الذى وصل الى المهندسالكبير يعتبر هينا جدا بالنسبة لمئات الطلبا التى رفضت ومعظمها ــ ان لم تكن كلها ــ قدمت من اطباء كبار وصيادلة وعلماء فى الطبيعة والكيمياء والزراعة ! وبرغم ان طلبات الرفض لايذكر فيها الاسباب · فان السبب الواضح والمنطقى هو العدو المذهل الذى يطلب الهجرة · وكندا تحدد لكل دولة أقصى عدد يمكن قبوله من طلاب الهجرة وبذلك يمكن ايجاد حالة منالتــوازن بين الجاليات المختلفة ·· فلاتحدث غالبية أو أقلية ·

والهجرة اصبحت أملا للشــباب فى بلادنا خلال ســنوات الهروب ·

فى سفارة كندا تقابلتمع سامى أمينوأحمد عبدالله ومدحت كامل وشريف حتاته ونادية ثابت ومديحه عبد القادر وجميعهم طلبة فى جامعة القاهرة ·

قال لى أولهم : سأطلب الهجرةلاننى لم أعدأطيق الحياةهنا!
وقال الثانى : سأطلبها لاننىطموح جداوأعتقد اننىسأرضى طموحى هناك ·
وقالت نادية ثابت : أما أنا فسأطلب الهجرة لاننىأراسل

فتاة كندية منذ عدة سنوات وأعجبتني المعيشة الكندية من خلال الخطابات المنتظمة التى كنت أتلقاها منها • وقدعرضت على السفر الى هناك •

فسألت نادية : وماذا ستفعلين هناك ••؟ ثم دراستك هنا• هل ستتوقفين عنها ؟

فردت بلا مبالاة : يمكن أن أواصلها هناك •

ويمكن تقسيم الشبان الذين طلبوا الهروب من مصر فى الستينات الى اكثر من نوع •

فهناك الشباب الحائر الذى يطلب كل شيء بسرعة ويعتقد أن بلاده لن تستطيع أن نقدم له كل الذى يطلبه • وأكثر من ٦٠٪ من هؤلاء نجدهم من اصحاب الشهادات المتوسطة والذين يعانون من عنجهية أقرانهم أصحاب الشهادات العليا ! وهم يؤمنون بأن خبرتهم تعوضهم عن الشهادة العليا • ويؤلمهم ان الدولة لاتساويهم بأصحاب الشهادات ! وهم يسمعون عن أوربا وأمريكا • وكيف انهم هناك يؤمنون بأن الخبرة أهم من الشهادة • فالشهادة بدون خبرة لاأهمية كبيرة لها • وهذا وحده يعطيهم الكثير من الامل فى حياة أفضل •• فى صورة أرباح مادية مغرية من جهة • ولاراحتهم من العقدة النفسية المؤلمه التى سببها لهم أصحاب الشهادات عديمو الخبرة • من جهة أخرى !

وهناك الشباب الطموح الذكى الذى يعمل فى كل شيء طالما ان هذا العمل قد يوصله الىمايريده لمستقبله • فهممن أصحاب الحرف • أى حرف • طالما انها حرفة موجودة فى كندا او فى اية دولة اخرى • حرفة لايستغنى عنها الناس ابدا • سواء أكان ميكانيكى سيارات او حتى حلاق رصيف ! فالاول ستتخاطفه جراجات كندا والثانى ستتخاطفه صالونات الحلاقه فى استراليا او حتى فى دولة عربية مثل الكويت او ليبيا أو قطر • ففى هذه الدول العربية مازال ابن البلد يجد حرجا شديدا فى العمل المهنى ولكنه فى نفس الوقت يسعده أن يعثر

على الميكانيكي الماهر الذي يصلح له سيارته ٠ وعلى الحلاق المدرب الذي يقص له قفاه !٠

وهناك الشباب المثقف الذى لاتعجبه وظيفته ولايرضيه مرتبه الشهرى منها انهم الحاصلون على الشهادة الجامعية وتم تعيينهم عن طريق القو ى العاملة فى المصالح الحكومية والمؤسسات العامة المختلفة وبمرتب معروف ومحدد ٠ وهؤلاء ينقسمون فيما بينهم الى :

١ ـ نظريون ٠ من خريجى كليات الحقوق والتجارة والآداب وغيرها ٠٠ فمنذ انشاء هذه الجامعات وحتى قيام ثورة ١٩٥٢ بلغ عدد الخريجين ٤٤٥٥٩ خريجاً (ذكور واناث) ومن ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٦٦ ارتفع عدد الخريجين فى الجامعات المصرية الى ١٣١٨٣٧ خريجا ٠ ويهمنا هنا ان نحدد الزيادة فى خريجى الكليات النظرية منذ قيام الثورة حتى عام ٩١٦٦ فنفاجأ بأن عددهم قد زاد ٥٢٨١٣ خريجا ٠ هذا العدد المذهل الذى لاتعرفه الكليات النظرية فى معظم دول العالم الاخرى ٠٠ لاتساعده الوظائف التى يطمعون فيها ويتوقعونها بمجرد تخرجهم فى الجامعة ٠ فالدولة ليست فى حاجة الى مجهود ٢٩٩٠٠ محام مرة واحدة ٠ ولا الى خدمات ٢٩٤٤٠ خريجى آداب على الاقل ٠ ولا الى خبرة ٣٥٦٩٦ خريج كلية تجارة ، ولا الى ٦٧٩٥ خريج كلية دار العلوم ، ولا الى ٣٤٥٠ خريج كلية البنات ، ولا الى ٥٤٦ خريج كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، واللغة العربية ومدارسها والمساجد المصرية وملحقاتها ، ولا تحتاج مطلقا الى كل خريجى كليات الازهر الذين بلغ عددهم ١٧٤٤٠ خريجا ٠ منهم ٤٦٣٧ من كلية أصول الدين و٦١٥٤ من كلية الشريعة والقانون و٦٦٤٩ من كلية اللغة العربية ٠

هذه الاعداد الهائلة من النظريين لانحتاجها كلها فى مصر ٠ فاذا شجعنا الهجرة بينهم فهذا أصلح للدولة ولهم ! فلانرهق الميزانية من أجل آلاف الوظائف التى لا جدوى منها ، ولايتعب الشباب فى البحث عن الوظيفة . فحتى اذا وجدها فان مرتبها

ان يكفيه ولن يرضيه فيعتقد وقد تفسد نفسيته وتتحطم آماله! وما أكثر البلاد التى تحتاج الى هؤلاء .. انها تنتظرهم بمرتبات أكبر وبامتيازات مغرية . فاذا أردنا تشجيع الهجرة فيجب أن يبدأ تشجيعنا بين هؤلاء أولا وثانيا وثالثا . وبعض هؤلاء ليسوا في حاجة الى هذا التشجيع . فما أكثر الذين هاجروا منهم الى كندا والى استراليا . على سبيل المثال : محمد أمين خريج اقتصاد وعلوم سياسية هاجر الى كندا .. حسين محرم خريج تجارة من جامعات أمريكا يستعد للهجرة الى كندا هو أيضا .. وغيرهم بالعشرات ان لم يكن بالمئات .

٢ ـ علميون . من خريجى كليات الطب والهندسة والصيدلة وغيرها .. حقيقى ان الثورة لم تضاعف فى اعداد خريجى الكليات النظرية وحدهم وانما اهتمت أيضا بتخريج طلبة وطالبات الكليات العملية بشكل واضح جدا . فحتى قيام الثورة كان عدد خريجى الكليات العملية لايزيد عن ١٨٠٥٢ أصبح عددهم ٧٠٥٦٩ حتى عام ١٩٦٦ أى ان العدد زاد ٥٢٥١٧ خريجا خلال الفترة مابين يونيو ١٩٥٢ حتى دفعة يونيه ١٩٦٦ . وبرغم هذا العدد الكبير فان النهضة الكبيرة التى نحس بها الآن في حياتنا تدفعنا الى طلب مضاعفة هذا العدد بسرعة كبيرة . وأن أى نقص فيه قد يتسبب فى اعاقة الاندفاع الثورى ويوقف حركة الانتاج فى دولة بلغ تعدادها ٣٠٠٥٣٨٦١ نسمة لن يكفيها مطلقا ١٤٢٩٠ طبيبا بشريا ، ولا ١٥٢٩ طبيب أسنان ولا ١٩٧٥ طبيبا بيطريا ولا ٣٤٣٠ صيدليا ولا ١٨٦٩٧ مهندسا زراعيا ولا ٩٦٠١ مهندس ولا ١١٠٤٧ خريج كلية العلوم . وحتى اذا اعتمدنا على جهود الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء ، الذى يرأسه السيد الفريق جمال عسكر ، وسألناه عن عدد الأفراد المنتظر تخرجهم فى جامعاتنا من عام ١٩٦٦ حتى عام ١٩٧٢ فسيحدد لنا العدد بالتقريب فيقول: خريجوا كليات العملية سيبلغ عددهم فى عام ١٩٧٢ مايقرب من ٦٩٣٥٤ . وسيبلغ عدد خريجى الكليات النظرية حوالى ٩٣٤٠١ خريج !

هذه الارقام ذكرت على فرض ان الخريجين فى الكليات العملية سيعملون جميعا داخل الجمهورية العربية المتحدة وعلى فرض

ـ أيضا ـ ان واحدا منهم لن يتقدم بطلب لهجرة الى كندا ٠

ولـكن ٠٠

هل وجود هذه الاعداد من الفنيين سيكفى احتياجاتنا ٠٠؟

ان عدد الاطباء حتى دفعة يونيه ١٩٦٦ ـ مع افتراض انهم جميعا يعيشون بيننا ـ يبلغ ١٤٢٩٠ طبيبا : فهل يكفى هذا العدد الضئيل جدا لشغل وظائف المستشفيات والعيادات الخارجية المنتشرة فى جميع أنحاء الجمهورية ، ومع افتراض أن الدولة لن تتوسع مستقبلا فى انشاء مستشفيات جديدة والاقتصار على المستشفيات الحالية ؟

ان بعض الاطباء يحاولون التضليل ويقولون : وماذانفعل٠؟ اننا لانجد عملا فى مصر ان جميع المستشفيات مكتفية بمالديها من أطباء ٠

ويمكن الرد بالارقام على هذا الكلام ٠٠ سنمسك بالمدن وحدها دون الريف٠٠ سنجد هناك ١٥٣مستشفى عام ومركزى و١٣٧ مستشفى للرمد و١٤٨ مستشفى للامراض المتوطنة و٧٣ مستوصفا للصدر ووحدات الفحص المتنقلة و٥١ مصحا ومستشفى للامراض الصدرية و٣٦٩ وحدة خدمة للاسنان و٣٢٦ قسما للاشعة و١٨٠ وحدة للصحة المدرسية ومستشفياتها و٢٠ عيادة للامراض النفسية والعقلية و٩ عيادات خارجية ٠ و٩٦ عيادة ووحدة للعلاج من مرض الكلب و٦٦ عيادة ومستشفى لعلاج الجذام و٧١ مستشفى للحميات و٤٥ عيادة للامراض الجلدية والتناسلية ٠٠ وان عدد الاسرة فى جميع هذه الوحدات العلاجية قد بلغ فى سنة ٦٥ـ١٩٦٦ حوالى ٦٥٨٦٤ سريرا ٠ وكما نعلم جميعا ان مشكلة العلاج فى مصر هى كيفية الحصول على سرير خال فى احدى المستشفيات ٠٠ او بمعنى اصح لدينا ٦٥٨٦٤ مريضا كل يوم ـ فى المدن فقط ـ فهل يكفى العدد الضئيل من الاطباء لعلاج هؤلاء المرضى ٠٠ مع افتراض ان جميع الاطباء يعملون ٢٤ ساعة فى اليوم وبلاأجازات مرضية أو عارضة او سنوية او حتى أسبوعية ٠

أما الخدمات الصحية التي تعززها الدولة لأهالى الريف فتبلغ ١٥٧٧ بما فيها المجموعة الصحية والمركز الاجتماعى ووحدة العلاج الشامل والوحدة الصحية الريفية .. وان عدد الاسرة فى هذه المجمعات يصل الى ٧٩٤١ سريرا .

أما الصيادلة فالوضع أغرب .

ان عدد الصيادلة حتى دفعة يونيه ١٩٦٦ لم يزد عن ٣٤٣٠ صيدليا وعدد الصيدليات الاهلية يبلغ ١٣٤٤ صيدلية وعدد الصيدليات التعاونية حوالى ١١٥ اى ان عدد صيدليات الجمهورية العربية المتحدة البالغ عدد سكانها ٣٠ مليون نسمة يبلغ ١٤٥٩ صيدلية فقط لاغير .

وفى الصناعة نرى العجز واضحا فى عدد الخبراء .

ان مجموع الاستثمارات فى الصناعة وصل الآن الى رقم يزيد على ألف وخمسمائة مليون جنيه كان قبل الثورة ٥ر٥ مليون جنيه لاغير .

ذكرنا ان عدد المهندسين فى بلادنا لايزيد على ١٩٦٠١ حتى عام ١٩٦٦ . فهل يكفى هذا العدد الضئيل للعمل فى ٤٠٣٥ منشأة هى عدد المنشآت الصناعية فى بلادنا حسب الاحصاء المسمى الذى قام به الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء لعام ١٩٦٢ .

ان «العمليين» هم المشكلة اذن ! بلادنا فى حاجة الى المزيد منهم .. وبرغم هذا فان اكثر الذين طلبوا الهجرة كانوا من فئة العمليين .

فالعملى مطلوب فى كل مكان . وفى جميع الدول سواء اكانت من الدول الصناعية الكبرى مثل بريطانيا او من الدول الناهضة الجديدة مثل استراليا وكندا مثلا . وحتى ينجذب هؤلاء الى الهجرة لابد من الاغراء الى المرتب الكبير وبالحياة الرغدة المثيرة . دولة مثل الولايات المتحدة لاتكفيها الاعداد الهائلة من المهاجرين اليها ، فنجدها لاتترك وسيلة اغراء الا واتبعها مع

علماء وخبراء بريطانيا الذين سلموا أنفسهم اليها وشدوا رحالهم اليها على الفور مما أزعج الحكومة الانجليزية وبدأت الصحف البريطانية تعالج هذا الموضوع الخطير وتدق اجراس الخطر وتطالب الحكومة بوقف هجرة العلماء وكبار الاخصائيين والفنيين الانجليز الى الولايات المتحدة الامريكية مما أحدث أزمة أطباء فى بريطانيا لأول مرة فى تاريخها ، بدليل المحاولات التى تقوم بها وزارة الصحة البريطانية والمستشفيات الانجليزية لاغراء الاطباء الاجانب للهجرة الى انجلترا والعمل بها .

فى السنوات الماضية ظهر واضحا عدم حرص الدولة على خريجى الكليات العملية الذين تحمل الشعب جميع نفقات تعليمهم حتى أتموا دراساتهم العالية فى الطب والهندسة والصيدلة وغيرها ثم طالبهم الشعب برد الجميل فكان القرار بمنع سفرهم الى الخارج ..

وفوجئنا بالدولة تفتح أبوابها أمام الجميع للسفر . وللهجرة . ربما ظن الذى اتخذ هذا القرار ان طالبى الهجرة سيقتصروا على خريجى الكليات النظرية والمتوسطة ولكن الواقع الملموس الآن هو أن خريجى الكليات والمعاهد العملية هم الذين يتزاحمون على طلب الهجرة ! فهم لايتصورون ان مرتبهم لن يتعدى الـ٢٥ جنيها بعد ٧ سنوات طويلة فى دراسة الطب او ٥ سنوات فى درسة الهندسة او الصيدلة ! فى حين ان مرتب الطبيب الناشىء فى أوربا أو فى كندا لايقل عن ٢٠٠ او حتى ٥٠٠ جنيه فى الشهر !

وهم لايتصورون - أيضا - ألا تستفيد منهم الدولة بعد تخرجهم فى الجامعات وفى المعاهد العليا .

فوجئوا بأن رؤساءهم فى المصالح الحكومية وشركات القطاع العام ، لاخبرة ولا ثقافة ولا علم لهم . وان أحدث خريج منهم على علم بعمله ، اكثر بكثير من علم رئيس مجلس الادارة نفسه .

فقد زحف أهل الثقة - كما قلنا - على جميع المناصب العليا، والقيادية ..

وكان من المؤلم ، والمفزع لخريج الجامعة ، أن يعمل تحت قيادة من لايفقه سوى الشخط ، والنطر ، والتهديد ،والوعيد، واستخدام الالفاظ الرنانة ، والعبارات الثورية التى لاطائل تحتها !

.. لقد عقدوا نفسية شبابنا !

.. أفقدوه الثقة فى كل شىء !

.. أفقدوه احترام الكبير ، لان هذا الكبير لايستحق بالفعل الاحترام !

.. ثم اجبروه على التطلع الى البلاد الاخرى . الى الحياة الاخرى ..

.. وهربوا بالآلاف !

● والـذين عـادوا .. ●

« اشكرك .. باسمي وباسم المئات غيري من المصريين الذين سحبت منهم الجنسية لاسباب غريبة ، ولاسباب اغرب ! أشكرك باسمي وباسمهم . فقد كنا في بلاد غير بلادنا . بلا وطن ننتمي اليه ! وبلا جنسية نفخر بها ! حتى جاء قرارك التاريخي الاخير . الذي اعاد لنا جنسيتنا واعادنا الى وطننا العزيز . فشكرا يا سيادة الرئيس » .

.. كان هذا نص برقية من مئات البرقيات التي طارت من بلاد مختلفة الى الرئيس انور السادات من مواطنين اسعدهم قرار رئيس الجمهورية الذي فتح ابواب مصر لاستقبال الذين وضعت لهم القيود والعقبات في طريق عودتهم . فعاشوا — سنوات وسنوات — في بلاد الله ، بلا وطن وبلا جنسية !

لم يصدق الخبر عندما سمعه لاول مرة . فمنذ ايام اتصل به موظف من السفارة المصرية في سويسرا وابلغه بقرار السماح بعودة جميع المصريين الذين يقيمون في الخارج منذ سنوات ولا يحملون جوازات سفر صالحة . حتى الذين أسقطت عنهم الجنسية — لاسباب متعددة — أصبح في امكانهم الآن استعادة جنسيتهم من جهة ، والترحيب بعودتهم الى وطنهم ، من جهة أخرى .

.. القرار كان بمثابة مفاجأة مذهلة بالنسبة له . وصعب عليه جدا أن يصدقه . أو هكذا قال لي المواطن (يوسف) وأنا ازوره في شقته الصغيرة التي يقيم فيها مع زوجته الالمانية واولاده

في مدينة لوزان . كان في ذهول من الفرحه . ومن الخبر الجديد قال :

ـ ماذا حدث ؟ بل لماذا حالوا بيني وبين وطني ؟ ماذا فعلت وماذا فعل غيري حتى تسحب منا جنسيتنا ونمنع من العودة الى وطننا واهلنا ، وتاريخنا ؟

•• وكان يمكن أن اتركه يردد المزيد من تلك الاسئلة الحائرة التي لايجدلها جوابا • لولا انني بادرته قائلا :

ـ ما رأيك أن تبدأ حكايتك من اولها ؟

وكأنني انتشلته من ذهوله وحيرته . فهدأ ، وتبدد الانفعال وعاد بي لبدايته :

ـ « •• سنه ١٩٥٨ سافرت الى النمســا لمواصلة دراستي الجامعيه • أمضيت في مدينه جراز سنة ، ثم حولت اوراقي الى جامعة ميونيخ بالمانيا الغربية • فقد كنت اريد أن ادرس الطب بها • وكانت الحياة ـ كما قيل لى ـ اسهل في المانيا عنها في النمســا • ولم اكن مثل باقي الطلبة المصريين الذين كانوا يتقاضون مرتباتهم من مكتب البعثات • سواء من الذين اوفدتهم الدوله على حسابها ، او من الطلبة الذين كانوا يدرسون عـلى حســابهم • وانما كنت اعمل في ميونيخ بجانب دراستي • فأسرتي في المنصورة لم يكن في امكانها أن ترســل لى راتبا شهريا • فأبي متوفي واعمامي يتعاونون فيما بينهم للصرف على أمي واخوتي الصغار • وكان يمكن أن ابقى معهم في المنصورة واعمل بشهادتي المتوسطة في وظيفة متواضعة ولكنني قررت أن اغامر ، وان اسافر وان اواصل دراستي الجامعية في الخارج • فرص العمل في المانيا الغربية سهلة ومتيسرة للجميع • عملت في مصنع ، كنت اقف عدة ســاعات كل يوم أمام آلة تعمل اوتوماتيكيا لاجمع ما تخرجه من علب صــغيرة مصنوعة من الكرتون • وذلك مقابل ٣٠ ماركا في اليوم • أي ما يقرب من المرتب الذي يصرف لكل طالب مصري يدرس تحت الاشراف العلمي والمالي لمكتب البعثات » •

•• وتوقف يوسف عن الحديث قليلا ثم عاد يواصل قصته الغريبة قائلا :

ـ « ومرت سنوات • تقدمت فيها في دراستي ، وازداد دخلي

من عملي وكنت قد تركت مصنع الكرتون والتحقت بوظيفة عامل باحد مصانع الادوية • وبمرتب أكبر بكثـــير من المرتب الاول . حتى جاء اليوم الذى اســـتدعت فيه من موظف مكتب البعثات فى بون • واجرى معى ســـين وجيم • من اين جئت ؟ وكيف خرجت من مصر ؟ وسألنى عن المورد الذى اتعيش منه • وكيف استطعت أن اشترى سيارة وان اسكن فى شـــقة •• والى آخر تلك الاسئلة التى تحمل فى معنـــاها اكثر من اتهام واتهام : وعدت الى ميونيخ . وانا حائر بسبب تلك المقابلة . وخائف من نتائجها وسألت بعض الطلبة المصريين عـــن رأيهم ؟ البعض حاول أن يطمئننى ، فارجع الحديث الى مجرد (روتين) لا اكثر ولا أقل • أما البعض الآخر ، فقد تطوع اكثر فاكثر • واكد لى انهم يشكون فى انضامى لبعض العناصر العربية التى كانت تعارض ـ وقتذاك ـ نظام الحكم فى مصر ، وكان مجرد الشك هذا كافيا لاخافتى من جهة • ولابعادى عن وطنى من جهة أخرى •

ـ جواز سفرى رفضوا أن يجددوه فى السفارة لاننى لم اخرج من مصر بالطريق التقليدى لخروج الطلبة • ولاننى لا اخضـــع للاشراف العلمي والمالى لمكتب البعثات • ولكن السبب الحقيقى لرفض تجديد جواز السفر كان هذا (الشك) فى قيامى بنشاط معاد لنظام الحكم ! ويعلم الله اننى برىء من هذا الاتهام ولكنهم لم يقتنعوا ببراءتى • وفقدت السيطرة على اعصابى • وتهورت اكثر من مرة اثناء مقابلاتى مع المسئولين فى السفارة وفى مكتب البعثات ، واستخدمت الفاظا قاسية وعنيفة مما زاد من حـــرج موقفى واضعف قضيتى • وكلما احسست بالحلقة تضيق من حولى ، احتـــــلات كلماتى ، وكثرت برقيـــــاتى ، وغلظت الفاظى •

ـ لم اهتم • فقد وافقت المانيا على أن ابقى بها بـــلا جواز سفر ! فقد كنت اعمل وادرس • ولم تكن لى أية مشاكل ضـــد القانون • ابتعدت عن المصريين ، خوفا والما • وابتعدوا هم ايضا عنى • خوفا وحرصـــا على انفســـهم • وجاء وقت كنت اقابل طلبة مصريين يتلقون معى العلم فى نفس الكلية ، فـــلا نتبادل

الحديث . ولاحتى تحية الصـــــباح . اصبحت منبوذا لمجرد (شك) ايده انفعالى وغضبى وعنف اجوبتى عن الاسئلة التى وجهت لى · واصبحت عدوا لمجرد (رأى) لايســـنده دليل أو قرائن ! ·

ـ وانهيت دراستى · واصبحت طبيبا فتزوجت من المانية · ورتبت مستقبلى كما شاء القدر ، على أن اعيش بعيـــدا عن مصر الى نهاية عمرى · نسيت أن اقول لك اننى حاولت ـ عن طريق اسرتى فى المنصورة ـ أن اثير مشكلتى مع المسئولين · وكانت نتيجة المحاولة مجرد آراء متضــــاربة · مرة تكتب لى والدتى لتزف لى بشرى براءتى . فلم يجد المسئول الذىتحدثوا معه أى شىء ضدى · وطلبوا منى العودة بكل اطمئنان · ! ومرة تصلنى رسالة ـ ارسلت لى من بلد آخر عن طريق أحد معارفى ـ وفيها يطلبون منى البقاء وارجاء فكرة العودة الى ما شاء الله ! فقدعلموا من جهة ما انهم سيقبضون على بمجرد ان اضع قدمى فوق ارض مطار القاهرة !

·· وهكذا ·

ـ ولم اتحمل هذا التناقض فى خطابات اسرتى · فقـــررت البقاء الىما شاء الله . فجواز السفر الذى احمله لافائدة منه. انتهت صلاحيته منذ سنوات وسنوات · وكانت الفرصـــة قـــد اتيحت لى للعمل فى سويسرا · فانتقلت اليها ، ليس بســـبب اغراء المرتب وحده . وانما لأبتعد عن (الشك) الذى تحول الى (يقين) امام اجيال الموظفين الذين تعاقبوا على العمل فى السفارة ومكاتبها فىالمانيا . فكلما جاء جيل ، وجد امامه قائمة باسماء الذين وصموا فى وطنيتهم وفى اخلاصهم · مجرد سطور تحمل التأكيد وتؤخذ كحقائق لاشك فيها !

ـ ·· واعيش الآن فى سويسرا حياة روتينية · من المستشفى الى بيتى · اذا خرجت ، اخذت معى زوجتى انجـريد واولادى : كريم وليما ودينا . لا اصدقاء لنا . وأعترف اننى سعيت كثيرا للحصول على الجنسية السويسرية · واخذت وعدا بها · ولكن على أن ابقى فى سويسرا سنوات أخرى قبل البت النهائى فى

طلبي • وفكرت اكثر من مرة فى الهجرة الى الولايات المتحدة أو الى كندا أو الى استراليا •

وتوقف الدكتور يوسف عن الكلام • فقد انتهى من قصـــته الغريبة •

•• وسألته :

ـ والآن •• ماذا ستفعل ؟

فقال بسرعة :

بعد أن سمعت بقرار الرئيس أنور الســـادات • بادرت فارسلت له برقية شكر مخلصة • فالرجل قدم لى اعظم مفاجأة لم اكن اتوقعها يوما ما • فبعد ســـنوات الخـــوف والقلق واللاجنسية افاجأ برئيس الجمهورية ـــ وكأنه شعر بالامى وبالام الآلاف غيرى ممن اجبروا عن الابتعاد عن وطنهم واهلهم فاعادنا الى الوطن • وللاهل مرة اخرى • وبسرعة قررت أن الغى جميع مشروعات المستقبل • لن ابقى فى سويسرا انتظارا لجنسيتها • ولن اهاجـــر الى أمريكا أو اســـتراليا • فوطنى ينتظرنى • ومستقبلى ومستقبل أولادى هناك • فى مصر •

•• انتهت قصة دكتور يوسف • لتبدأ قصة اغرب منها •

انها قصة المواطن محمد أمين م •• من أسرة مصرية معروفة درس الاقتصاد فى جامعة لوزان ثم عاد الى القاهرة ليتزوج من أحدى قريباته • واراد أن يمضى شهر العسل فى أوربا • وفى سويسرا التى درس وعاش فيها ٥ سنوات • وكالعادة لم يسمح له بتحـــويل اكثـــر من ٥ جنيهات ومثلها لزوجته ليصرفا ـ بالعشرة جنيهات ـ على اقامتهما ومشـــترواتهما فى أوربا •

وكالعادة أيضا حاول أن يحصل ـ مثل غيره ـ على عملة أجنبية بطريق غير رسمى • اى بالتهريب ! ولم يحمل العملة المهربة فى جيبه عند سفره بالطائرة • وانما دفع قيمتها بالعملة المصرية • لعصابة تتزعمها سيدة لها علاقات واسعة فى بيروت ودمشق ، وعلى أن يتسلم العملة الاجنبية من احد بنوك سويسرا ومحولة اليه من رصيد العصابة فى بنوك بيروت •

.. وتم له ما اراد . سافر وعروسه لتمضية شهر العسل . ووجد المبلغ فى انتظاره وباسمه فى(اونيون دى بنك سويس) بلوزان .

.. وكان يمكن أن تنتهى القصة عند هذا الحد . كما انتهت بالنسبة للمئات غيره . من الذين يغادرون البلاد ـ كل يـوم ـ ومعهم ٥ جنيهات ثم يعودون الى القاهرة ـ بعد شهر أو اكثـر ـ وقد سبقتهم سيارة وحقائب ممتلئة بالملابس والهدايا والاجهزة الكهربائية والالكترونية والميكانيكية .

الا أن القصة لم تنته هذه النهاية .. (السعيدة) بالنسبة لمحمد . فقد شاء حظه أن ينشط مكتب مكافحة تهريب النقد ، وتسقط عصابة التهريب الدولية . ونقدم زعيمة العصـابة اعترافات مكتوبة بالارقام والاسـماء ـ لجميع الذين تعاملت معهم العصابة . وجاء اسم محمد ليتصدر القائمة بمبلغ ٥٠٠ جنيه هربتها له العصابة الى بنوك سويسرا .

.. وكانت قضية الموسم فى القاهرة وقدمت العصـابة للمحاكمة . وحكم عليهم باحكام مختلفة ونال محمد سنة حبس وغرامة ضعف المبلغ . وتصادف أن تم هذا كله فى غياب محمد عن مصر فقد علم بسقوط العصابة من الصحف . اثناء وجوده فى سويسرا مع عروسه . فآثر أن يبقى حتى يحكم فى القضية وعندما حكم عليه بالحبس سنة ـ مع وقف التنفيذ ـ خاف أن يعود . ليس بسبب الحكم وحده وانما بسبب الفضـيحة التى لحقت باسمه وباسم اسرته الكبيرة والمعروفة .

.. وكان أن قرر اتخاذ خطوة لم يسبق أن فكر فيها من قبل . ذهب الى السفارة الكندية فى سـويسرا وطلب الاذن بالهجرة الى كندا هو وزوجته . واجراءات الهجرة الى كندا سهلة وسريعة جدا فى أوربا . اعتبر محمد مهاجرا اليها من سويسرا لا من مصر . فقد اقام سنوات فى سويسرا ودرس فى جامعاتها ولذلك اعتبر من (حصة) المهاجرين السويسريين . ليس هذا فقط . بل أعطته السفارة تذكرة سـفر بالطـائرة ـ له ولزوجته ـ وعلى أن يسدد قيمتها فيما وبالتقسيط الطويل .

وهاجر محمد وزوجته الى مونتريال وعمل هناك فى أحـدى الشركات وعملت معه زوجته كمدرسة للغة الانجليزية فى احدى المدارس الابتدائية . ورضيا بحياتهما الجديدة . وعدلا عن مشروعات المستقبل التى كانا يعدانها فى القاهرة قبل الرحلـة المشئومة .

حدث هذا منذ سنوات . وفي الشهر الماضي وصـــل محمد وزوجته وابنه الى سويسرا قادمين من كنـــدا لتمضية اجازتهم السنوية في لوزان .

وتقابلت معهم فى بهو الفندق الذى يقمون فيه . وكان الحديث يدور حول التسهيلات الجديدة الخاصة بعودة المصريين من الخارج . فقال محمد :

ــ « .. أول شيء سافعله هو أن اكتب الى اسرتى فى القاهرة لتدرس موقفي. فانا اريد ان اعود الىالقاهرة واعمل واعيش فيها . وبالطبع انا اعترف بخطئى . ولكن عذرى الوحيد هو اننى لست الوحيد الذى اراد أن يصرف فى أوربا من الخمسـة جنيهات التى يسمح بها على الباسبور واذا كنت قـد (وقعت) فهناك المئات والالاف الذين (لايقعون) .

.. واترك محمد : ليكتب الى اسرته ، يسألها الرأى والمشورة قبل أن يفكر فى الاستقالة من عمله وترك كنـــدا . والعودة الى القاهرة . بعد سنوات طويلة من الغربة . اضطر اليها بسبب محاولته اضافة صفرين الى رقم ٥ التى يسمح بصرفها على جواز السفر !

القصة الثالثة بطلها شاب مصرى يعيش فى جنيف .

ترك مصر منذ سنوات ليواصل دراسته العليا موفـــدا على حساب جامعة عين شمس . والتحق بكلية الهندسة بلوزان . وحددت مدة الدراسة لنيل درجة الدكتوراه ٤ سنوات . ولكن فوزى ــ وهذا اسمه الاول ــ لم يتمكن من انهاء دراسته في هذه الفترة . فقد رسب اكثر من مرة فى امتحاناته وتقدم بطلب مد بعثته سنة خامسة . ورفض الطلب لاكثر من سبب . أهمها أن

سن فوزى قد بلغت ٢٨ سنة · ولا يمكن أن يبقى سنة اخرى بالخارج · ولان تجنيده قد تأجل ـ بسبب الدراسة ـ حتى سن ٢٨ فقط · وبالتالى فقد طلب منه مكتب البعثات العودة الى القاهرة ـ دون الحصول على الدكتوراه ـ ليتم تجنيده ·

·· وفعلا رفع عنه الاشراف العلمي والمالى ، وانقطع وصول راتبه ·

ووجد فوزى نفسه في موقف لا يحسد عليه · فهو فى نهاية مراحل دراسته · ويحتاج الى سنة واحدة يحصل بعدها على الدكتوراه ويعود بعدها مدرسا فى الجامعة . ومعنى عودته الآن أن يدخل الجيش وتضيع سنوات الدراسة في سويسرا هباء · ولايمكنه أن يعمل بالتدريس فى الجامعة لعدم حصوله على الدكتوراه ·

·· واختار فى النهاية القرار الذى يفيده شخصيا ·

قرر أن يبقى فى سويسرا ليواصل دراسته ويحصل على درجته العلمية العليا · مشكلة المرتب استطاع أن يحلها بسهولة عن طريق العمل ـ فى ساعات الليل الاخيره ـ فى نقل طرود البريد من القطار الى خارج المحطة · وعن طريق اعطاء دروس فى الرياضة لطلبة السنوات الاولى فى كلية الهندسة ·

·· وفى نهاية العام التالى · نجح فوزى فى الحصول على درجته · وانتهت مشكلة · لتواجهه مشكلة أخرى اكثر صعوبة فهو لا يستطيع أن يعود الى الوطن · حتى لايقدم للمحاكمة بسبب تخلفة عن التجنيد ·

·· ومرة اخرى اختار الطريق الذى يفيده شخصيا ·

قررأن يبقى فى سويسرا · وبسرعة وجد ابواب العمل المغرى تتفتح امامه وعمل فترة فى لوزان ثم انتقل الى جنيف حيث يشغل وظيفة فنية كبيرة فى أحد مصانعها وبمرتب مذهل · وهو يقيم مع زوجته النمساوية ولم ينجب منها ·

·· ورغم بعده عن الوطن الا انه يتابع اخباره اولا باول

وبالذات الاخبار التى تهمه شخصيا • فقد سمع عن قانـــون التجنيد الجديد . ــ الذى صدر أخيرا ــ والذى يرقى ســن التجنيد حتى ٣٥ سنة ، كأقصى سن لا يمكن الاستدعاء بعدها.
وعلق قائلا :

ــ « •• هذا التيسير الجديد لاينطبق على • فقد صدر بعد أن تعدت سنى الثلاثين • وهو الحد الاقصى للتجنيد بالنسبة للقانون القديم • ومعنى هذا أنه حتى لوعـــدت الى الوطن الآن فلن اطلب للتجنيد . وانما سأطلب الى المحكمة .

وسألته :

ــ « هل تريد أن تترك وظيفتك الكبيرة وتعــود للعمل فى القاهرة بمرتب أقل ، اذا ضمنت العفو عنك • مع استبعاد هذا الاحتمال ؟ » •

فأجاب الدكتور فوزى :

ــ « نعم أوافق على العودة . وأريد أن أرد الجميل للكلية التى ارسلتنى الى سويسرا لاواصل دراستى على حسابها • اذا كنت قد تخلفت عن تأدية واجبى الوطنى • فأننى على استعداد للتكفير عن جرمى عن طريق خدمة وطنى فى مجـــال التعليم • الذى ــ فى رأيى ــ لايقل أهمية عن مجال الخدمة فى العسكرية. والسؤال الان ماذا يفيد الدولة • أن اعود بدون الدكتوراه لاخدم فى الجيش فى فترة سلم ــ أى قبل يونية ٦٧ بســـنوات ــ ثم اخرج من الجيش بعد سنه لابحث لى عن وظيفة متواضعة ضمن الالاف من حاملى درجة البكالوريوس • أم أن ابقى سنة اخرى اضافية لاعود الى وطنى حاملا درجة الدكتوراه ؟ » •

•• ويسكت الدكتور فوزى ثم قال بحزن :

ــ « على العموم الذى يرضينى الان هـــو أن الدولة اهتمت أخيرا بحل هذه المشكلة برفعها السن الاقصى للتجنيد حتى ٣٥ سنه • وبذلك لن تتجدد مشكلة مثل مشـــكلتى بعد الان • وياليت هذا القانون الجديد كان قد صدر قبل ٥ ســـنوات ماضية » •

•• وعدت اسأله :

ـ ولكنك لم تجب على سؤالى : هل ستعود أم ستبقى هنا ؟

فأجاب :

ـ « لست أنا الذى أقرر ذلك • وانما هناك فى القاهرة الذين يملكون القرار ويطبقون القانون ويهتمون بمصالح المجتمع • وأنا مازلت اتمنى أن اكفر عن جرمى عن طريق خدمة وطنى فى مجال التعليم • ولايهمنى أن ابقى هنا بالمرتب الكبير الذى اتقاضاه • فلولا الوطن ولولا الاموال الطائلة التى صرفتها الدولة من أجل مواصلة دراستى لما اتيحت لى هذه الفرصة الآن والكلمة الان ليست لى • وانما انتظرها من القاهرة •

واذا كنت قد تعرضت لنماذج من المصريين الذين اضطروا للبقاء خارج الوطن ، فهى نماذج شابه • وصغيرة السن • ولكنها ليست كل النماذج • فهناك نماذج اخرى تستحق أن تسلط عليها الاضواء • ولها الحق فى التهليل والاستبشار بقرار الرئيس أنور السادات الذى فتح لها طاقة من الامل ومن الطمأنينة •

فى سويسرا نحو ٢٧٠ من المصريين الذين تركوا الوطن فى السنوات الاولى من قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ معظمهم من الاثرياء الذين كانوا قد هربوا اموالهم الى بنوك سويسرا وعندما قامت الثورة • سافروا للاقامة بجانب اموالهم •

•• ومعظمهم من كبار السن • ومعهم اولادهم الذين تركوا وطنهم صغارا •وعاشوا فى أوربا يسمعون عن مصر ولا يعرفونها تتوالى عليهم اخبارها وكأنهم لا ينتمون الى تربتها •

ما اكثر هؤلاء الذين كانت جلستهم الصباحية مفضلة فى مقهى (الامباسادور) على ضفاف بحيرة ليمان فى جنيف • وقعدتهم التقليدية فى المساء فى صالون شاى (بالادا) فى قلب مدينة لوزان •

•• وكان الحديث الوحيد الذى يدور بينهم هو أنباء

المضاربات فى البورصة فقد استثمروا اموالهم فى تلك المضاربات • كوسيلة لاستمرار الدخل • فأكثرهم لا يعمل • فلم يسبق ابدا أن عملوا من قبل • اعتمادا على ثرواتهم التى توارثوها ابا عن جد •

ولكن الوضع الان فى سنة ١٩٧٥ غيره فى سنة ١٩٥٢ أو فى ١٩٥٤ وما بعدها •

•• عدد كبير منهم ماتوا • ولكن اولادهم وزوجاتهم على قيد الحياة • اموالهم ضاعت فى مضاربات البورصة أو فى الكماليات والرحلات •

•• وبعضهم لم يفقد ثروته • بل ضاعفها عندما نجحت المشروعات التى استثمرها فيها وهؤلاء يعيشون فى هدوء وفى امان من غدر المستقبل •

ورغم هذا فاننا نجد صلة مشتركة بين الذين ضاعت اموالهم والذين ضاعفوا اموالهم .

هذه الصلة المشتركة هى : اللاوطن واللاجنسية .

•• انهم لا يحملون جوازات سفر مصرية • بعضهم حصل على جنسية أخرى • مثل السعودية أو الاردنية أو حتى السويسرية • ولكن البعض الاخر يعيش فى سويسرا بلا جنسية بلا هوية • مجرد ورقة من السلطات السويسرية تحمل الاسم والعنوان . وتسمح له بالانتقال والاقامة داخل سويسرا .

والحنين لمصر هو الحديث التقليدى الذى يسمعه أى مصرى يجلس مع هؤلاء فى مقهى الامباسادور فى صالون شاى البالادا ـ قبل أن يهدم اخيرا ـ فى لوزان •

اسرته •

•• منهم من يتمنى ان يموت فى مصر • وأن يدفن فى قبر

وأسر الذين ماتوا فى الغربة ، تتمنى اليوم أن يســـــمح بعودة رفاتهم لتدفن فى تراب مصر .

.. وهكذا انتهت سنوات الهروب .

في هـــذا الكـــتاب

ســـنوات الهـــروب

كتب تحت الطبع للمؤلف :

الجزء الثانى من سنوات الهوان

سماسرة السلاح

٢٥ سنة حرب !

٥٠ ألف مليون جنيه خراب !

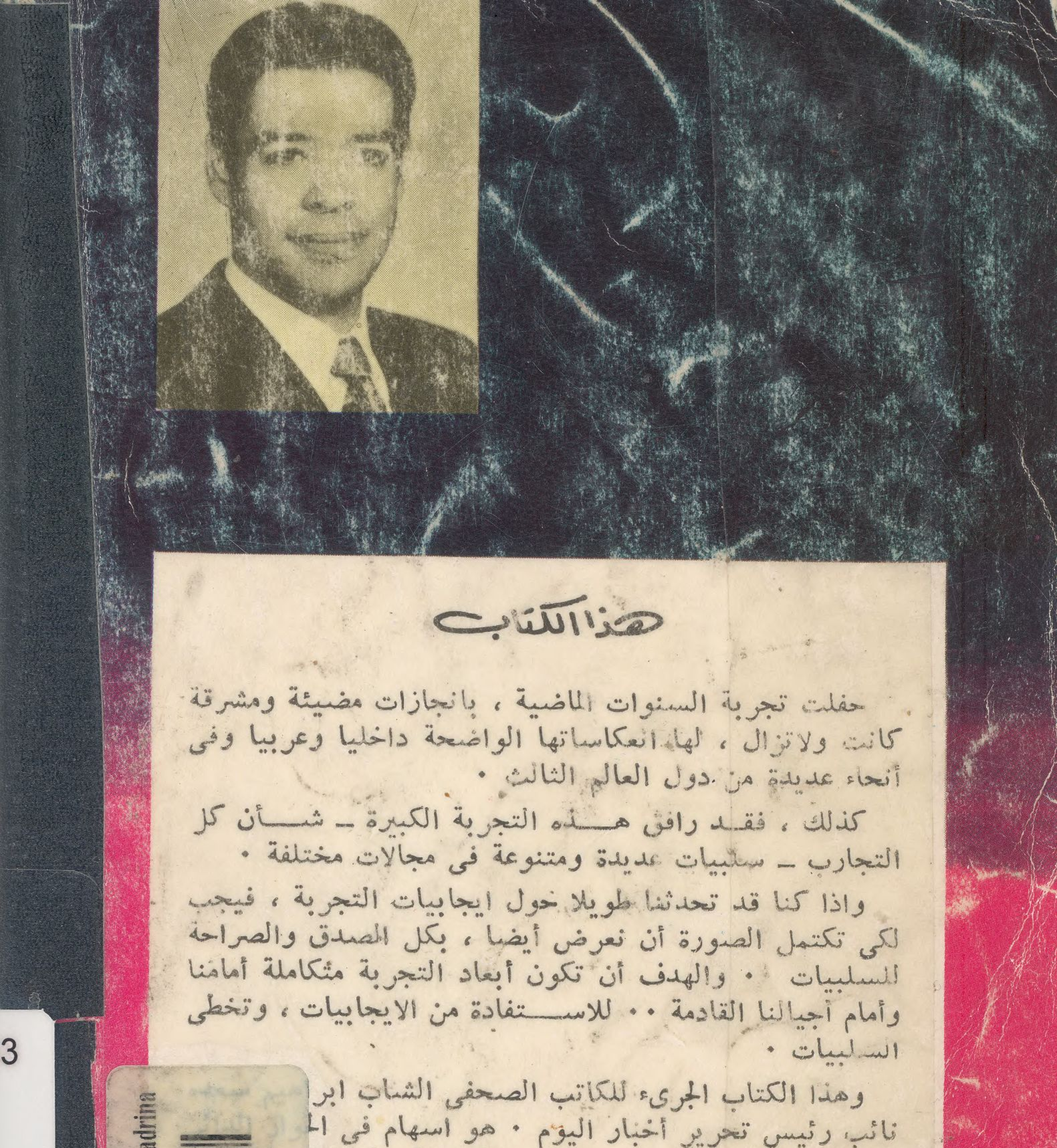
● ● أخطر وأدق كتاب .. عن سنوات الحرب المريرة التى خاضتها مصر ، منذ سنة ١٩٤٨ وحتى سنة ١٩٧٥ .

وفيه يقدم المؤلف صورة كاملة ومزعجة ، فى نفس الوقت ، لما تحمله الشعب المصرى من أجل قضايا آمن ببعضها ، ولم يؤمن ببعضها الآخر !

لقد تحمل الشعب المصرى أكثر مما تحمله غيره فى سبيل تحقيق احلام واوهام لم تتحقق ابدا !

رقم الايداع بدار الكتب ٣٤٧٣ سنة ١٩٧٥

طبع بمؤسسة روز اليوسف



هذا الكتاب

حفلت تجربة السنوات الماضية ، بانجازات مضيئة ومشرقة كانت ولاتزال ، لها انعكاساتها الواضحة داخليا وعربيا وفى أنحاء عديدة من دول العالم الثالث .

كذلك ، فقد رافق هذه التجربة الكبيرة ـ شأن كل التجارب ـ سلبيات عديدة ومتنوعة فى مجالات مختلفة .

واذا كنا قد تحدثنا طويلا حول ايجابيات التجربة ، فيجب لكى تكتمل الصورة أن نعرض أيضا ، بكل الصدق والصراحة للسلبيات . والهدف أن تكون أبعاد التجربة متكاملة أمامنا وأمام أجيالنا القادمة .. للاستفادة من الايجابيات ، وتخطى السلبيات .

وهذا الكتاب الجرىء للكاتب الصحفى الشاب ابر
نائب رئيس تحرير أخبار اليوم . هو اسهام فى الح
الآن حول هذه التجربة .. نطرحه كوجهة نظر يجب
وأن تناقش .. ونحن نرحب دائما بوجهات النظر ا
وصولا الى الحقيقة .

احـ

الثمن ٦٠